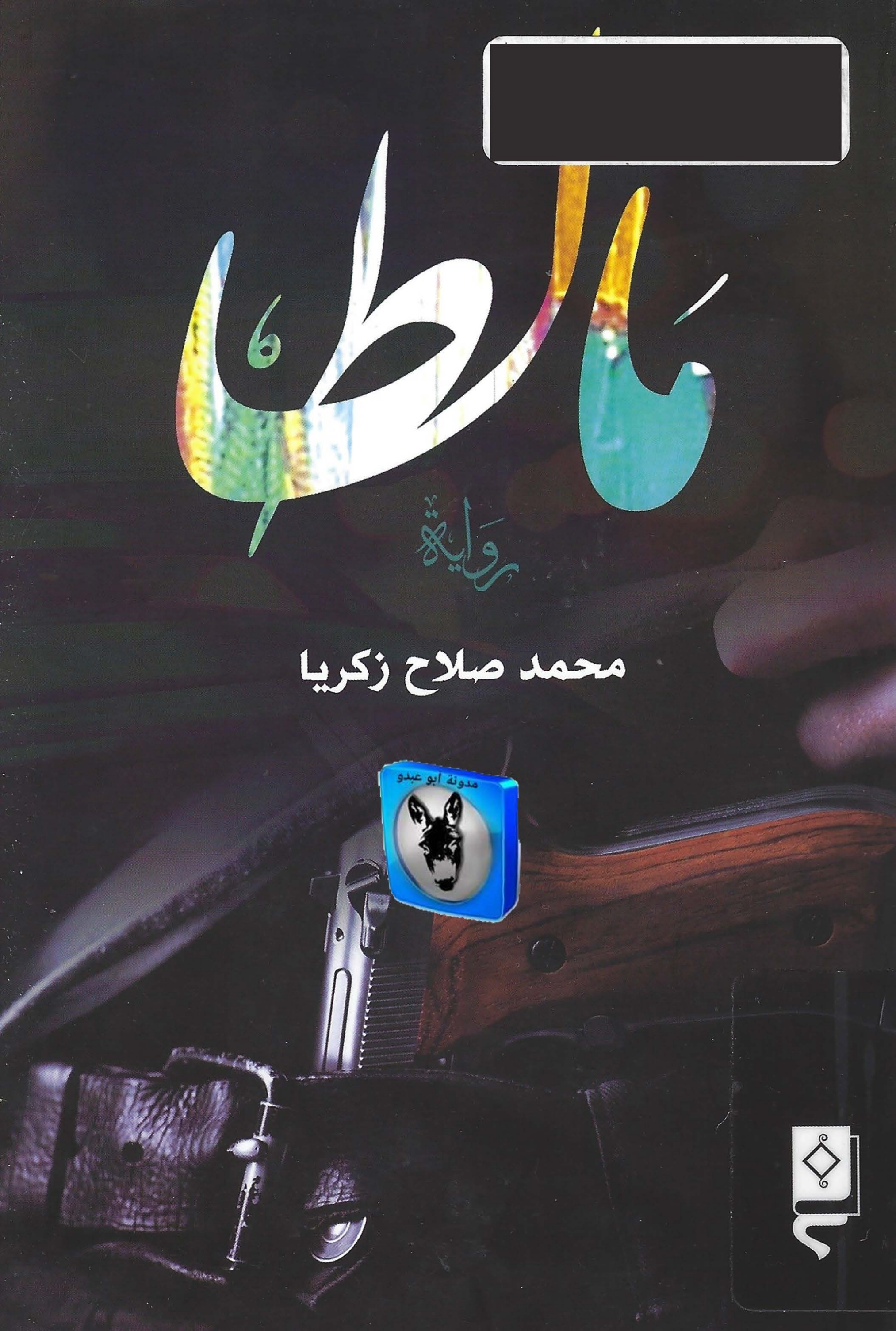
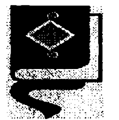

رواية
محمد صلاح زكريا
مدونة ابو عبدو




الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

اسم الكتاب	: مالطا «الضمير يسبق القانون»
اسم المؤلف	: محمد صلاح زكريا
الغلاف	: عبد الرحمن حافظ
التصحيح اللغوي	: خالد رجب عواد
الطبعة	: الأولى
رقم الإيداع	: ٢٠١٨/٢٧٧٨
الترقيم الدولي	: ٩٧٨-٩٧٧-٧٨٦-١٣٨-٠

٨ عمارات الواحة – قطعة ١٠ – مدينة نصر - القاهرة

ت: ٠١١١٠٣٧١٦٤٠

ghorabpublishing@hotmial.com

مَالطا

«الضمير يسبق القانون»

محمد صلاح زكريا



«وُلدت الرواية بأحداثها وشخصياتها من رحم خيال المؤلف ولا علاقة لها بالواقع».

إهداء

إلى من غابا وتركا فجيعة الفراق

أيامًا كانت تحمل ألف حلم

لكن.........................

البهجة ما مضى منها لن يعود

فقد غابت خيوط الشمس عن عيني

أبي وأمي.. موطن العشق

الأمل الضائع والبهجة الغائبة

سلامًا عليكما.. سنلتقي حتمًا

عليكما رحمة ربي ومغفرته

الإطار

الكون صامت، نور الفجر لاح، ينبلج لإقصاء متاهات الظلمة، لكنه يصطدم بموجات من الغيوم، نسمات ربيعية تُداعب الأشجار، والزراعات المنتشرة على جانبي الطريق.. تظهر أضواء سيارة قادمة على بُعد.. أمرٌ غير معهود، السيارات التي تحمل العمالة لم يحن موعدها بعد.

تتوقف السيارة على جانب الطريق وأشجار "الجازورين" تحيط بالمزارع بقامتها الفارعة، تشبه حارسًا مهيبًا، يبثُّ الرعب والرهبة في الرائي، بعد هنيهة يترجل السائق مندفعًا بضخامة جسده وطول قامته، تتوارى ملامحه خلف الظلمة وشبح الضباب القاتم، وعلى الجانب الآخر من السيارة، تخرج امرأة ممتلئة الجسد، تتشح بالسواد تندفع نحوه، يدور حديث خافت بينهما لكن بغتة بلا مقدمات ينقض الرجل على السيدة عنوة، يحاول طرحها أرضًا، يُشبه ذئبًا يعوي، المرأة تقاومه بعزيمة وثقة لتدور رحى الحرب بينهما.. الرجل يُمزِّق جلبابها ويضربها بعنف موجهًا لكمات قوية، وقد نجح في كتم أنفاسها حتى لا يتردد صدى صراخها في رحاب الكون.. تتهاوى السيدة بين ذراعيه مغشيًّا عليها فقدت بأسها وقوة جأشها، ينزع غطاء رأسها بقسوة ومقت شديد يطبقه على فِيها.. تمر اللحظات بطيئة يترقب الطريق خشية افتضاح أمره، ويده تزداد ضغطا كي يكتم أنفاسها ثم يخرج سكينًا ينهال عليها طعنات متفرقة .. تركها تتمدد على الأرض في هدوء، يدور حولها بتشفٍّ وابتسامة ماكرة.. يتأمُّلها مليًّا.. يُخرج من السيارة صفيحة صغيرة، يُسكب ما فيه على الجثة ثم يشعل عود كبريت يلقيه عليها

لتنفجر نار تضوي ودخان كثيف.. ينظر حوله برعب وذعر شديدين، يرى أضواء سيارة مسرعة قادمة على بعد.. فجأة يندفع يحمل رملًا وترابًا، يُهيله على النيران، ظل كذلك في صراع مع اللهب حتى انطفأت النار فلم تنل من الجثة إلا بطنها وصدرها في حين ظل وجهها يحمل ملامحها بلا تشوُّه، يحكي بشاعة ما تعرضت له، يركب سيارته يفرُّ هاربًا يدعها لمصيرها والكون ما زال يرتدي حلة الغيوم يلتمس إشراقة الصباح للتخلص من تسلُّط تلك الشبورة الكثيفة وتجبرها.

ساعات قليلة وتدبُّ الحياة، تدور رحى السعي، وقدوم أفواج السيارات تحمل العمال، تحمل وجوههم الشاحبة علامات الجدية والحماسة، لا تخلو من ضيق لهذا الندى وهذا الضباب الذي ينذر بيوم قيظ لن يرحم، يزيد من كدِّهم وتعبهم.. لم يتبين أحد تلك المسكينة التي راحت غدرًا واغتال ذئب روحها بلا شفقةٍ حتى أتى مطلع الظهيرة بجبروته، يدحر فلول الغيوم، يمنح الكون حريةً كي تنشر الشمس رداءها الحار، وتنير الأرجاء بلا هوادة أو تلكؤ لتتعالى معها الصرخات، يعلو النحيب، يدع كل عامل فأسه يُهرع يستكشف الأمر ليهوي كل منهم جاثيًا على الأرض يتلوى كمدًا وألمًا من هول ما يرى من بشاعة.. يغطونها بالقشِّ والحطب سترًا حتى بدت الطيور في أعشاشها تُتابع الحدث الجلل من كثبٍ تتساءل في غضب وثورة عارمة من الحيوان الذي فعل هذا بتلك المرأة البائسة! أبواق سيارات الشرطة تخترق الآذان، يظهر الارتياح على وجوه البعض فلا شك أن الشرطة لن تصمت، سوف تكشف الحقيقة، لن تدع الجاني يفرُّ بفعلته النكراء لينال القصاص العادل.

باسِل

ينتابني ضيقٌ شديد، لا أشعر بالراحة مع كل تغيير، ربما طبيعة عملي فرضت عليَّ الرتابة وحب الثبات وكراهية الرحيل أو بقاء الأشياء على موضعها، لكن لا مفر فقد صدر قرار الترقية الجديدة، ومعه الانتقال لمكان جديد بمعطياته المتفاوتة وتفاصيله المترهلة، وشخصياته المتباينة التي تحتمُ عليَّ أن أتعامل معها بحذرٍ ونوع من التكبر والإباء حتى تظل في أعينهم وحشًا كاسرًا، ربما لو شعروا بضعفك لحظة طمعوا في النيل منك أو فعل أشياء لا تُرضيك .. قد يصل الأمر لإيذائك فطبيعة البشر تتناقص كل مدى في فعل الخير والتمسك بالخلق القويم، فلا تجد سوى وجوهًا ضاحكة تخفي خلفها مقتًا وخبثًا. ماهية عملي علمتني سوء الظن بالآخر قبل إعطائه الثقة أو أن البشر مدانون حتى يثبت عكس ذلك.. النفس تتعاظَم فيها مقادير الشر أكثر من قيم الخير إن أتاحت لها الظروف للانحراف أو فَتْح بابٍ لها لتحقيق منفعة.

لكن هذا لا يمنع من وجود الطيبين، لكن أين هم وأنت قادم إلى مكان جديد لم تكتشفه بعد.

أتأمل مكتبي بما يحمل من بساطة ورهبة وألوان قاتمة وشباك كبير مُنع فتحه لوجود التكييف.. يدخل العسكري السمج بابتسامته البلهاء،

يحمل صينية القهوة، يُمطرني بكلمات الود والترحيب، لم أنتبه له، هززتُ رأسي بلا مبالاة ليستمر في سيمفونيته، لكنني أشرتُ له بالصمت، ارتشفتُ من الفنجان لتكون الصدمة طعمها مر، مذاقها غريب لأبصق في اتجاه العسكري ساخطًا صارخًا معلنًا عن تأففي، يقف إزائي ترتعد فرائصه، يتلعثم، يقدم آيات الاعتذار، يسب المسئول عن البوفيه، يعدني بفنجان آخر سوف يعده بنفسه لكن لوَّحت له أن ينصرف حاملًا الصينية بما عليها، أوبخه، أتوعد بأن الأيام القادمة تحت إمرتي لن تحمل خيرًا لهم.

اجتماع روتيني جمعني بمأمور القسم مع زملائي من الضباط، يرحب، يشيد بمآثري وكفاءتي التي سمع بها وسبقتني إلى هنا مؤكدًا أنني إضافة قوية للعمل بقسم الشرطة، يخبرني أنه وضع اسمي ضمن طاقم الحراسة في كشوف أعمال امتحانات الثانوية العامة والفنية التي تُجرى الآن كنوع من تحفيزي وتشجيعي، أستمع دون تعقيب أكتفي بإيماءات التقدير وابتسامات أتبادلها مع نظرات الزملاء، لكنني أخفيت ضيقي في نهاية الاجتماع ليس بسبب نظرات نائب المأمور التي لم أشعر معها بعدم الراحة، لكن مع كل جديد الأعباء تزيد، رغم كوني رئيس المباحث رسميًّا لكن شيئًا ما يئد فرحتي، ينغص بهاء المنصب ورونق المكانة، إضافة إلى عشقي لعملي وتمرسي في هذا الجانب منذ تخرجي في كلية الشرطة، وتميُّزي في هذا المجال الوعر فإنني تمنيت مع انتقال إلى هنا أن تكون استراحة محارب رغم أن رؤيتي تتبلور حول أن ضابط

الشرطة ميدانه الأساسي في الشق الجنائي، وكشف الجرائم وتعقُّب المجرمين وليس مجرد الوقوف في الشارع لتنظيم المرور أو الخروج في حملات الإزالة والتعدي على الناس لهدم بيوتهم أو زراعاتهم لمجرد أنهم مخالفون، تاركًا دعوات تلاحقني ومآقي تفيض دموعًا وحسرةً، أو حتى القيام بوظيفة حارس لشخصية عامة أو دور العبادة.

انتشلني من أفكاري الشاردة وضيقي من هذا الحر، والوحدة التي اجتاحتني دخول زميلي النقيب إيهاب فتحي - معاون القسم - بقامته الفارعة وعينيه الخضراوين ونظراته الحادة وأنفه الصغير ورائحة عطره تسبقه، تؤكد أنه انه من نوع فخم وغالٍ، يبتسم، رحَّبتُ به ودعوته للجلوس فبادرني بصوت يحمل راحة.

- أتمنى يا أفندم أن تشعر بالراحة بيننا ويكون عملك موفق.

هززتُ رأسي ممتنًا لكلامه دون تعقيب، ما زال لساني منعقدًا لا يطاوعني على الحديث ربما التغيير يحتاج إلى وقت للتعود والالتئام في المنظومة الجديدة، أُحدِّق إلى البرواز الملتصق بالحائط لطفل صغير يحمل ورودًا.. لا أدري ماهية الصورة ولِمَ وُضعت هنا، فهذا المكان الموحش لأي شخص يدخله لا يبعث على الراحة، ويهابه الجميع، ومكان لاستجواب أعتي المجرمين، وربما يحدث فيه تجاوزات ضد الإنسانية كنوع من الضغط كي يُقر المجرم ويعترف بجريمته.

على الجانب الآخر برواز يحمل الآية القرآنية:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ﴾.

تلك الآية التي نقرؤها في قاعات المحاكم دومًا ربما من وضعها هنا يريد أن يُذكِّرنا بالعدل، وهل تسير الحياة سيرها الطبيعي كقطار لا يحيد عن قضبانه.

نهاية اليوم كانت سعيدة برسالة هاتفية من صديقي العقيد محمد الغنيمي الذي ترك العمل بالشرطة، واتَّجه للعمل الحر.

فراشي البارد في استراحة القسم يحمل الرتابة والملل، ليل بداية الصيف تخلو من ابتسامة الرضا حتى الشاي الذي صنعتُه بنفسي لم يفلح في معالجة السأم، تركتُ الشاي الساخن يُواجه مصيره مع برودة الغرفة التي جلبها التكييف، ورويدًا رويدًا راح النوم يُداعب أجفاني المتعبة، يتراءى شبح والدي مع ضوء يتسرب من بين ثنايا النافذة، يترنح من ألم المرض، يُودِّعني ونصائحه تتلاحق عليَّ .. دموعه الحائرة تؤكد يومًا أنه صاحب مبادئ وقيمٍ في عمله، وكم حقَّق من إنجازات جعلته يعتلي منصب مدير عام المصنع الذي يعمل به، لكن المرض نهش قُوَّته، خذل إرادته ليتهاوى سريعًا ويخرُّ بائسًا على حاله؛ فلم يكون يتصور نهاية البأس والقوة، السقم والوحدة على الفراش، تحاصره آهات الكآبة، فقد تخلَّى عنه الجميع، ولم يعد أحد ممن كانوا يسيرون في ركبه ويتمسحون بجلاله ويمدحونه وينافقونه يسأل عنه، انفضوا من حوله، يبحثون عن بطل وظِلٍّ آخر ينتفعون من ورائه، فالورقة إن سقطت من الشجرة لا

أحد يسأل عن مصيرها.. التفتُّ وتقلبتُ على فراشي لأجد صورة مَن تصوَّرتُها حبيبتي ذات يوم تتراءى إزائي.. زوجتي السابقة التي قتل العناد حبنا وانتهت أسطورة عِشقنا تحت وطأة المشاحنات.. وعدتني يومًا مع بداية توهُّج حبنا أن تصبح أميرتي، نبع سعادتي، لكن تزوجنا .. تبخرت الوعود، صارت الحياة لا تُطاق، كرهتُ كل شيء، وكان بودي أن أقتل كل نساء الكون، ليكون الانفصال - بعد شهور قليلة من الزواج - حليفنا، قررتُ بعدها التمرد وعدم التفكير في الارتباط مرة أخرى.

الغربة والانتقال لمكان لم تتعوده تُذكِّرك بكل صورك البائسة، هكذا قدرك وعليك أن تدور في رحى الانتظار كي تتأقلم على الأوضاع الجديدة.

استيقظت كعادتي في الصباح الباكر على رشفات القهوة التي أُجيد صناعتها.. لم أشأ الذهاب إلى مكتبي، قررتُ الخروج وحيدًا لاستكشاف معالم المكان والتجوُّل بحرية في شوارع المدينة الصغيرة وحواريها.. فرصة أنني انتقلت بالأمس ولا أحد يعرف هويتي من سكان المدينة أمر لن يتكرر، ويُتيح لك فرصة التنقُّل بحرية بعيدًا عن أعين المتطفلين وتربُّص المجرمين.. إنها الحرية التي نفتقدها بحكم طبيعة عملنا.. يوم واحد سأشعر فيه بحريتي، لكن غدًا سوف تعرف الوجوه هيئتي، سيكون عسيرًا أن أسير بمفردي في الشارع.

قسم الشرطة يقع في الناحية الغربية من المدينة بجواره مجموعة من المصالح الحكومية مثل مجلس المدينة والسجل المدني ومكتب البريد والإدارة التعليمية ومجموعة من المدارس، على بُعد خطوات يمرُّ شريط القطار ثم محطة السكة الحديد التي تعجُّ صباحًا بالركاب من الموظفين وعمال مصنع النسيج وطلاب المدارس.

دخلتُ المحطة أتأمَّلها بما تحمله من طابع الطراز الإنجليزي رغم وجود بعض التحديثات.. لحظات ويصل قطار الثامنة إلا ربعًا ليخرج منه طوفان بشري أجبرني على المُضي معه كموج بحر يدفعني للخارج لأجد نفسي في الشارع وسط السيارات وغزو التكاتك يضايق الطالبات أمام المدرسة الصناعية التي تقع قبالة المحطة مباشرة، وعلى مقربة مصنع الغزل والنسيج يفتح أبوابه يلتهم تدافع العمال لكن مبانيه يعلوها التراب والإهمال.. سمعت قبل قدومي أنه لا يعمل بكامل طاقته لوجود مشكلات مع المستثمر الهندي الذي اشتراه في صفقةٍ مريبة من الحكومة ضمن برنامج الخصخصة.

وقفتُ على جانب الشارع أتأمله بما يعجُّ من حركةٍ ونشاط حتى هدأ قليلًا، فعدتُ إلى المحطة أعبُرُ إلى الجانب الآخر لتطالعني السوق بأرضها الفسيحة بما تحمل واجهتها من متاجر وحوانيت صغيرة ومطاعم ومقاهٍ بدأت تفتح أبوابها سعيًا وراء رزق يومٍ جديد.

تجوَّلت في أنحاء السوق أتأمل باعة الخضر والفواكه يفترشون الأرض، والأكشاك يبدؤون يومًا جديدًا، يُمنون أنفسهم بيومٍ سعيد وحصادٍ وفير.

وأصحاب المحلات والأكشاك والخيام يُخرجون بضاعتهم - يحتلون الأرصفة، ومناوشات مع بعض الباعة، كلٌّ يريد الاستحواذ على نصيب أكبر من الأرضية كما يقولون، ثمة مناوشات وتراشُق بالألفاظ بين بائعتين للخضار حتى تناهى إلى سمعي إحداهنَّ تقول للأخرى:

"الله يرحمك يا صَابْحَة كنتِ مِعلمه الناس هنا الأدب".

رنَّ في أذني كلمة صَابْحَة واسترعى انتباهي.. توقفتُ مشدوهًا أتبيَّن الاسم ربما سمعتُ خطأً.. وددتُ لو سألتها: مَن "صَابْحَة"؟ لكن قيودًا ما تجبرني على المضي في طريقي دون إشباع فضولي، يسير فيما بعد التحري والتقصي ومعرفة الحقيقة وجَمْع المعلومات.

في أحد جوانب السوق، يطالعني المسجد الأثري الكبير بشموخه وعظمته التي تتجلَّى لتشعَّ في النفس راحة وفي القلب رهبة.. ليس لديَّ معلومات كافية عن زمن بناء المسجد وإلى أي عصر ينتمي، لستُ مُولعًا بالتاريخ ولا بالآثار، علَّمتني دراسة الجريمة ألا أركن كثيرًا للماضي، وأفتش في الأزمان.. كفى بحقيقة الحاضر خير بيان.. لذا لم أقف مبهورًا أمام واجهة المسجد بنقوشه وزخارفه البديعة وتلك المئذنة العالية التي تعانق السماء بشموخ وإباء.. تطلعتُ إليها بتمعُّن أستمدُّ منها العظمة والاعتداد بالنفس والرأس المرفوع بإباء لكن انتشلني من شرودي صياح بائع نشاز يدفع عربة كارو يُجرُّها بغلٌ هزيل كاد يصطدم بي.. ينظر لي شزرًا ساخرًا من وقوفي سابحًا في ملكوت التأمل.. اشتعل

غضبي وكدتُ ألحقُ به ألقنه درسًا في فنون التعامل معي ولا مانع من التعدي عليه بالضرب المبرح إن لزم الأمر.. سُحقًا لمن يخدش كبريائي، لكنني تذكرتُ أنني مجهول هنا لم تشرق شمسي أمام العامة حتى يرتعدوا وتُحبس الدماء في عروقهم بمجرد ذكر اسمي، لكن مهلًا الأمر يسير عما قليل سوف يتراءى مجدي وأنني سأملك كل هؤلاء، وأصبح أسدًا يخشاه الجميع حتى الجنين في رحم أمه سوف يُسمع دقات قلبه بوضوح هلعًا إن ذُكر اسمي أو صوتي.. بطشي على الجميع، فقد تعلمت أن الناس تعشق الربيع رغم زوابعه وعواصفه الترابية، ويكرهون الخريف لوداعته وما به من خور عجيب.

مدينة صغيرة لا يوجد بها سوى شارعين رئيسين متوازيين يلتقيان في السوق رغم رحابة أرضها إلا أنها دومًا مزدحمة، ومركز تجاري لا يخلو من رواده ينتهي عند هذا المسجد الأثري الذي يُفضي إلى محطة السكة الحديد.

مدينة خالية من مظاهر الرفاهية والتطور العمراني.. البساطة رداؤها وزحام السوق عنوانها.. يحدُّها من الشرق الأرض الطينية برقعتها الزراعية الخضراء وعلى مقربة لا تتعدى بضعة كليومترات يمر النيل بالقرى الملاصقة للمدينة، بينما غربًا يرنو اللون الأصفر تتخلله الأراضي التي تم استصلاحها مؤخرًا وتحولت إلى مزارع مترامية الأطراف.

بدأت الشمس تشتدُّ وسُعار حرارتها ينهش كياني والعرق يتفصد مني بغزارة.. قلت كفى. عدتُ في جسارة وثقة إلى قسم الشرطة تناوشني نسائم التفاؤل التي تبدلت في ثوانٍ، وأمين الشرطة بسماجته وجسده الضخم وشاربه الكث ينبئانني عن ورود بلاغ بجريمة قتل حدثت منذ لحظات، والمأمور يطلبني على عجلٍ.

لم أهنأ بالتقاط نفسي ونفض غبار رحلتي الصباحية إذ اقتحم المأمور وخلفه النقيب إيهاب مكتبي، يكلفني بالذهاب فورًا في حملة أمنية لمعاينة الجريمة ومناظرة جثة القتيل وفق ما ورد بالبلاغ.

كالعادة استقبلنا عويل النساء وتجمُّع فضولي من البشر تكفَّل العساكر بفضِّه وإفساح الطريق لنا.. جريمة قتل لرجل من الأعراب يعمل راعيًا للأبقار والعجول الصغيرة يتنقل بها ومعه عائلته المكونة من إخوته وأبناء عمومته بنسائهم وأطفالهم.. رحالة، يتنقلون حسب الكلأ وتلك الأراضي الزراعية التي يريد أصحابها تطهيرها من العشب.. يمكثون أيامًا في موضع ما يضعون رحالهم وخيامهم ثم يواصلون غايتهم في الترحال مع التجارة في تلك المواشي، بعضها ملك لهم وبعض الأغنياء والمزارعين يدفعون لهم بتلك الحيوانات شراكة.

الجريمة وقعت على أطراف مزرعة نائية غرب المدينة في السابعة صباحًا.. خَرَجَ الرجل بصحبة ابنته ثم ابتعد عن الرَّحل لتغتاله رصاصات تخترق جسده في ذات الوقت تتوقف سيارة يترجل منها مجموعة من الملثمين يجرون ما استطاعوا جره من الأبقار إلى السيارة ثم

يفرون هاربين.. هكذا قال شقيقه وسط بكائه وحُرقة دموعه، بينما زوجته تنكَّب على الجثة تنوح حاولوا إبعادها لكنها كالجبل لا تتزحزح بقلب جامدٍ وعينين تبرقان بأسًا وقوة، هتفتُ أجذبها من ذراعها كي تنهض.

تزحزحت بانكسار.. تلطم خديها، وثلاثة أطفال يصرخون يتشبثون بجلبابها الأسود، وامرأة بجوارها تنوح، تحتضنها.. أزاح العسكري أعواد الحطب التي تُغطي الجثة.. المعاينة الظاهرية رغم الدماء التي تُغطي جثمان الضحية تؤكد أنه في العقد الرابع من عمره، طويل، نحيف وله شارب كثٌّ، غزارة الدماء حول بطنه وجبهته تؤكد أن عدة رصاصات اخترقته، مزَّقت وجهه وأحشاءه.

تأمَّلتُ المكان، أرض فضاء تُمهد لزراعة محصول جديد، تطوقها أشجار الجازورين .. الهدوء سمة المكان لا يفضُّ بكارته إلا نعيق الغربان.. نظرت حولي وجدتُ كل العيون صامتة تتطلع نحوي، تنتظر رد فعلي حتى صراخ النساء خفُت.. المزعج في الأمر جرأة المجرمين رغم أن كل الدلائل تشير إلى أن القتل بدافع السرقة.

ابتعدتُ قليلًا عن الجثة، أستكشف طريقة هروب القتلة، ومن أين حضروا واتجهوا فارين بفعلتهم.. نهاية المزرعة حيث وقعت الجريمة طريق رملي ضيق لكنه مُمهَّد لسير السيارات يُفضي بعد أمتار إلى تقاطُع طرق رملية تتجه كلها بالتوازي وتدور حول بعضها البعض إلى الطريق الأسفلتي الرئيسي المؤدي إلى المدينة، وبعض القرى المتاخمة حول المدينة

بالإضافة إلى المزراع المنتشرة والتي تنتشر بها زراعات الموز وأشجار الليمون والقمح.. إذًا من اليسير لمن له دراية بالمكان أن يختبئ ويهرب سريعًا دون أن يلاحقه أحد.

أحضروا زوجته تنفيذًا لأوامري.. تقف إزائي منكسرة، نظراتها تغرق حيث موضع قدمها، مُختنقة العَبَرات.. تجاهد أن تكفَّ عن البكاء.. صغارها مازلوا متعلقين بأهداب جلبابها الأسود، وحزام قماشي يحيط بخصرها وطرحة طويلة بنفس لون ردائها، سألتها عن اسمها، رفعت نظرها قليلًا، ردت وصوتها خفيض مُتهدِّج:

"سعدية".

شاحبة الوج، نحيفة الجسد، وعين واسعة يزينها الكحل تزيدها بهاء رغم بؤسها الواضح.. سألت نفسي باستنكار: ما الذي يجعل امرأة ترضى بهذا البؤس وتلك المعيشة الجافة، وحياة لا تعرف الاستقرار؟ لا شيء سوى العناء والشقاء.. تلك المرأة من النوعية التي لا تبحث عن الحب، لا شيء سوى الحياة في كنف رجلٍ، لكن ها هو رَحَلَ بلا رجعة، لكنها لن ترضى إلا بالقيد والإذعان إلى شقيق زوجها إن طَلَبَها للزواج.

أفقتُ من شرودي على صياح أمين الشرطة في وجه المرأة يطالبها برفع صوتها، أشرتُ له بالصمت.. يكفي ما فيه حتى اسم لا حظ لها فيه، سألتُها عما حدث، انفجرت باكيةً تحاول السيطرة على مشاعرها وانفلات دموعها حتى اختلط ببكاء صغارها، فتحوَّل الأمر إلى فوضى

مما جعل النقيب إيهاب يتدخل يطالبها بالهدوء لمعرفة الحقيقة.. استجمعتْ قواها للكف عن البكاء لتردَّ بأنفاس متقطعة:

- يا بيه زوجي قام من النوم الفجر، استلم من أخوه نوبة الحراسة ورعي البقر، وابتعد عننا لنهاية الأرض، وأنا كنت أجهز الإفطار وفجأة سمعت صوت رصاص وضرب نار وصراخ بنتنا هانية، وجريت على هناك، وسمعت صوت عربية، ولما وصلت كان زوجي مرمي على الأرض وجسمه كله دم وميت.

حاولتُ استجواب ابنتها هانية ذات السبعة أعوام التي كانت بصحبة والدها، لكنها ظلت تصرخ، يد تمسك برداء أمها واليد الأخرى تضمُّ بها عروسة قماشية إلى صدرها كأنها تستمد منها الأمان.. أناجي ذاتي أتأمَّلها:

"حتى أنتِ يا مسكينة بجانب بؤسك ومجيئك إلى هذا العالم الموحش لن تهنئي طوال حياتك بعد مشهد مقتل والدك أمام عينيك ورؤية الدماء والقتلة، ولن يكون لك نصيب من اسمك إطلاقًا، فلتحتسبي السعادة، وارضي بالتعاسة بديلًا".

شقيقه سعيد - كما عرَّف نفسه - وأنا لا أدري لماذا تصرُّ هذه الأسرة على إطلاق أسماء لا تليق بحالهم مثل جائع يرسم خبزًا على الحائط يُمنِّي نفسه بأمل زائف! قال سعيد بأسًى وحسرة إنه كان نائمًا واستيقظ مذعورًا على صراخ النسوة وهرول ليجد شقيقه مقتولًا والجناة قد فروا دون أن يرى أحدًا منهم أو يتعقب أثرهم في حين أن

بقية أشقائه وعددهم ثلاثة أحدهم ذهب إلى المدينة بصحبة ابـن عمهـم لبيع اللبن في السوق وآخران ذهبا ببعض المواشي إلى أرض مجاورة وقـد حضرا منذ قليل بعد سماعهما دوي الرصاص.

وأردف أنه قام بحصر عدد الحيوانات التي بحوزتهم فوجـدها قـد نقصت ثلاثة.. إذن نجح القتلة في سرقة ثلاث بقرات وسلبها.

جاءت سيارة الإسعاف لحمل الجثة لعرضها على الطبيب الـشرعي وقمت باصطحاب زوجة القتيل وشقيقه سعيد والطفلة التي شـاهدت الواقعة – ربما نستطيع استجوابها – إلى القسم.

فور عودتي استقبلني المأمور بمكتبه بابتسامة تزيل ضيقًا يجثم عـلى قلبي يهتف:

– هنيئًا لك يا سيادة الرائد باسل.. الشغل بثقلـه ينتظـرك والقـدر بعث لك بجريمة القتل ثاني يـوم لوجـودك هنـا لكـي تثبـت كفاءتـك وتقبض لنا على الجناة قبل غروب الشمس وأنا واثق بقدرتك على ذلـك وأراهن على نجاحك.

بادلتُه الابتسام محاولًا طرد قلـق يخـامرني.. زاد ضـيقي مـن عجـز هؤلاء العساكر عن صُنع فنجان قهوة يُعيـد التـوازن لى.. قمـتُ مُتأففًـا ساخطًا على جهلهـم أصـنع قهـوتي بيـدي، أتلـذَّذ بنكهتهـا مـع دخـان سيجارتي، أزفر بثبات محاولًا بثَّ الثقة بـداخلي لمواجهـة يـوم عـصيب، والمأمور وضعني في ورطة، لكن لن يهـدأ لي بـال إلا والجنـاة غـدًا أمـام النيابة.

تحريات النقيب إيهاب جاءت لتقول إن المجني عليه اسمه مسعود، عمره ٤٢ سنة، تؤكد ما توصلتُ إليه في معاينة الجثة، إنه رحالة لا يستقرُّ في موضع، لكن ليس لديه أعداء، شخص مُسالم لا يعرف من الحياة سوى الرعي والترحال وتربية الأبقار، حتى إنه ليس تاجرًا، فقد تركَ أمرَ بيع الحيوانات وشراها لأشقائه وابن عمه الذي يعيش معهم، ويشاركهم في كل شيء.. زفرتُ في غضب شديد، وكدتُ أُطيح بفنجان قهوتي الفارغ، فالتحريات بها قصور شديد لا تشفي غليلي، ولاتشبع فضولي، وتقودني لأول الخيط.

وقف النقيب إيهاب كتلميذ بليد متلعثمًا ومتعهدًا بجمع مزيد من المعلومات ليخرج ويفرغ شحنة غضبه في الأمناء والعساكر.

أخذ أقوال زوجته وشقيقه لم يأتِ بجديد.. غموض يكتنف مساعيَّ الحثيثة في كشف الجناة ومعرفة الحقيقة خاصة وأن الزوجة لا يبدو عليها شيء يدعو للريبة حتى شقيقه، وبقية أشقائه الذين حضروا تتجلى الطيبة سمة تلازمهم، لكن عليَّ أن أتنحى عن كل ذلك وإعادة سؤالهم بلغة وعيد وتهديد ربما أظفر منهم بشيء يقودني لنقطة نور.

الطفلة وحدها معي بالمكتب أحضرتُ لها شيكولاته أكلتها بنهمٍ شديد، وشربت المياه الغازية بطريقة تدلُّ على حرمانها الشديد، لكن ما زلت تصرُّ على احتضان عروستها، سألتها إن كان والدها قد تشاجر مع أمها أو طبيعة العلاقة بينهما.. تبدو ساذجة لدرجة تبعث الملل الشديد،

لكن لا بد من مُسايرتها ربما تنطق كلمة تزلزل القضية وتثقب نقطة في باب السرداب المُعتم لكن بلا جدوى.

جاء الدور على الزوجة أمرتُها بحدة بالغة بالكفِّ عن البكاء، أدور حولها ونظرات عيني تزداد بريقًا.. تهرب بالنظر إلى الأرض، أصيحُ بثقة وعجرفة مُبالغة أن أي كذب منها سوف يزجُّ بها خلف القضبان ولن أرحمها. تضرب براحتها على رأسها وفي غِمار نشيجها وكلماتها المبللة بالدموع تصرخ:

- حرام عليك يا بيه ارحم غلبي ونور عيني انطفأ بقتل زوجي.. صدقني لو عرفت القتلة لن يشفي غليلي إلا أن أفتح بطنهم وأخرج كبدهم أمضغه بأسناني.

أشقاؤه التحقيق معهم لم يحمل جديدًا، سألت عن ابن عمه، قيل: ما زال في السوق، أمرتُ باستدعائه على عَجَلٍ.

خرجت حملةٌ للتفتيش على المزارع المجاورة، وسؤال أصحابها والعاملين بها، وإحضار من يتم الشك فيه إلى القسم تزامنًا مع حملة لإحضار المشتبه بهم والمسجلين الخطر في المدينة لاستجوابهم ربما نتوصل لشيء يفكُّ طلاسم الجريمة الغامضة.

جلستُ متململًا، والنقاش مع النقيب إيهاب لا يفيد أيضًا، فتحتُ الدرج السفلي في مكتبي بعصبية، وجدتُ به بعض الملفات لا أعرف ماهيتها، قرأ إيهاب ما أودُّ سؤاله، ردَّ مُلاطفًا:

"هذه ملفات القضايا التي فشل مَن سبقوك في كشف الجناة ومعرفة الحقيقة"، أغلقته سريعًا فربما فَتْحه نذير شؤم أن يدخل ملف هذه القضية في هذا الدرج، ويكون الفشل حليفي في أول اختبار لعملي هنا.

دخل ابن عم القتيل بجسده المكتنز ووجهه الضخم وكتفيه العريضتين وقصر قامته عكس أبناء عمه، اصطدمتُ بنظرة ماكرة وابتسامة خبيثة على مُحيَّاه، شعرت تجاهه بعدم الارتياح متأملًا الهالات السوداء التي تُحيط بعينيه، لكن التقطت نفسًا عميقًا وسيجارتي لا تفارقني، يبدو أنني أمام صيد ثمين هكذا حدثتني حدسي الأمني.

اسمه مبروك، أربعون عامًا.. أعزب.

سألته عن سبب عزوفه عن الزواج، ردَّ مندفعًا كأنه لم يسمعني:

- أنا لا أعرف شيئًا، أنا كنت في السوق واسألوا ابن عمي، كان معي وتجار السوق يشهدون بذلك.

رده المفاجئ عقد لساني للحظات ثم صحت منزعجًا أحدجه بنظرة نارية:

- لم أسألك أين كنت؟ سؤالي: لماذا لم ترتبط حتى الآن؟

فتح فاه مندهشًا.. يلتقط أنفاسه محاولًا الإجابة عن سؤال لم يتوقعه.

- النصيب يا سعادة الباشا.

تأملته هنيهة، نظراته زائغة، يبدو متوترًا، زائغ النظرات، يحاول السيطرة على عدم توازنه، سألته بحدة:

- هل تتعاطى أي مسكرات.

ردَّ مقاطعًا والخوف يطلُّ من عينيه:

- لا يا بيه حد الله ما بيني وبين الحرام.

ضحكتُ ساخرًا ونظراتي النارية تلتهمه تزيد توتره.

- لكن هيئتك تؤكد غير ذلك، قل لي يا مبروك ما علاقتك بالقتيل.

صاح بكلمات متدافعة وبأسًى شديد:

- يا باشا مسعود ابن عمي وأخي وطول حياتنا مع بعض لم نفترق في تربية المواشي والتنقل من مكان لآخر مع بعض.. الله يرحمه كان قلبه طيب وحنان الدنيا كله فيه.. منهم لله الكلاب قتلوه.. نفسي أعرفهم.. أقسم بالله لو أعرفهم لأقطعهم وأرميهم للكلاب.

- لماذا ذهبتَ إلى السوق يا مبروك؟ حسب معلوماتي إن فيه تاجر يمر عليكم كل صباح لأخذ اللبن وبيعه بمعرفته في السوق.

تقدم خطوة ناحية المكتب كأنه يلاحقني في الرد على سؤالي بصوت عالٍ:

- فعلًا يا باشا لكن من أسبوع ابن عمي مسعود - ربنا يرحمه وينتقم من القتلة - اكتشف أن التاجر يتلاعب بينا في الميزان والسعر وأنه يبيع اللبن في السوق بأضعاف ما يشتريه منا، فاقترحت على ابن عمي وإخوته أن نبيع نحن اللبن في السوق مباشرة ونبيعه بسعر التاجر ونكسب.

قاطعته بحدة:

- تقصد فيه خلاف حصل بين القتيل وتاجر اللبن؟

- من أسبوع ابن عمي - الله يرحمه - واجه التاجر وكنت حاضر أنا وسعيد وبصراحة التاجر كان بجح وقال إنه من حقه يكسب وصوته كان عالي فرد عليه ابن عمي بعصبية شديدة وكبر الخلاف بينهما ومشى التاجر وهو يهددنا بأنه لن يسمح لنا ببيع اللبن لأحد سواه وعينه كلها شر.

طلبتُ مثول سعيد شقيق المجني عليه الذي ما زال تحت قيد التحقيق وباقي العائلة ليؤكد صحة واقعة الشجار الذي حدث والتراشق اللفظي بين مسعود والتاجر منذ أسبوع.

استدعيتُ التاجر فورًا ليمثل أمامي بهيئته الريفية، رجل خمسيني، يرتدي جلبابًا باهت اللون، وطاقية تُغطي رأسه الصغير، وأنف مدبب تحتها شاربه خط رفيع، لحية غير مُهذَّبة تتخللها شعيرات بيضاء، يقف معتدًّا بذاته سألته عن الخلاف ليتحدث بثقة أنه يتعامل مع عائلة القتيل

على فترات متقطعة لطبيعة تنقلهم وذهابهم إلى أماكن بعيدة يصبح من التكلفة الوصول إليهم لذا عند وجودهم بالقرب من المدينة يتعامل معهم، لكن منذ فترة شعر بمضايقات من المدعو مبروك وحاول مساواته على مشاركته في تجارة اللبن، بل حاول إبعاد أبناء عمومته لكي يتعامل معه بمفرده محاولًا فرض سعر على التاجر بحيث يحصل على مكسب وفرق سعر لصالحه بعيدًا عن أعين أقاربه لكن التاجر - حسب روايته - رفض ذلك ليفاجأ منذ أسبوع بثورة القتيل بل تمادى باتهامه بالغش والتدليس في الميزان والسعر وهو ما رفضه فاحتدَّ الكلام بينهما، لكنه لم يخرج عن كونه خلافًا عاديًّا لا يصل إلى حد التهديد أو الوعيد بشيء سيئ أو إلحاق الأذى بأحد، مؤكدًا انه شعر أن مبروك وراء هذه الوقيعة وأراد إبعاده لكي يستحوذ على حصة اللبن بمفرده وأنه لما شاهده في السوق لم يعترض فهذه أرزاق وسوف يتركه والأيام كفيلة بكشف حقيقته وفضحه أمام أبناء عمه.

تحريات الزملاء هنا التي طلبتها عن التاجر تؤكد أنه رجل مُسالم ليس في سجل حياته نشاط إجرامي، صاحب سمعة حسنة لا يوجد سوى نشاط سياسي قديم في بداية شبابه بانضمامه لإحدى الجماعات الدينية، وتم اعتقاله لشهور ثم خرج عازفًا عن المشاركة أو الاختلاط بأي جماعات، واتجه للتجارة في الحاصلات الزراعية ثم ركز نشاطه في الفترة الأخيرة على اللبن، يجمعه من الفلاحين في القرى ثم بيعه للمحلات والمطاعم في المدينة.

أمرتُ بالتحفظ عليه، ثم عقدتُ اجتماعًا مع زملائي في القسم للتشاور وقراءة التحريات كافة التي تم جمعها ومحاولة التوصل إلى الجانة من خلال طرح تصورات وإعادة قراءة محاضر التحقيق مع من تم أخذ أقوالهم ربما نستنبط ونستشف رؤى جديدة تقودنا إلى غايتنا وتفتح أفاقًا نحو تقديم الجناة للمحاكمة.

أشعر بنشوة، وحماسة شديدة رغم حرارة الجو المرتفعة، والضيق الذي يلازم النفوس من هذا القيظ حتى تكييف المكتب يبدو نشازًا، تحالَف ضدنا كأنه يستمدُّ طاقته من وهج الشمس الحارقة.

لديَّ يقين وشعور جارف أن المتهم والقاتل بين أيدينا.. جهد بسيط وتفكير عقلاني سوف يساعدنا في محو التراب وكشف الذهب.

ملازم أول أشرف أحد ضباط القسم يؤكد أن الجناة من اللصوص وقُطَّاع الطرق وأنهم راقبوا وترصدوا المتهم، وأن من بالخارج ليس لهم علاقة يستند إلى حدوث جريمة قتل بشعة العام الماضي بالقرب من هذا المكان، حيث تم العثور على جثة بائعة خضر وفاكهة مشهورة في السوق، ولم يعرف حتى الآن القاتل، لكن وقائع الجريمة تُشير إلى تعرض السيدة إلى الاعتداء الوحشي بعد الفجر بلحظات، وتعرض جثتها لحرق جزئي، لكن ظل الجاني غير معروف، فشلت الشرطة والنيابة في التوصل لكشف غموض الجريمة والإيقاع بهذا السفاح الذي انتهك شرف هذه السيدة وروحها، لكن ردي أن الجريمة هنا مختلفة تتباين فيها الظروف والملابسات..

النقيب إيهاب تتركز شكوكه حول تاجر اللبن، قسمات وجهه الطيبة تخفي خلفها قلبًا قاسيًا، تشرَّب التطرف والميل إلى العنف في التعامل مع الآخر.. احتمال ثانٍ زوجته من يدري ربما لها عشيق اتفقت معه على قتل الزوج ليخلو لهما الجو والعشيق الأقرب هو مبروك، لكن ردي أن التحريات تخلو من أي إشارات إلى وجود خلافات زوجية أو تقارب بين الزوجة ومبروك.

تتجه شكوكي نحو التاجر ومبروك ربما تحالفا معًا ضد القتيل، لكن ما الدافع وراء ذلك؟ لكن ما يفند اعتقادي أن مبروك وجه أنظارنا نحو التاجر ليضعه في قفص الاتهام وبؤرة الاهتمام.. إذًا مبروك ربما كلمة السر ومفتاح الوصول.. لكن كيف يمكن مسايرته والإيقاع به أو حتى مساعدتنا في التوصل إلى القتلة إن لم يكن المدبر الحقيقي لتلك الجريمة البشعة.. أخشى أن تلحق الجريمة بسابقتها العام الماضي، لكن مهلًا، أنا هنا ولن يهدأ بالي إلا بالقبض على الجاني.. عيناي تبدوان في أعماق مرآة صغيرة مثبتة بداخل المكتب كأنهما جمرتان تشتعلان تحديًّا وجسارة في الظفر بالجناة وتثبيت قدميَّ وتأكيد كفاءتي هنا.

أحضروا الغذاء في المكتب، فراخًا مشوية وكفته، راح زملائي يلتهمونها بتحفز غريب ونهم شديد، بينما عقلي مرجل يغلي بالأفكار والتصورات حتى جريمة تلك البائعة أخذت حيزًا من تفكيري لا أدري لِمَ.

لم تمتد يدي للطعام، بل قفزت من على الكرسي أصيح في وسط الغرفة بطريقة مسرحية:

"علينا أن نبحث في الأماكن التي حطَّ فيها القتيل وعائلته رحالهم مؤخرًا، ربما نصل إلى بداية الخيط".

أمرت بتجهيز حملة فورًا للخروج، لا وقت للانتظار كلما أحرزت خطوات، ودماء القتيل ما زالت ساخنة كلما أربكت خطط الجناة، جعلتهم يخطئون حتى يتساقطون إزاءك، محاصرة الفئران تجعلها تفرُّ مذعورة من جحورها إلى المصيدة.

خرجت على رأس حملة بمصاحبة النقيب إيهاب ومجموعة من أمناء الشرطة والعساكر والمخبرين وبصحبة سعيد شقيق القتيل كي يرشدنا على المكان الذي كانوا فيه قبل المكان الحالي الذي حدثت فيه جريمة القتل الذي وجدناه لا يبعد بينهما سوى بضعة كيلومترات.. استقبلنا ابن صاحب الأرض، شابٌّ ثلاثيني ذو لحية طويلة وحليق الشارب، يتبختر في جلبابه الأبيض القصير ناصع البياض، يتدلى من على رأسه شال أبيض، زبيبة الصلاة تشعُّ على جبهته، توقعته متجهم الوجه لكن بمجرد أن اقترب منا طفرت على محياه ابتسامة قابلتها بصرامة، وأنا أقبض على يده التي امتدت لي تُرحِّب بقدومي ثم دعاني للجلوس على كرسي خشبي أحضره أحد عماله، لكني أشرتُ له بالكفِّ عن الحديث والاكتفاء بالوقوف ثم سألته عن أبيه فقال لي: "دعواتك له بالشفاء، إنه مريض بالكبد، وخرج منذ أيام من المستشفى بعد أن عجز

الأطباء عن وقف النزيف وعلاجه من سرطان الكبد، أسأل الله لنا ولكم العافية".

سألته عن القتيل مسعود ردَّ بأسًى متجاهلًا دخان سيجارتي الذي غمر وجهه:

"لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، لقد تألمتُ جدًّا بعد سماعي خبر قتله صباحًا.. نسأل الله أن يتغمده بواسع رحمته ومغفرته، والله لم نَرَ منه إلا كل طيب، كان رقيق القلب، متدينًا حريصًا على الصلاة في أوقاتها ومحبًّا لفعل الخير، حتى إخوته ربنا يبارك فيهم طيبين وناس تعرف ربنا".

سحبت نفسًا عميقًا من سيجارتي وأنا أرمقه بنظرة حادة تملص منها إلى النظر إلى السماء يتمتم ببعض الأدعية:

"وابن عمه مبروك.. ما رأيك فيه؟"

عَقَدَت الدهشة لسانه هنيهة ثم تمم بصوت خافت:

"ربنا يهديه، لعل وفاة المرحوم مسعود تكون موعظة له".

التقطت نفسًا سريعًا، وابتسمت أسأله عن مقصده، لكنه هَزَّ رأسه دون أن ينبس بكلمة فاحمرَّ وجهي غضبًا أعنفه بشدة.

"اتكلم وقل كل ما تعرفه، أي معلومة تحاول إخفاءها عن العدالة، ليست في صالحك".

اهتز جسده وتلعثم لسانه يحكُّ أنفه.

"أنا سمعت إن ابن عمهم كان فيه مأخذ على بعض سلوكياته وأنه يشربُ المسكرات - أعاذنا الله - لكن تسألني سيادتك عن واقعة معينة، أقول لك لا أعرف وأنا لا أحب اتهام أحد بالباطل".

اقتربت منه بشدة حتى أنه تراجَعَ خطوات وكاد يسقط للخلف أصيح غاضبًا.

"أنا أتهمك بتضليل العدالة وإخفاء معلومات تساهم في معرفة الجناة والقبض عليهم، بل أشك في أنك مشترك في جريمة القاتل".

صاح مذعورًا يُردد بصوت جهوري:

"أستغفر الله العظيم.. أستغفر الله العظيم القائل: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ .. يا سعادة الباشا كل علاقتنا بمسعود وأهله إن بمجرد إخلاء الأرض من أي محصول يأتون بحيواناتهم للإقامة هنا لمدة أسبوع أو عشرة أيام للرعي وتنظيف الأرض من الحشائش، ولم يكن بيننا أي تعامل سوى ذلك".

ثم رفع يديه راجيًا يُخفي دموعًا تنساب من عينه:

- والله لو أعرف أي معلومات كنت قلت حتى ينال القاتل عقابه والقصاص العادل.. من سنة جاءت المباحث هنا تسألنا عن معرفة أي معلومات عن مقتل بائعة السوق التي قُتلت بالقرب من هنا، وللأسف

لم نكن نعرف أي شيء وحتى الآن يؤلمني أن الجناة مجهولين وأحرار لا تصل إليهم يد العدالة.

هزتني مقولته الأخيرة.. مقتل بائعة السوق تساؤلات تناوشني هل هناك خيط يربط بين الجريمتين ولم تذكر بين الحين والآخر.. هل مقولة هذا الشاب يرمي بها إلى السخرية من عجز الشرطة عن معرفة الجناة أو شفقة على مقتلها.. هل التوصل إلى قتلة مسعود يُمهِّد لمعرفة قتلة البائعة أم العكس؟

ثم صمت لحظات ليصيح يخبط يده على مقدمة رأسه:

- يذكرت شيئًا مهمًّا، فيه عامل هنا اسمه عادل حكي لي أن قبل رحيل مسعود بيوم وإخوته من هنا من حوالي شهر شاهد خناقة بين مسعود ومبروك.

ثوانٍ معدودة وكان عادل ماثلًا أزاءنا، يبدو مرتبكًا يتحدث بصعوبة:

- اعذرني يا سعادة البيه أول مرة أكلم مباحث.. أنا رجل غلبان كل حياتي الأرض، أنا فعلًا حضرت بالصدفة خناقة بين مسعود الله يرحمه وابن عمه مبروك.

أمرته أن يحكي عنها بالتفصيل وتذكُّر كل شيء بدقة.

عادل

بعد صباح يوم شاق، وعمل مرهق، جلست في الظهيرة، ألتقطُ أنفاسي، أهنأ بساعة راحة والشمس في عليائها تناوشها سحابة غائمة، تبدو عابرة لا تودُّ الاستقرار في هذه الموضع لتزيد الشمس من جبروتها، لمح الشيخ عبد الرحمن صاحب المزرعة الأبقار تقف في نهاية الأرض، يظهر الامتعاض على وجهه، لمحني أنظر إليه فناداني، جئتُ على عجلٍ مُخفيًا تذمري، يأمرني بالذهاب إلى مسعود أو أحد من إخوته لكي أبعد الأبقار عن نهاية الأرض حتى لا تشرد وتصل إلى أرض جارنا.

ذهبتُ مُسرعًا أبحثُ عن أحدٍ منهم، اقتربت من الخيام أن-ادي "يا عم مسعود" خرجت لي زوجته تُشير إلى أنه هناك في الناحية الأخرى بالقرب من الأبقار وعندما اقتربت منه لم يكون معه سوى مبروك.

كان صوت مسعود عاليًا اقتربت أكثر فسمعته يوبخ مبروك، ويكاد يضربه:

"منك لله.. حسبي الله ونعم الوكيل فيك.. كل مرة تقول آخر مرة وأسامحك وأستر عليك وأقول إنك رجل، لكن لا تحترم كلمتك وتُخيِّب ظني".

يهتف مبروك باكيًا:

- أرجوك سامحني والله وعد أنا نويت أتوب.

يدفعه مسعود بكلتا يديه ليسقط مبروك على الأرض بثقل جسمه:

- اخرس أنت مكانك السجن وسوف أعرف سعيد وبقية إخـوتي لنبلغ البوليس عنك وعن الجـزار الحرامـي، طالمـا تكـررت منـك هـذه الجريمة يا حرامي.

ثم بصق على وجهه وتركه ومضى لكن مبروك نهض مُسرعًا يلحـق به ليقف أمامه راجيًا:

- اسمعني يا مسعود.. آخر مرة صدقني، أعطني فرصة واستر على ابن عمك وأنا أعـدك أني أحاسـب الجـزار والفلـوس سـتكون عنـدك خلال يومين.

- ديل الكلب يا مبروك استحالة يتعدل والجزار يا ترى ناوي يدفع فعلًا، لو حسبنا كم مرة حصل يكون الحساب غالي.

ثم مضى فلمحني مبروك فجـرى نـاحيتي يـودُّ الأمـساك بي وهـو يصيح:

- تنصَّت علينا يا ابن الكلب؟ تعالَ حسابك عسير.

صرختُ وفررتُ ناحية مسعود أستنجد بـه، أطالبـه بحمايتـي مـن بطش مبروك، لكن ما أنقذني قدوم سعيد مندهشًا يتـساءل: هـل هنـاك

شيء حدث؟ لكن مسعود مضى دون أن يرد عليه، واتجه مبروك إلى الناحية الأخرى، لكني وقفتُ أخبره أنني جئتُ بناء على أوامر الشيخ عبد الرحمن لكي تبعدوا البقر عن الحد الفاصل بيننا وبين أرض جارنا.

عدتُ إلى الشيخ عبد الرحمن منتشيًا أقصُّ عليه تفاصيل الشجار الذي حدث، لكن وجهه احتقن غضبًا ونهرني بشدة مردِّدًا: "ولا تجسسوا".

باسل

في طريق عودتي ومعي عادل ذلك الصيد الثمين كي يُدلي بأقواله في محضر رسمي، مررنا على البقعة التي قُتلت فيها البائعة، هكـذا أشـار لي النقيب إيهاب.. ترجلت أتأمل المكان أُفـتِّش عـن شيء مجهـول لا أدري ماهيته.

وقف أمين الشرطة يشرح لي كيف تم العثـور عـلى الجثـة والتـشوُّه الذي كان بها.. جريمـة بـشعة هـزَّت المديريـة ووصـلت أصـداؤها إلى الوزارة مع اهتمام الصحف والقنوات الفـضائية بهـا، لكـن ظَـلَّ الجـاني مجهولًا والجريمة لغزًا حتى الآن.. لا شيء يلفـت النظـر في هـذا المكـان الموحش.. أراضٍ ممتدة الأفق.. نسائم العصاري تـشبه تراتيـل جنائزيـة يتردد صداها بين أركان معبد مهجور.. رنَّ هـاتفي لأجـد اسـم رجـاء يومض على شاشته.. أبديت ضيقي فقد انتشلني الرنين من تـأملاتي.. لم أشأ الرد ليس وقتها الآن.. عليها إدراك أن قلبي انزوى بين عتمة الحيـاة وانحسار الأمل وانكسار الروح.. في طريق عـودتي رنَّ هـاتفي برسـالة فتحتها فورًا جاء نصُّها.

"ألف مبروك على الترقية وأول يوم عمل لك في مكانك الجديـد.. وعقبال ما نبارك لك لما تكون لواء.. وحشتنا في انتظارك مع أول إجازة يا أغلى الناس.. حبيبتك رجاء".

زفرتُ بحدة ونظراتي تتأرجح في الأفق.. رجاء وحياتها رجاء.. أصرت أمي على أن أتعرف إليها في حفل زفاف قريبة لنا منذ شهر تقريبًا.. تراها عروسًا مناسبة وأنا عزفت عن الحب، قررت أن تظل حياتي فردية فالتجربة إن فشلت لا جدوى من تكرارها.

لكن رجاء الباحثة عن الحب وجدتني نهرًا يروي ظمأها، تعلقت بي رغم جفائي وتعاملي معها بعجرفة، تتودَّدُ إليَّ.. لا تمل ولا تيأس من هجراني.. تراني فارسًا ولا أراها سوى شوكة غرزت في كفي وأعجز عن إخراجها.

فكرتُ ذات لحظة شفقة عليها أن أبادلها المشاعر، لكن سرعان ما يضيق صدري، لا أطيق ودًّا لها.. لم أعطِ قلبي مساحة كي يفكر في شأنها، هل هي حقًّا امرأة جديرة بحبي وتصلح لكي أكرر تجربة الارتباط؟

تذكرتُ أمي.. وعدتُها بالاتصال كي يطمئن قلبها عليَّ لكن طاحونة العمل لا ترحم تأخذك دون وعي أو فرصة تلتقط أنفاسك.. هكذا طبيعة عملنا تسرق منا الحياة دون أن نشعر حتى تجف وتجد نفسك يبسًا هشًّا..

أفقتُ من شرودي على صوت النقيب إيهاب يهنئني بسلامة الوصول للقسم، وكأننا كنا في أدغال أفريقيا..

تم فتح محضر وإعادة استجواب المدعو عادل وسط دهشة ضباط القسم بنجاحس في قنص هذا الصيد الذي هدم جدار الغموض، وقد أينعت رؤوس الجناة وحان وقت حصادها.

خرج عادل مع استمرار التحفظ عليه لنرحب بمبروك الذي دخل مضطربًا، يحدِّق نحوي بنظرات تحمل الريبة.. يحاول الاحتفاظ بتوازنه فيصطدم بابتسامتي الساخرة لتتسارع أنفاسه، وهو يتحدث مندفعًا محاولًا الابتعاد عن المخبر الذي يقف خلفه ببنيانه القوي المرعب.

- أنا قولت كل حاجة ويا ريت تفرجوا عنا لأن المغرب قرب ولا بد أن أعود لحراسة البقر خوفًا من عودة الحرامية.

حدَّجته بنظرة نارية.

"متأكد يا مبروك إنك قولت كل حاجة"؟

صاح يهتف بثقة:

- طبعًا يا سعادة الباشا.

غمزت للمخبر فهوى بضربة قوية على قفا مبروك ارتجَّ لها جسده الضخم، وكاد يسقط أرضًا واقترب منه النقيب إيهاب يتحدث إليه بهدوء:

- من مصلحتك تتكلم يا مبروك وتساعدنا في القبض على القتلة.

بدا مبروك تائهًا في حالة ذهول غير قادر على استيعاب الأمر من شدة الضربة.. انكمش جسده تحسُّبًا لضربة جديدة ثم راح يُردِّد:

- صدقوني لو أعرف حاجة كنت قلت، أنا نفسي ناري تبرد وأرى حبل المشنقة حول رقبة قتلة ابن عمي.

ابتسمت بهدوء وأنا أغمزُ لمبروك:

- ما أخبار الجزار صاحبك أو شريكك؟

فتح مبروك فاه مُندهشًا وجسده يرتجف لكن تمالَك نفسه محاولًا التماسُك يردُّ ماكرًا:

- نحن بحكم عملنا نتعامل مع عدد كبير من الجزارين، لكن ليس لي جزار صاحب.. المنفعة والمصلحة تجمعنا.

سألته بحدةٍ وعصبية:

- وماذا عن خناقتك مع ابن عمك القتيل منذ شهر تقريبًا وتهديده لك بأنه سيفضحك أمام إخوته وأنت عاهدته أنك تتوب وترجع الفلوس من الجزار؟

صاح مبروك يقاوم انهياره:

- كذب.. كذب لم يحدث هذا.

لأغمز للمخبر ليكرر فعلته ومبروك يبكي في خفوت مُخفيًا ألمه وخوفه وأنا أُردِّد:

- إذًا لماذا جريتَ وراء العامل في مزرعة الشيخ عبد الرحمن لما سمع حديثك مع مسعود.

تسارعت أنفاس مبروك وجسده ينتفض كبركان أوشك على الانفجار يصيح بصوت عالٍ:

- عادل كذاب والله العظيم كذاب، هو اخترع هذه الحكاية لتشويه صورتي لأني ضبطته يحاول سرقة بقرة منا ولما هددته بفضحه يحاول الآن تشويه سمعتي؟

ردَّ النقيب إيهاب بحدة:

- إذًا ما رأيك في مواجهتك بعادل؟

ردَّ مبروك وثورته تتصاعد:

- مستعد طبعًا أواجه هذا الحرامي الذي أشك أنه وراء قتل ابن عمي لأنه حاول يسرق منا وفشل.

أمرت بدخول عادل الذي ما زال على اضطرابه، يتنقل بنظراته بيننا وبين مبروك بخوف واضح يعيد سرد ما ذكره من قبل، ومبروك يصر على مقاطعته واتهامه بالكذب، ويرد عليه بنفس قوله السابق واتهامه بأنه ضبطه يسرق بقرة.

ينال عادل ضربة هائلة من المخبر يهوي على الأرض، يصرخ باكيًا يتساءل عن ذنبه وهو الذي جاء هنا لمساعدة الشرطة.. يرنُّ هاتفي..

رجاء.. أكاد أطيح بهذا الهاتف، لا وقت الآن لهذه السخافات.. يعاود الرنين، أمسكه بعنفه كي أُغلقه لكن أرى رقم أمي الحبيبة فيختلج قلبي ويهفو إليها، أردُّ فورًا وفيض شوقي يهيم إليها وابتسامة عريضة تُزيِّن وجهي.

- أهلًا أمي الحبيبة.

لكن صوت رجاء يصدمني، يُرحب بي، يمتقع وجهي وأعقد حاجبي في ضيق أزفر بغيظٍ مكتوم:

- أهلًا يا رجاء.. أنا بخير.

-..............

- آسف عندي شغل والله.

-..............

- لو سمحتِ لا وقت للكلام هنا فيه جريمة قتل والدنيا مقلوبة.. ممكن أسلم على أمي.. أهلًا يا أمي.. والله في نيتي أطمنك لكن الشغل لا يرحم سأكلمك بالليل.. يا أمي لا وقت لي لسخافات رجاء هذه، وكتر خيرها إنها زارتك.. مع السلامة.

أُلقي الهاتف بعصبية، أُعاود النظر إلى عادل المنزوي في ركن الغرفة ومبروك الذي يخفي دموعًا بدأت تجف.. والنقيب إيهاب يقف بجوار المكتب ينتظر.

أقف أشير إلى عادل بالنهوض الذي استجاب متلهفًا نحو الخلاص ليقف بجوار مبروك يبكي يردد:

- يا بيه أنا مجرد شاهد، وأقسم بالله وهو وحده عالم بكل شيء، أنا قلت كل ما حدث بدون زيادة أو نقصان، والمصحف الشريف هذه شهادة حق وأنا ما كذبت عليكم.. أنا لو مذنب ما كنتُ تطوعت للحديث وحكاية ما رأيته.

أدور حولهما، تلمع عيني ثم أقف إزاءهما أتساءل بصوت عميق:

- لكن يا عادل هناك اتهام لك الآن من مبروك، ونحن نريد معرفة الحقيقة.. ثانيًا أنت لم تأتِ لنا تطوعًا لولا كلام الشيخ عبد الرحمن ما كنا عرفنا منك شيئًا.

وقبل أن يتفوه أشرتُ له بالصمت لأستطرد:

- عامة سأترك لكم فرصة للتفكير والمخبر حجاج وزملاؤه سوف يرحبون بكما .. يصرخ ويقفز عادل وقد انتابته ثورة خوف وذعر شديد يردد بصوت يرج الغرفة أنه لا ذنب له ليصطحبهما إلى الخارج، فهمستُ للنقيب إيهاب ألا يمس أحد عادل يبدو شاهدًا فقط لا علاقة له بالجريمة، بينما التوصية كلها على مبروك الذي يخفي السر الأكبر.. يقيني يؤكد ذلك.

أنفث سيجارتي بتفكير عميق ودخاني ينتشر في أرجاء الغرفة مفعمًا بقلق متصاعد.. أجلس وحيدًا شاردًا.. تمتدُّ يدي بعفوية تفتح الدرج

الأخير، يكتظُّ بمجموعة من الملفات القديمة تبدو مهملة لم تمتد لها يد منذ فترة غابرة.. الفضول دفعني لإخراج ملفٍّ منها به زخم من الأوراق انتفض جسدي عندما قرأت عنوانه."صَابْحَة" جذبني الاسم وكأنه سهم نفذ إلى عنقي فتحشرج صوتي ثم رأيت ستائر النافذة تهتز.. تراءى إلى وجه أماني التي ماتت بحمى في صغرها، وكنا قبلها نلعب وأجيد رسم وجهها الرقيق على وجه الطين عندما كنا نلهو صغارًا بحبات المطر وتتسخ ثيابنا ونمرح.. وجهها يحدق إليَّ بسخرية لم أعهدها.. أشعلتُ سيجارة من جديد أسحب نفسًا. حاولتُ فتح الملف وسحب نظراتي بعيدًا عن وجه أماني، لكنني شعرت برجفة.. رأيت الغرفة شبحًا يمدُّ ظله ليس على وجه أماني بل على وجه العالم.. أودُّ البوح لكنني كلماتي تضيق دوائرها في الصمت المخيم بعمق.

أفقتُ من شرودي وتلاشى كل شيء وصوت النقيب إيهاب يقتحم حصون صمتي، يفض همًّا غشاني ولم أشعر بوجوده إزائي إلا وهو يردد الاسم " صَابْحَة.. صَابْحَة إنها بائعة السوق التي قُتلت وتم إحراق جثتها، ولم يتم معرفة الجاني حتى الآن.. هل تعتقد أن هناك خيطًا يربط بين الجريمتين وأن الوصول إلى قاتل مسعود يقودنا لمعرفة قاتل صَابْحَة؟"

فتحتُ فيَّ شاردًا هائمًا ويدي ما تزال تمسك بالملف دون فتحه بينما أفتش عن وجه أماني الذي تلاشى.. أودعتُ الملف مكانه، أغلقت الدرج بعصبية وتوتر زاد مع نفاد علبة السجائر وإيهاب يجلس إزائي يبتسم ببلاهة، سألته بضيق عن مبروك، ردَّ منتشيًا:

- الترحيب به يتم على أكمل وجه سوف يدخل الآن وهو مستوٍ على نار هادئة ونجاحنا إننا ننتزع منه اعترافًا يحسم القضية، يريح أعصابنا.. أو لو تود الراحة ونستكمل التحقيقات غدًا لا مانع مع استمرار حجزه ومعه عادل أو أي شخص من أهل القتيل لو تحب.

ضربت يدي على المكتب مستنكرًا كلامه.

- لن أنتظر للغد حتى لو استمرت التحقيقات للصباح.. لا أريد أن يصبح مسعود صَابْحَة من جديد.

- لكن المغرب حان الآن و....

قاطعته بحدة:

- هل كنت موجودًا في أثناء التحقيقات في صَابْحَة.

ردَّ مندهشًا:

- طبعا كنت موجودًا.

- ولماذا فشلتم في معرفة القاتل؟

- هذه قضية شائكة وتحتاج لحديث طويل.. أعتقد أن صَابْحَة قضية صعب أن نختزلها في كلمات الآن.. كانت من أشهر باعة الخضر والفاكهة في سوق المدينة وذات شخصية قوية يهابها الجميع ويعملون لها ألف حساب، تقدر تقول امرأة بألف رجل، لكن يظل قتلها لغزًا مُحيرًا، وهي ليست امرأة جميلة كي يفكر أحد في الاعتداء عليها.. حتى أننا

عثرنا في جيبها على أوراق مالية تتجاوز العشرة آلاف جنيه محترقة، وهذا يدل على أن القاتل لم يكن هدفه السرقة، كما أن وجود مبلغ معها ليس أمرًا غريبًا فهي بائعة وتاجرة كبيرة في السوق وتبيع ليس للناس العادية فقط بل يأتي إليها الباعة من القرى المجاورة لذا فهي متعددة العلاقات ولها تعاملات شائكة..

قاطعته بضيق:

- لا أطلب منك تقريرًا صحفيًّا يا سيدة النقيب أريدُ معلومات محددة.. الآن عرفتُ سبب فشلكم.

ابتسم بهدوء وكأنه يتعمد استفزازي:

- قلت لك القضية كبيرة وعامة أعتقد ليس وقتها الآن.. وكل المعلومات موجودة في الملف الذي كان معك الآن وأعتقد أنه لا يوجد ربط بين مسعود وصَابْحَة.. ملابسات ودوافع كل جريمة يختلف يا سيادة الرائد.

- في كل جريمة ندعي الجهل، لكن الحقيقة واحدة قابيل قتل هابيل وإلى الآن لم يزل خيط الدماء واحدًا.

تساءل إيهاب بهدوء شديد:

- هل الجريمة بحاجة إلى الفلسفة ونحن نبحث عن أمور مادية.

لم أحر جوابًا بل وضعتُ رأسي على المكتب حتى غلبني نعاس خفيف وبين النوم واليقظة كان شيء ما يهمس لي قائلًا:

"لا تنتظر الآن".

تمنيتُ لو تراءى وجهُ "أماني" ابنة عمي من جديد، تلك البريئة التي اختطفها الموت وعمرها لم يتجاوز أربع سنوات.. كنا نلهو ونمرح في دار جدي الواسعة على ضفاف النيل؛ نعدو خلف الفراشات، ونقذف الحصى في قلب الماء النابض بالحياة والجمال.. في يوم لا يُمحى من ذاكرتي ونحن نلعب شعرتْ بوخز في رأسها، سألتها: ما بها؟ فاضت بعبير ابتسامتها صمتًا، ووجهها المنير المشرق بدأ يخفت.. انطلقوا بها في سيارة جارنا الأسطى عباس ذات ليلة ليلاء غاب فيها القمر واندثرت فيها النجوم.. صرختُ وارتميتُ على الأرض، أتمرغُ في التراب لكنهم لم يعيروا اهتمامًا لتوسلاتي كي أذهب مع "أماني" إلى المستشفى، انتظرتها تعود حتى غلبني النعاس بين أحضان جدتي.. استيقظت صباحًا لأرى نسوة يتشحن بالسواد والحزن يُعشش في أركان البيت.. أم أماني تبكي بمرارة.. سألت أمي: أين "أماني"؟ نظرت إليَّ بشفقة، عيناها تلمعان بالدموع، وصمت مُطبق يلازمها، حتى جدتي ظلت تبكي في خفوت، ضمتني برفق، تضع يدها على فيَّ طلبًا للسكوت.. لكني تملصت منها، هرولت لأجد الرجال يجلسون بأسًى أمام الدار، أسألهم عن ابنة عمي حتى ضاق بي جدي يصيح منزعجًا ونظراته تشعُّ ألمًا: اسكت يا ولد.. أماني ماتت.. ولم أكن أعرف ماذا يعني الموتُ.. تمرُّ الأيام وأنا أجلسُ على قارعة الطريق أنتظر أماني، وكلما رأيتُ سيارة الأسطى عباس قادمة أهرول نحوها فاردًا ذراعي حتى كاد يصطدمني ذات يوم وأنا أصرخ وأُهلل: هل عادت أماني؟ لكن عندما كبرت تعلمت أن الأموات لا يعودون.. ليتني ما كبرتُ!

انتبهتُ على طرق خفيف على الباب والنقيب يدخل مجددًا يشاورني في أمر مبروك، هل يُحضره للمثول أمامي واستجوابه مرة أخرى؟ سألته ببلاهة وشرود:

- هل صَابْحَة لها أولاد؟

فتح فاه مندهشًا يحدق إلى عيني يحاول استيعاب سؤالي كمن عاش في ظلمة وغشيه النور فجأة فعجز عن الرؤية.. هنيهة وتحدث وملامح وجهه تحمل مزيدًا من الدهشة:

- أسألك عن مبروك يا أفندم.

انتبهت لخطئي وسذاجتي.. تنحنحت.. شيء ما يهتف بقسوة في داخلي:

"تحرَّك لا تكن مثلهم".

قفزتُ من على مكتبي وإيهاب يعدو خلفي يحاول اللحاق يسألني عن وجهتي.. عُدنا إلى سيارة الشرطة تطوي الطريق نحو البقعة التي قُتل فيها مسعود.. لا أدري لِمَ طلبت الذهاب هناك والشمس في الأفق أصابها الوهن تفرُّ من ظلمة الكون التي تزحف ببطء، وعمال المزارع ينفضون عن كاهلهم يومًا شاقًا فرحين بالعودة إلى منازلهم، تقلهم سيارات نصف نقل يتكدسون بلا إنسانية.. أتساءل: ما الذي يدفعهم للقبول بهذا الذل؟ هل حقًا أكل العيش يدفعنا للتنازل عن آدميتنا؟

وصلنا إلى الأرض.. في منتصفها الأبقار ترعى لا يشغلها شيء.. بجوارها حلقة من النساء يتشحن بالسواد والدموع تنهمر من أعينهن وأطفال يلهون وبجوارهن نار مشتعلة.. نهضوا يستقبلوننا.. يُحدقون في سيارة الشرطة بشيء من الخوف.. تقدمت إحدى السيدات تسألنا في لهفة وحزن شديد، هل عرفنا القتلة؟ سألتُها: من تكون؟

- أنا زوجة سعيد أخي مسعود.

طفل صغير يتشبث بردائها، يقضم قطعة من الخبز الجاف تأملته ثم سألتها:

- من أين تنفقون؟ هل لديكم أموال أم ماذا؟

- معظم الوقت يا بيه لا يكون معنا ونعتمد على المبادلة.. البقال يأخذ منا اللبن والجبن في مقابل السكر والشاي وغيرهما.

نظرت ناحية الخيام أسألها:

- لكن حسب معلوماتي أنكم تبيعون بعض الأبقار الصغيرة إلى الجزارين كتجارة ومكسب لكم.

صاحت:

- هذه مهمة زوجي سعيد، ولكن بالفلوس يشتري أبقار جديدة أو يضع الفلوس في البنك لا يأتي بها هنا خوفًا من الحرامية.

سألتُها في إلحاح:

- ومبروك ما دوره؟

- مبروك كان يساعد مسعود الله يرحمه أو يبيع اللبن في السوق.

اتجهتُ ناحية الخيام والمرأة في أثري وإيهاب والعسكري، وقفت أمامها بضعة خيام الصغيرة، سمحت لي بالدخول إليها.. لا شيء يُلفت النظر سوى وجود صندوق مغلق بقفل في إحدى الخيام، سألتها عنه قالت إنه يخص مبروك.. أمرتُ العسكري بكسر القفل وفتحه.. لم نجد سوى جلابيب تخصُّ مبروك.. أُفتِّش فيها برفعها عاليًا حتى سقطت رزمة من النقود.. لمحتُ الدهشة والصدمة على وجه المرأة.. سألتها: هل تعرف شيئًا عنها؟

جاء ردها يفتح آفاقًا من فضولي:

- غريبة ومبروك لا يحمل أي فلوس معه حتى فلوس بيع اللبن تكون مع محروس أخي مسعود.. تعرف يا بيه إن مسعود كان حريص أشد الحرص إن أي فلوس تكون بعيدة عن يد مبروك.

هززتُ رأسي مستفسرًا عن السبب، ردت والدهشة لا تُفارقها:

- لا أدري.. زوجي كان لا يحب أن أتدخل في تلك الأمور.

عُدنا إلى القسم تحملني نسائم منتعشة وقد حلت الظلمة والليل حطَّ رحاله على الكون.. على باب المكتب استوقفني سعيد متوسلًا:

- ممكن تسمح لنا بالعودة.. الليل دخل والخيام والأبقار بلا حراسة والخوف الحرامية يرجعوا ويستغلوا غياب الرجال وإن شاء الله نرجع لسيادتك من الفجر.

طلبتُ منه الدخول إلى المكتب.. أسأله عن مبروك:

- ابن عمنا وعايش وسطنا.

زفرت في ضيقٍ:

- وما علاقته بأخيك مسعود؟ هل كان هناك خلافات بينهما؟

صمتَ هنيهة ثم ردَّ مترددًا:

- الصراحة العلاقة في الفترة الأخيرة كانت متوترة ومسعود كان ناقمًا على مبروك ودائمًا كان يعنفه ويطالبنا بالحرص ومراقبته.

اتسعت عيناي أهتفُ:

- ما السبب؟ ركِّز وقُل الحقيقة إن كنت تريد الذهاب إلى زوجتك وأولادك.

قطَّب ما بين حاجبيه يحاول الفكاك من حصاري لكن ردَّ مضطربًا:

- الصراحة يا سعادة الباشا حاولت أعرف السبب من مسعود لكنه تهرب من سؤالي.

قمتُ منزعجًا أصيحُ وصبري بدأ ينفد:

- اسمع أنا من يكذب عليَّ أقسم بالله لا أرحمه، أسهل شيء أن أعلقه في نجفة السقف وأمده على رجله لحد ما تورم، وأقلع أظافره وأنتف شعره وغيرها من الأساليب.

ارتعدت أوصاله وارتجف جسده يحاول منع دموعه أن تنساب، يردُّ متلعثمًا والذعر يكبل صوته:

- والله يا سعادة الباشا أنا لا أكذب لأني نفسي أساعدكم في معرفة القاتل.

اقتربت من أذنه أهمسُ ملاطفًا.

- إذًا ساعدنا يا سعيد إن كنت فعلًا تحب أخاك وتتمنى القصاص من الجناة.

اندفع متوسلًا:

- أنا تحت أمرك وأنا لم أُخفِ شيئًا أعرفه.

- هل هناك علاقات تجمع بين مبروك وأي جزار؟

صمت لحظات ثقيلة يفكر يضع يده على رأسه:

- الحقيقة لا أعرف.

طردته وأنا في قمة غضبي وأمرتُ بدخول زوجة القتيل أسألها عن علاقة زوجها بمبروك، لم أجنِ منها شيئًا مفيدًا.. أمرتُهم بالعودة إلى خيامهم وعدم ترك الأرض التي يقيمون عليها إلا بأذني.

إيهاب يخبرني أن مبروك قد استوى، لكن ما سرَّني جدًّا التحريات التي وصلتني حالًا تؤكد أن مبروك شُوهد يجلس مع جزار في أحد المقاهي منذ نحو شهر.. أمرتُ بسرعة القبض على الجزار وإحضاره إلى هنا فورًا.

دخل مبروك المكتب لا يقوى على المشي يتدلى رأسه يكـاد يُلامـس صدره.. نال منه الإعياء والانكسار يطل من عينيه اللتين لا يقـوى عـلى فتحهما، فوجهه منتفخ وكدمات زرقاء تؤكد أنه أخذ قـسطًا وفـيرًا مـن الترحيب.. لم يستطع الوقوف، أمرت العسكري أن يُجلسه.. أنظـر إليـه منتشيًا وابتسامة عريضة رُسمت على مُحياي.

- أهلًا يا مبروك، يبدو أنك أخذت واجبك وبزيـادة مـا شـاء الله، الناس هنا في القسم كريمة تعشق الترحيب بأمثالك.

يحاول التقـاط أنفاسـه، يجاهـد أن يخـرج صـوته ليهتـف وجـسده ينتفض:

- أنا أرفض إهانتي بهذه الطريقة.. أنا لـست مـتهمًا.. أنـا كنـت في السوق لحظة قتل ابن عمي.

ثم انخرط في بكاء شديد، بادلتُ النقيب إيهـاب النظـرات، تركتـه حتى هدأ قليلًا:

- يا ترى يا مبروك تبكي بسبب الترحيـب بـك هنـا أم حزنًـا عـلى مقتل مسعود، أم ندمًا؟

رفع رأسه ينظر إليَّ بغرابة شديدة يُخفي ألمه:

- ندم! أنا لم أفعل أي شيءٍ لأندم عليه.

هتفت بقوة.

- مبروك، اسمع ورد على أسئلتي، لماذا كنت تجلس مع المعلم مرزوق الجزار منذ شهر تقريبًا على قهوة قريبة من السوق؟

اتسعت حدقتا عين مبروك وصاح مندفعًا:

- أنا اعرفه معرفة سطحية وقابلني صدفة وأصر يعزمني على شاي.

ضربتُ بيدي على المكتب بعنف:

- وأنت مُصر على الكذب.. طيب تفسيرك للفلوس الموجودة في صندوق ملابسك؟

ابتلع ريقه بصعوبة والعرق بدأ يلجمه:

- عادي تحويشة العمر.

قمتُ أُشير إليه ونظراتي سهام تخترقه:

- أنت متهم بقتل ابن عمك مسعود وشريكك مرزوق اعترف عليك.

قَفَزَ من على الكرسي تنتابه ثورة عارمة وهياج شديد يصرخ:

- كذب.. كذب أنا لا يمكن أن أقتل.

ابتسمت بهدوء أقتربُ من مبروك أغمزُ له:

- عادل قلت عليه كذاب حتى مرزوق كذاب معقولة يعترف على نفسه بجريمة تلف حبل المشنقة حول رقبته.. لا داعي للإنكار يا مبروك، اهدأ واتكلم واعترف.

يواصل مبروك حالة هياجه، يدور في الغرفة صارخًا:

- مظلوم والله مظلوم.

صرختُ في وجهه:

- التعامل بالحسنى غير مفيد.. وترحيب حجاج هو الحل.

حاول أن يمسك يدي راجيًا وقد عاد يبكي وينوح:

- أرجوك يا سعادة الباشا ارحمني.

لم أدرِ إلا ويدي تصفع وجهه بقسوة، يرتجُّ معها جسده الضخم ثم صفعة أخرى أشدّ بأسًا، يبكي خنوعًا وقهرًا، حتى أن النقيب إيهاب دُهش من تصرفي ليقف إزائي يمنعني من مواصلة صفع مبروك، تراجعتُ أجلس إلى مكتبي محاولًا استعادة هدوئي، تذكرتُ يوم أن تشاجرت مع زوجتي وبلا إرادة اندفعتُ أصفعها على وجهها لتكون نهاية علاقتنا ويصبح الانفصال أمرًا مقضيًا، عندما يحاول شخص خداعي أو الكذب على يتراءى إزائي صورة أستاذي منير مدرس الابتدائي الذي تشاجرت يومًا مع ولده في الفصل، وكنت مظلومًا، لكنه انحاز لولده وقام بصفعي ظُلمًا وجورًا أمام زملائي في الفصل، امتلأ قلبي مقتًا وقسوة، وعجزت أن أُدافع عن نفسي، وكيف لتلميذ أن

يقف متحديًّا معلمه.. ذكريات أليمة لا تنفكُّ عن حاضرنا وتُطالعنا بين الحين والآخر - حتى هذا الموت الذي خطف أماني ابنـة عمـي وكنـت أرى الحياة من خلالها وقفتُ عاجزًا عن صـده، ويـوم أن فاضـت روح والدي على فراشه ونحن حوله عاجزون عن فعل أى شيء.. يُحتضر ولا شيء نُقدمه سوى الدموع والنحيب.. إنه العجـز الـذي يُكبلنـا.. أكـرهُ الحياة إن عجزت عن الوصول إلى الحقيقة.. لا أرحم وبطشي يقينًا يظـل جامحًا كسيل يدمر كل شيء.. يقيني أن مبروك قاتـل يراوغنـا ويواصـل خداعه لنا، يُصدِّر لنا الوهم كي يضللنا عن الحقيقة، ويعمـي أبـصارنا، لكن لا مناص من العنف معه.. صرخـتُ في وجـه إيهـاب كـي يُحـضر حجاج لكنه وقف مترددًا يحاول إثنائي، لكن فر يحضره خوفًا من فوران غضبي وثورتي.. امتثل حجاج لإشـارتي فـانقضَّ عـلى مـبروك يـضربه ويركله لا يرحم صرخاته.. رأيت وجه مبروك تحـول إلى هـذا المدرس الذي ظلمني فطلبت المزيد مـن التنكيـل بهـذا الوغـد، أنفـث الـدخان منتشيًا حتى انقطعت أنفاس مبروك وبدا مغشيًا عليه، حملوه إلى الحجـز كي يفيق ويعود إلى لاسـتكمال اسـتجوابه ونـزع اعترافاتـه التـي بـدت شمسًا تودُّ الشروق.

وقف إزائي الجزار شابًّا في الثلاثينيات من عمره، ورث عن والـده المهنة، طويل نحيف ذو شارب خفيف ولحية مهذبة وجلباب فـضفاض ذو لون بني يلمع .. تأملت تجلده ونظراته الواثقة.. يعجبني هذا النـوع يبدو أسدًا في البداية وعندما تضيق عليه الحلقـة يخـور وتنهـار حـصونه

ويتهاوى فيصبح فأرًا رعديدًا مهما رواغ حتمًا سقوطه في المصيدة سبيل حتمي.

سألته عن علاقته بمبروك ردَّ بثقةٍ وإباء:

- معرفة سطحية، والدي الله يرحمه كان يتعامل معهم ويشتري منهم المواشي.

أحكُّ أنفي ثم أشعلُ سيجارة بهدوء:

- تعرف أنا كان نفسي أكون جزار لأني بطبعي أحب التعامل مع الدماء وتقطيع اللحم وسلخ الجلد.. تعرف وأنا صغير كان في البلد بجوارنا محل جزارة يذبح كل يوم خميس وكانت متعتي إن أحضر لحظة الذبح وتجهيز الذبيحة من سلخ وشق البطن واستخراج الأحشاء وتشفية اللحم من العظم.. متعة غريبة واستمتاع لذيذ برؤيتي ذلك، وحاليًّا لا مانع لديَّ من التعامل مع الكذابين ومَن يحاول تضليلنا أو الرد على أسئلتي بدبلوماسية وثقة زائفة بنفس طريقة تعامل الجزار مع البهائم.

تتبدل ملامحه إلى الوجوم، أبادله نظرة ذات مغزًى لكنه رفع هامته يتحدث بنبرة ثقة:

- ممكن أعرف سبب حضوري هنا؟

ضحكت أحدجه بنظرات سخرية، يحاول الفكاك من حصار غمزاتي، ثم تحولت نبرة صوتي إلى الجدية:

- فيه جريمة قتل حدثت صباح اليوم، ابن عم صديقك مبروك..

قاطعني بلهجة حادة يلوح بيده بعصبية وتوتر:

- ليس لي صديق اسمه مبروك.

احمرَّ وجهي غضبًا، أضربُ المكتب بيدي:

- عندما أتحدث ممنوع أي شخص يقاطعني.. اسمع كلامي للآخر واحترم المكان وإلا تعاملت معك بطريقة لن تعجبك.. ما جئتُ بك هنا لكي أعزمك على أو أتطلع إلى بهائك وجمالك.. مبروك اعترف عليك بأنك اشتريت منه بقر سرقه من أولاد عمه وإنك شريكه في جريمة السرقة واليوم ابن عمه هجم عليه ملثمين وقتلوه ضربًا بالنار، وطبعًا ليس هناك لأحد مصلحة في القتل سوى أنت ومبروك بعد ان كشف القتيل جريمتكم واحتمال كبير أنه كان يهددكم.

هاج مرزوق وأمسك رأسه يصرخ بذعر شديد:

- أنا بريء، وكلام حضرتك غير صحيح، أنا ليس لي علاقة بشخص اسمه مبروك، ولا يمكن أن أسرق، أنا معي فلوس تسد عين الشمس.

انعقد لسانه مع دخوله في نوبة بكاء شديد وقد بدا منهارًا بسرعة لا تدل على هذا الإباء الذي جاء به.

هتفتُ بحدة وغلظة شديدة:

- من مصلحتك تعترف بكل شيء، الإنكار لن يفيدك.

علا نواحه وهو يضرب على رأسه بكف يديه كالنساء:

- والله العظيم بريء.. والله العظيم بريء.. والله العظ.....

اختلط صوتي بثورته وصياحه وصراخه أنادي العسكري، أطالبه باستدعاء مصيلحي:

- يبدو أن حجاج لن ينفع معك.

ولج إلى المكتب رجل موتور ذو بنيان ضخم أشد قوة وبأسًا من حجاج، يُشبه لاعبي السومو، لكن جسده مفتول تبرز عضلاته من بين ثنايا قميصه.. وجهه عريض يبدو كرقعة شطرنج يثير في الرائي الفزع ويجلب الخوف والهم، ما إن رآه مرزوق حتى زاد صراخه وبدأ يهذي ويغمغم بكلمات لا يُفهم منها سوي:

".. أنا بريء.. "

لكن ضربة قوية على عنقه أخرسته وجعلته يتهاوى وعيناه جاحظتان، ومصيلحي يقف متحفزًا يرفع يده ليكرر ضربته، لكني أشرت له بالتوقف.

نهضتُ أدنو بالقرب من جسده المتكور على الأرض، رمقته بنظرة توحي بالشفقة:

- الأشخاص وحدهم هم الذين يحددون لنا طريقة التعامل معهم.. كن ذكيًا يا مرزوق وتعاون معنا.

انتفض جسده وحاول أن يمسك يدي يلثمها لكني سحبتها مُسرعًا، أقف منتصبًا أُشير إلى النقيب إيهاب:

- يبدو أن مرزوق شخص متعب، الأفضل أن يأخذه مصلحي إلى الحجز ويقيم له حفلًا خاصًّا.

أمسك بساقي بقوة يتشبث بها يصيح مفزوعًا:

- لا أرجوك انتظر عندي كلام.

ساعده مصيلحي في النهوض يُجلسه على الكرسي إزائي.. طلبت له كوب ماء.. يده المرتعشة لم تستطع حمله حتى السيجارة التي ناولتها له سقطت على الأرض، يحاول التحدث لكن بدا عاجزًا يختلج لسانه وشفته السفلى تتدلى.. حاول الحديث وهو يمسح عينيه بطرف جلبابه:

- أنا سرقت فعلًا لكن لم أقتل ولا أعرف أي شيء عن جريمة القتل.

زفرت بغضب شديد:

- لكن مبروك اعترف عليك بأنك شريكه في السرقة والقتل.

صاح مرزوق يئنُّ ألمًا وينزف هوانًا:

- كذاب.. صدقني هو كذاب كل همه يورطني في جريمة القتل.. في الشتاء الماضي جاءني ومعه بقرتان يعرضهما عليَّ وعرفت من مناقشته أنه سرقهما في أثناء نوم ابن عمه مسعود وأنه يريد بيعهما لحسابه..

للأسف استغللتُ الفرصة واشتريتهم مقابل إعطائه حشيشًا وثلاثة آلاف جنيه، لكن فوجئت به بعدها حضر وهو مرعوب ويخبرني أن ابن عمه كشف أمره ويهدده.

- ويا ترى هل هذه كانت أول مرة يسرق فيها؟

- الصراحة حصلت مرتين لكن في المرة الثالثة كشفه ابن عمه.

أن تقف أمام ثعلب ماكر يراوغك ويستنزف طاقتك في الوصول إلى الحقيقة، تحتاج إلى أن تطلق سهامًا من الدهاء ان لم تملكها فدعه يهزمك ويضللك.. أطلقتُ أول سهامي وقد بدأ صبري ينفد:

- اسمع يا مرزوق من غير لف ولا دوران صاحبك وحبيبك مبروك اعترف بكل شيء وأقر بأنك شريكه في جريمة قتل مسعود.

عاد مرزوق إلى هياجه يصيح مندفعًا:

- بريء.. صدقني يا باشا لم أقتل أحدًا ومبروك هو الذي قتل ابن عمه بعد ما سرقه مرات كثيرة ولما كشفه مسعود وراح يهدده باستمرار خاف وقتله وطلب مساعدتي لكني رفضتُ وهو الآن ينتقم ويحاول توريطي في الجريمة معه.

ابتسمتُ بدهاء أرمقه بنظرات حادة ونبرات صوتي تحمل مزيدًا من الجدية، أُطلق مزيدًا من السهام:

- وماذا لو واجهتُك بمبروك وكرر اعترافاته وشرح أبعاد الجريمة وكيفية التخطيط وطريقة التنفيذ؟

تسارعت أنفاس مرزوق يرتجف جسده وبدا كجبل يخرُّ هاويًا:

- مبروك كذاب وكل الأدلة في صالحي وتبرئ ذمتي.. أنا أطالب بحضور الأستاذ عدلي المحامي الخاص بي.

أومأت برأسي أطمئنه، ثم أمرت بإخراجه واستدعاء مبروك.. تقابلا على الباب يرمُقُ كل منهما الآخر بنظرات نارية، وفجأة انسلخ مرزوق وأفلت من بين يدي العسكري ينقض على مبروك يفترسه يصيح وحالة هياجه تتصاعد:

- طول عمرك كذاب يا ابن الكلب.. أنت القاتل.

ليهوي مبروك من شدة الإعياء، لكن سرعان ما ينجح العساكر وأمناء الشرطة في السيطرة على الموقف وفض الاشتباك، وأنا أنهرهم بشدة متهمًا العسكري بالتقصير.

يقف إزائي لا يقوى على الوقوف، تكاد قدماه تخذلانه لولا تشبثه بالعسكري، واجهته بعنف وحدة:

- لا داعي للإنكار.. مرزوق اعترف بكل شيء..

قاطعني وقد تملكته وقوة صوته تزلزل الحوائط:

- لا مرزوق كذاب.. أنا سرقت فعلًا لكن عمري ما أقتل.. استحالة أقتل ابن عمي.

ثم انخرط في بكاء هستيري حتى خارت قواه وجثا على الأرض.. دنوتُ بالقرب منه أصرخُ في وجهه:

- كفاية خداع، القضية انتهت وأنت ومرزوق اتفقتما على قتل مسعود خوفًا من تهديداته.. من مصلحتك الاعتراف.

أرفعُ رأسي وأتجه إلى مكتبي أنظر إليه مليًّا وبصوت عالٍ:

- لو قولنا مرزوق هو غريب عنكم ممكن يقتل لكن أين عقلك وضميرك وقلبك وأنت تفكر في قتل ابن عمك الذي ساعدك وجعل منك بني آدم، وحسب معلوماتي لم يبخل عليك بأي شيء وفي النهاية تعض اليد التي امتدت لك بالخير وتحرم صغاره ويعيشون حياتهم يتامى وفي بؤس وشقاء يا حقير.

أطلق مبروك صرخة أفزعتني يضرب الأرض بكلتا يديه ثم هدأ قليلًا ولسانه يختلج:

- لا، مسعود لم يساعدني، كان دائمًا يعاملني بقسوة وسخرية ويتهمني بالتقصير، ولا يكفُّ عن توجيه الشتائم والإهانة لي باستمرار وبدون سبب واضح يناديني "لأهطل".. كرهته وكرهت إخوته.. أنا طول النهار في الشمس أحرس البقر ولا يعطيني أجرًا- فلجأت لسرقة العجول الصغيرة لأن الجزارين يقبلون عليها حتى تعرفت إلى مرزوق وأصبح شريكي، وكان ابن عمي يعتقد أن حرامية وراء تلك السرقات حتى ضبطني ذات يوم وانهال عليَّ ضربًا بالنبوت وكدت أموت وبعد توسلات عفا عني ولم يخبر أحدًا بما حدث، لكني تماديتُ وكررتُ السرقة أكثر من مرة يشجعني مرزوق الذي كان يحقق أرباحًا طائلة سواء بيع تلك العجول أو ذبحها وبيعها، بينما أتلقى الضرب من

مسعود ثم يعفو عني ويسترني حتى ضاق بي وبدأ يهددني بأنه سيفضحني ويبلغ الشرطة عنا، فعرض عليَّ مزوق فكرة قتله والتخلص منه ودفع عشرين ألف جنيه لثلاثة من صبيانه لقتل مسعود في الصباح الباكر، لكن قبلها بساعات وقبل شروق الشمس سرقتُ ثلاث أبقار للتضليل، والبوليس يعتقد ان الجريمة وقعت من أجل السرقة ولإبعاد أي شبهات عني.

قطع تركيزي رنين هاتفي واسم رجاء يومض على الشاشة.. أغلقته منتشيًا والسعادة تتراقص من حولي بينما يقف إزائي إيهاب غير مصدق، ينظر مليًّا إلى مبروك والعسكري يساعده على النهوض.

رجاء

رجاء

٧٥

يدفعنا الألم إلى مزيد من العناد والكبرياء.. يبقى بداخلنا شيء يدعونا لمزيد من الإصرار، ربما نتنازل وصمد كي نحصل على ما نودُّ.. علمتني الحياة أنها جولات ونهايات تتفرع لتلتقي في النهاية عند نهاية واحدة إما منتصرًا ترفرف رايتك على نسيم، وأنغام الفوز، وتحقيق حلمنا الذي جاهدنا وكابدنا مزيدًا من العناء حتى تحقق، وإما هزيمة وانكسار مع مزيد من الآلام التي تعززها الخيبات والفشل المتكرر.

أمي تأبى منطقي تبحث عن اليسير والمتاح، تأبى المغامرة والدخول في معترك الصراعات، طاوعتها ذات يوم فلم أجنِ إلا خيبة الأمل، تجرع علقم الفراق، الانغماس في متاهات الإحباط والقنوط، مقت الحياة بكل ما تحمله رغم أنني لم أقدم سوى الحب، لم أسعَ لشيء إلا رضا الحبيب، لكنه خان العهد وباع الود، دهس الورد دون رحمة أو شفقة، لم تشفع دموعي ورجائي كي ينتظر ويبقى معي محاربًا.. أضحت سهامي قصاصات ورقية، وانكسر سيفي الذي اكتشفتُ زيفه وبقيت وحيدة في الميدان تلتهمني نظرات الشماتة والشفقة القاتلة التي تُشبه سهامًا مسمومة حتى أمي وأقرب الناس إلى فؤادي لم ترحمني وتحتوِني وتمسح همي وتنتشلني من تلك الدوامة، أما شقيقي سبب هذا البلاء فقد فرَّ وودعنا إلى حياة جديدة لكن بعد فوات الأوان.

تبقى الذكريات سوطًا يزيد من أوجاعي، كيف لا أبكي على ماضٍ وهو نبراسي والأمل الضائع النابض والباحث عن إفاقة بدلًا من الدخول في قبو الرقدة الأبدية.. نظراته كانت دومًا تطمئنني، تثري غروري، وتُشبع حلمي، ولسانه لم يكن إلا ليذكر دومًا: لن نفترق ولن نسمح للظروف أن ترسم علاقتنا وتُقرر مصيرنا وحدنا نحكم ونقدر.. يبدو أن تكرار الكلمات يعني أن نقيضها سوف يسري ويقطع كل الأوصال.. لم أرتح لزيارة والده الوحيدة لنا وقد جاء بصحبة ولده حبيبي وحلمي وكل غايتي وأغنيتي المفضلة التي وجدتها وسط ركام الحياة وظُلمتها الحالكة.. قبل هذا اليوم التقيت هشام حبيبي مرتين: الأولى عندما بزغ حبنا وتلاقت نظراتنا داخل مكتب التقديم بكلية التجارة.. ذهبت للتقديم في شعبة التعليم المفتوح وأنا حائرة عن الكلية التي أودُّ الانتساب إليها والأماني تدفعني لتأكيد الذات، فرغم حصولي على مجموع عالٍ بالإعدادية، أجهضت أمي حلمي وأصرَّت على التحاقي بالتعليم الفني.. ولم يكن لاسمي نصيب في هذا الرجاء، وفيض الدموع في اللحاق بقريناتي في التعليم الثانوي العام ومواصلة ربيع أحلامي وزخم تطلعاتي لكن فشل أخي الكبير والوحيد عجَّل بوجع أخفته أمي ولم ترضَ الاعتراف أن تدليلها الزائد نتيجة حتمية لما آل إليه حاله.

حلم الحصول على مؤهل عالٍ لم يفتر وزاد غبطتي مع نظراته وحديثه المقتضب يوم أن خرجنا خارج أسوار الكلية نبحث عن ماكينة

تصوير أوراق لتقديم ملف الالتحاق بالتعليم المفتوح.. لمح اسمي في أثناء تصوير بطاقة الرقم القومي لأعود في المساء لأفتح صفحتي على موقع التواصل الاجتماعي الفيس بوك أجد طلبًا للصداقة باسم هشام الكاشف، ورأيت صورته بوسامته كفارس يختال على جواده ويتبختر بسيفه وجلال انتصاراته.

قبلتُ الصداقة، قلبي يدقُّ بشدة وسعادة تموج بداخلي، خجل يحاصرني مع أولى رسائله يرحب بي لتنساب الكلمات وتتناغم المراسلات المغلفة بروح الإعجاب المتبادل، وينفجر منذ تلك اللحظة شلال من العبير ونسيم السعادة رغم تواتر العلاقة في بعض الأحيان وتصادم أفكارنا خاصة مع إذعانه لأوامر والده بعدم استكمال تقديمه في التعليم المفتوح مما سبَّب لى إحباطا شديدًا جعلني أحول ملفي إلى كلية الآداب قسم مكتبات ووثائق حتى أنهيتُ العلاقة بخاصية الحظر، لكنه أنشأ حسابًا جديدًا وحاصرني برسائله لأذعن لفيض كلماته وعطر تعبيراته التي تنفذ إلى القلب مباشرة مع شعوري بجديته ومصداقيته، ولم يكن يعكر صفو حياتي في تلك الفترة إلا مشكلات شقيقي التي لا تنتهي مع التفاف شلة من أصدقاء السوء حوله قادته للوقوع في براثن الإدمان مع إذعان أمي لرغباته، وإعطائه النقود ببذخ خوفًا من ثورته وهياجه حتى أنه لم يستحِي أن يعتدي علينا اذا فكرنا في اعتراضه، وعدم إعطائه ما يريد.. ولم يكن هشام بعيدًا عن تلك الملابسات، فقد كان الملاذ الأمن، نبع الأمان ومن يمسح دموعي، يتحمل سخافة ما

أقوله من فضفضة حتى اعترف لي بحبه، ورغبته الشديدة في الارتباط، وأنه سيُخلصني من حياتي البائسة، وجسدي يرتجف من أثر السعادة وطريق حياتي إزائي مُندًّى بالبهجة يلوح لي بلا نهاية.

لكن بعد زيارة والده انتهى كل شيء، هربت طيور السعادة بلا عودة، أضحت حياتي حديقة مهجورة يرتع فيها الجدب والقحط الشديد فقد علم والده عن طريق زميل عمل بأمر أخي وإدمانه الذي يجلب سوء الخلق.. لم يستسلم هشام تدفعه دموعي وتوسلاتي، صَمَدَ.. وقف صلبًا يعترض والده.. ترك المنزل كنوع من الضغط لكن والده أصرَّ وحجته القوية التي جعلت جميع أقاربهما تسانده مصيبة أخي، حجة تفند كل رأي واعتراض.. لتسدل الستارة على مشهد النهاية، أذعن هشام لأمر والده كالمعتاد فقد انطبعت شخصيته على السلبية والخنوع والخوف الشديد من والده العصبي وطبعه الحاد وصرامته التي ترهب كل من يراه.. ودَّعني هشام بكلمات مقتضبة فقد بدا فارسًا مهزومًا عائدًا من حرب فَقَدَ فيها كل شيء حتى خلت كلماته من الأمل ليغلق الباب إزاء توسلاتي وفيض صراخي ألا يتركني، لا ينسى وعوده لكن الظلام أقوى ينتصر، يفرض سطوته على الكون فلا نرى شيئًا ويتلاشى الطريق إزاءنا نتخبط في دهاليزه لا يرحم بكاءنا المرير - يُطعمنا مزيدًا من اليأس والإحباط لنفكر في الخلاص والبحث عن وسيلة للموت تُريحنا من عذاب الدنيا، وبؤس الحياة، فإذا مات الأمل فليس لنا مكان حتى من حولنا بدلًا من أن يمد لنا يد العون، يجلسون

على شاطئ الحياة يتلذذون ونحن نغرق.. ليتنا لم نأتِ أو نَرَهم، وتتحول كلمات المواساة إلى صفعات قوية، وتصبح الحياة نكسة أبدية.

حتى عاد نور خافت يلوح في الأفق بمقابلتي للرائد باسل وأمه في إحدى المناسبات الاجتماعية التي أصرت أمي على الذهاب معها رغم سوء حالتي النفسية ومقتي لرؤية أي شخص أو الاستماع إلى التفاهات التي تقال في تلك المناسبات.. رأيته نجمًا بازغًا يفيض وسامةً وتألقًا، تمعنت في مراقبته رغم أنها ليست عادتي، لكن مَن عاش حياة مظلمة اليقين يؤكد أنه ينتظر بشغفٍ بزوغ نجم ينشر خيطًا من النور يرسم أملًا على عذاب النفس مرارة الروح.. تجرعت تجاهله على مضض، بستان حياتي أضناه القيظ والظمأ تضنُّ علينا السماء بالمطر فلا بأس من قطرات الندى ربما تشفع كي تفتح الزهور وتتزين الأشجار برونقها الأخضر المبهج.. زاد الأمل مع وجه أمه البشوش وابتسامتها العذبة وترحيبها بي وسؤالها الدائم عليَّ.. لم أفرض كياني على الرائد باسل، لكن قلبي امتلكه الحب وعسير أن نتحكم في مشاعرنا حتى لو جرح كبرياءنا، فالحب لا يعترف إلا بالإصرار، والسعي نحو الاكتمال وهزيمة كل سُبل الاحتمال.. يؤلمني جفاؤه وتصلبه وحديقة أحاسيسه القاحلة، لكننا نعشق القمر رغم عليائه فهذا الضي يكفي.

أحاديثنا المقتضبة وكلماته الصرامة أغزل منها الأمل، يشفع له أنه خرج لتوِّه من علاقة فاشلة وزيجة لم تكتمل، فالصبر سبيلي ويقيني أن الحب لا يُهزم.. رغم أن طيف هشام لا يُفارقني يذكرني بماضٍ تعيس

لكن كيف أسعى لسراب أضحى ملكًا لغيري وكل يوم ينشر على صفحته على الفيس بوك صورة تجمعه برضيعته؟

ما يمدُّني بالأمل وعدم تكرار الضباب أن شقيقي ودَّع حياة المجون، نجحنا في إلحاقه بمشفًى خلصه من كل آثار الإدمان ليسافر إلى خالي في دبي للعمل ويبدأ حياة جديدة.

وما زلتُ أسعى خلف باسل بكل همة يمدُّني جفاؤه برغبة مُلحة وإصرارٍ غريب.. ربما له تطلعات مُغايرة، فأنا لست سوى فتاة بسيطة على قدر بسيط من الجمال.. والدي الراحل عمل موظفًا بالشئون الاجتماعية، ولم يترك لنا إرثًا من الأموال أو الأطيان.

من حق باسل أن يبحث عن الوجاهة، فهو ضابط شرطة تنساق له الدنيا وتأتي إليه كل الأشياء طوعًا وكرهًا.. نفوذه ومكانته تمكنانه من تحقيق كل محال.. لا تهمني مكانته فالورد يكفيه ماء عذب.. أجاهد كي يرى طيفي وغايتي في إسعاده وتعويضه عن تجربة فاشلة كانت ذات وجاهة ونسب، لكن العلاقات الإنسانية مبتغاها الحبُّ، وعلى العاشق ألا ينتظر أن تشفق عليه الناس عندما يعرفون أنه جائع.

أتطلع إلى نافذتي وقد انتصف الليل، يبدو الناس مجرد أشباح في عتمة الشوارع ونجوم السماء الباردة تتراصُّ على صفحة السماء، بينما يبدو القمر هزيلًا يترنح ونسيم الليل بارد.. جفاني النوم أمسك هاتفي أودُّ معاودة الاتصال به لكنه كعادته يخذلني ولا يرد.. الصبر دواء مُر يحاول إقناعي بتبريره عندما يرد بأن حجم مسئولياته ومشاغله كضابط

شرطة تجعله لا يملك وقتًا حتى للأكـل.. حرقـة دمـوعي تـذكرني بـألم قديم يـتراءى وسـط الـضباب.. ربـما لا فائـدة.. كـل شيء إلى الفـراق يمضي.

لكن فجأة يرنُّ هاتفي ارتبكتُ وباسل المتصل أكاد أقفـز فرحًـا، لا أصدقُ، نـسيت كيـف أفـتح المكالمـة ورنـين الهـاتف لا ينقطـع ويـدي المرتعشة تحاول التعامل مع الهاتف حتى جاءني صـوته العـذب ينـساب غم جديته لكنه بدا نغمًا:

- أهلًا يا رجاء.. كيف حالك أعتذر كنت مشغولًا جـدًّا في قـضية قتل.. تخيلي أول يوم لي في القسم تحدث جريمة قتل لكن لم يهـدأ لي بـال إلا وقد قبضت على القتلة كلهم وغدًا يُعرضون على النيابة.

- برافو عليك يا أحلى وأشطر ضابط في الدنيا.. أنـت عظـيم وأي قضية لا يمكن تستعصي عليك.

- تخيلي يا رجاء المأمور وكل من في القسم لا يصدقون، حتى مـدير الأمن اتصل يُهنئني بنفسه ويُثني على كفاءتي في كـشف جريمـة قتـل في يوم واحد.. راعٍ قتله ابن عمه بالاتفاق مع جزار الذي استعان بصبيانه، لكن تم القبض عليهم كلهم والحمد لله، استخدمت ذكـائي في الإيقـاع بهم وأصعب شيء في النهاية لما واجهـت القاتـل وشريكـه واشـتبكا في خناقة أكثر من مـرة والعـساكر غلبـوا في فـض اشـتباكهما، لكـن ربـك بالمرصاد وحبل المشنقة في انتظارهما.

- أنا سعيدة جدًّا لنجاحك، أنت تستحق كل خير.. على فكرة انت وحشتني وأتمنى تنزل إجازة بسرعة.

- رجاء أنا مرهق جدًّا ومحتاج أنام.. لما أصحى نكمل كلامنا.. تصبحين على خير.

أنهيتُ المكالمة على شفتي تتخايل ظِلُّ ابتسامة، وسادتي ما زالت باردة تغمرني بخيبة الأمل وطول الرجاء.

باسل

على أنغام ضوء شاحب، يسكبه قمر منزوٍ في ركن السماء الباردة، أتطلع من نافذة استراحتي إلى هدوء الشارع حول قسم الشرطة.. لا شيء سوى نباح كلب يأتي من بعيد وهمهمات عساكر الحراسة يجلسون للسمر أو وأد السأم ورتابة الليل المقفر.. أنتظر بزوغ النهار ربما أجد سلواي في العمل رغم هذا الضجر الذي ينتابني.. لا قيمة لهذا الافتنان بقدراتي وآيات التبجيل والتقدير التي تُحاصرني، فقد أثبتُ كفاءتي منذ أن وطئت قدمي هذا المكان فكانت المكافأة تكليفي بكل الأعمال التي تحتاج إلى جسارة ومهام خاصة.. أراها عقابًا فكلُّ مجتهد وفائق تنهال عليه الأعمال، أما من يركن للخمول والتهرب والسلبية فنقدره ونهمله ليهنأ براحة البال ورغد الهدوء.

أُحدِّق ساهمًا في الليل، لم أَخَفْ يومًا من الأشباح التي كانت تحكيها جدتي وهي تهدهدني كي أنام.. أما أماني فكانت تختبئ تحت الفراش ظنًّا أن أمنا الغولة سوف تخرج من النهر تخطفها، وتعود بها إلى مملكة الجن، أو ربما تقف النداهة تحت الشباك، تنادي أحد الرجال إيذانًا بأن نجمه أفل، ونهايته أزفت.

بغتة تراءى في الأفق نور هائم يتبدل إلى أشكال مبهمة على وجه النسيم.. قطبتُ ما بين حاجبي مستغربًا.. أتابعه ودخان سيجارتي ينفث

ملتحمًا بهذا النسيم، لكن لا يصل إلى هذا النور.. عيناي تبرقان بالثقة والتجلد لا تعرف خوفًا تنتظر شيئًا ما حتى خُيل إليَّ أن النور خط يتحول إلى حروف تشكل اسم صَابْحَة ثم تلاشى كأن لم يكن.. وجه أماني ذات الشعر الذهبي يمرُّ سريعًا كالبرق تشبه حكاية غير معقولة في عالم غير معقول.. أرى أحلامي وسط ضباب، تناهى إلى سمعي صوت صراخ يناوشني لا أدري ماهيته حتى أحرقت السيجارة أصبعي لتسقط على السجادة أدهسها بقدمي متألمًا.. هرولت إلى فراشي أتوسد به ربما ينتشلني من دوامة خيالاتي.

في الصباح فتحت الدرج أخطف ملف صَابْحَة، أفتحُه مرتكبًا، تطالعني صورة سيدة في الخمسين من عمرها ذات وجه مستدير ممتلئ يدل على فرط بدانتها، تلفُّ رأسها بحجاب أسود، ذات وجه قمحي وعينين واسعتين وحاجبين كثيفين.. لا تنفكُّ عيني عنها، أتمعن في شيء مجهول يقف خلف حدة نظراتها.. أسفل الصورة على الجزء الأبيض خُطَّ اسمُها صَابْحَة محمد توفيق......

طلبت فنجان قهوة سادة، أمرت ألا يدخل أحد عليَّ.. الملف يكتظُّ بأوراق عديدة وتحقيقات الشرطة وأقوال العديد ممن خضعوا للتحقيق لكن الفشل كان حليف الشرطة، لم تتوصل إلى الجاني سوى إلقاء التهمة على زوجها.

تقول أوراق القضية إن صَابْحَة من أشهر بائعات الخضر والفاكهة في السوق وأمهرهنَّ.. بدأت حياتها فتاة عادية تعيش وسط أسرة

بسيطة.. تزوجت عاملًا بمصنع النسيج، لكنها لم تُرزق أولادًا فانفصلت عن زوجها لتجد نفسها وحيدة بلا مورد رزقٍ، فبدأت بائعة جرجير وفجل في السوق حتى توسع نشاطها وبفضل ذكائها وحُسن تعاملها كبرت تجارتها وصارت من أشهر باعة الخضر والفاكهة وأمهرهم بسوق المدينة، ثم تزوجت للمرة الثانية عاطلًا وقع في براثن الإدمان وأصدقاء السوء، فكان دومًا يضربها عندما تمتنع عن إعطائه نقودًا لشراء المخدرات، وكم شُوهد أكثر من مرة يهجم عليها في السوق يضربها بعنف وقسوة ويخطف كيس المال ويهرب إلى ملذاته.. كم نصحها الكثيرون كي تطلب الطلاق وتستريح من شِرِّه! كم روادها رجال مغرضون طمعًا في ثرائها لكن بقوة شخصيتها وحدتها وضعت حواجز وحدودًا صارمة للتعامل معها، تميزت واشتُهرت بالعطف على الفقراء، ومساعدة المحتاجين مما رفع من قدرها، ومكانتها وذاع صيتها.. يومها ينحصر في الاستيقاظ مع بزوغ الفجر، تذهب مع سائق يُدعى جمال من أصل صعيدي، ومع مجموعة من البائعات إلى المزارع أو وكالة الخضر والفاكهة، ومع شروق الشمس تكون في السوق تقف بكل جسارة وبأس تبيع ويُقبل عليها الزبائن، بل إنها استحوذت على معظم حركة البيع بالسوق مما أوجد حقدًا عليها من الباعة الآخرين، لكنها لم تُبالِ بأحد فحبُّ الفقراء والمساكين لها زاد من شعبيتها واعتدادها بنفسها.. لا شيء سوى زوجها السكير يكسر شوكتها، ويرغم أنفها في التراب.

تعرضت في فجر أحد الأيام إلى أكثر من عشرين طعنة بالبطن والصدر مع حرق جزئي لجسدها في منطقة نائية بجوار إحدى المزارع، ولا يُعرف ما الذي أتى بها إلى هذا المكان فلم يكن مُقررًا في هذا اليوم الخروج مع السائق فقد سافر إلى الصعيد لتلقي العزاء في عمه.

حامت الشُّبهات حول زوج القتيلة، قبل الحادث بيوم دارت بينهما معركة طاحنة في السوق عندما حاول كعادته الاستيلاء على نقودها تحت تأثير المخدرات .. قذفته بحديدة الميزان فشجَّت رأسه لينهال عليها بوابل من السّباب متوعدًا إياها بالانتقام.

خضع لتحقيقات ومكث في الحجز ليالي لكنه نفى بشدة تهمة قتل زوجته صَابْحَة ولم تجد المحكمة دليل إدانة يثبت تورطه في قتلها فحصل على براءة.

قرأتُ التحقيقات أكثر من مرة أتمعن في كل كلمة لكن لا جديد أو خيط نور تنفذ منه إلى قلب الحقيقة.. خيبة الأمل تدفعك إلى طي الملف وإيداعه في مكانه بالدرج المهجور.

جاءني استدعاء من المأمور للقائه على عجلٍ.. لا ريب أن الأمر لا يحمل سوى مزيد من التكليفات تزيد من ضيقي وهمي رغم عشقي للعمل، لكن لكل إناء قدر من الاستيعاب.. قمتُ مُتثاقلًا.. موجات من الإرهاق تعصف بجسدي لكن تجلدت، أديتُ التحية للمأمور بكل جدية وهمة.. يحملق نحوي بنوع من التقدير وربما الافتنان.. صاح راجيًا.

- أعلم أنني أثقلتُ عليك لكن العمل هنا إيقاعه سريع والمدينة وتوابعها لا تخلو من المتاعب وكل يوم تظهر جرائم ومشكلات كبيرة تقع على كاهلنا ومدير الأمن والوزارة ينتظرون منا الكثير والكثير..

- تحت أمرك يا أفندم.

ينضم إلينا زملائي في القسم ليستطرد المأمور بنبرة تحمل الجدية.

- غدًا في الصباح الباكر سوف تخرج حملة إزالة منازل تم بناؤها على أرض زراعية بالمخالفة للقانون وستكون أنت أيها الرائد باسل مع ضباط القسم على رأس الحملة، مدعومين بقوات خاصة من الأمن المركزي وتشكيلات من قوات الأمن العام من المديرية نظرًا لاحتمالية وجود مقاومة شرسة من الأهالي؛ لذا أعوِّل عليك في تنفيذ المطلوب دون وقوع أي خسائر، أعلمُ أنكم ستواجهون مقاومة شرسة من بعض الأهالي والبلطجية، مطلوب ضبط النفس، والتعامل بقدر كبير من الحكمة وعدم الاشتباك مع الأهالي، لكن لا مانع من القبض على أي شخص يحاول إثارة الأهالي وتهييجهم، لكن حذارِ من وقوع مصابين.. تعلم جيدًا أنه مطلوب إخلاء المنازل من أي شخص ثم دكُّها باللوادر، وسيكون معكم رئيس مجلس المدينة والمحليات وموظفوه.. الأمر خطير والمحافظ ومدير الأمن في انتظار تقارير وافية عن نجاح المهمة، ولن يقبل أحد منهما إلا بتنفيذ المطلوب دون إبطاء وإزالة المباني المخالفة كافة وأنا لديَّ ثقة كبيرة بقدرتكم على ذلك.

عدتُ مهمومًا ورنين رجاء لا ينقطع عن هاتفي.. ما سخافة هـذا؟ كل شيء مزعج، العمل ورجاء، حتـى عـدم اتـصالي بـأمي للاطمئنـان عليها أمر أشدّ سخافة.

أخرجتُ ملف صَابْحَة من الدرج دون وعي فتحته أطالعـه بـشيء من الاهتمام.. أفيقُ على صوت النقيب إيهاب يردد اسـم صَـابْحَة بنـبرة سخرية.. حدجته بنظرة ضيق وتأفُّف قام معتذرًا يتنحنح قلت ساخطًا:

- أكثر شيء يُضايقني أن يدخل عليَّ أحد دون استئذان.

ردَّ ونبرات صوته تحمل اعتذارًا وأدبًا جمًّا وقـد كـسا وجهـه حمـرة الخجل.

- أسف طرقت الباب أكثر من مرة ثم دخلت وألقيتُ التحية عـلى سعادتك، لكنك كنت مشغولًا جـدًّا في قـراءة ملـف صَـابْحَة.. آسـف للمرة الثانية.. بعد إذنك.

هَمَّ بالخروج، أدركتُ مدى سخافتي، ناديته معتذرًا:

- انتظر يا إيهاب، أنا أمزح معـك.. لكـن ملـف صَـابْحَة مُرعـب وشيء غامض يدفعني لفتح التحقيق في هذه القضية، كأن القتيلـة ذاتهـا تدعوني للقصاص من قاتلها.

ردَّ إيهاب بلغة أشبه بالرسمية:

- جريمة بشعة وقضية غامضة لكن مهما يطل الزمن مصير القاتـل أن يقع ويأخذ عقابه الذي يستحقه.. الله يُمهل ولا يهمل.

شردتُ بعيدًا عن كلامه ولم أعِ بقية حديثه.. صورة صَابْحَة تلك المرأة التي قُتلت غدرًا وبطريقة وحشية تتأرجح في ذهني.. أحاول طردها وإبعادها.. مع إقناع نفسي بالفشل في الوصول للحقيقة، فمن سبقني من زملائي كان العجز حليفه والفشل نصيبه، وترك دماء صَابْحَة نبضًا مزعجًا ونارًا تستعر لمن خلفه، هل له الآن وقد ساقته الأقدار إلى هنا واصطدم بهذا الملف أن يسعى للثأر لها حتى ينال الجاني عقابه جراء ما اقترفت يداه من جريمة نكراء؟ هل هو شعور بالواجب أم شعور بالشفقة على امرأة قُتلت غدرًا؟

تمنيتُ الفرار، أمقت الظروف التي ساقتني إلى هنا.. ليتني سعيتُ في تملق زوج خالتي لواء الشرطة الكبير حتى يكون خير عون لي في الانتقال إلى اتحاد الشرطة الرياضي أو حتى العمل في المطار كي أرغد في النعيم وأتمتع بهدوء ومزايا لا مثيل لها، وبعيدًا عن هذا العمل المُضني والانغماس في متاهات الشرطة حتى يضيع عمري هباء دون الاستمتاع بلذة الحياة وبريق السعادة، لكنني اخترتُ الطريق الوعر وفضلتُ الاستمرار في الأمن العام تدفعني رغبة جامحة في إثبات الذات.. لم أكن أدرك أن صعود الجبل لا تعني كل خطوة أنني نجحت، وتميزتُ بل عليك بمزيد من المكابدة والعناء كأنك تحتضن شوكًا كلما تقدمت زاد الحمل، وحقائق جديدة تصفعك لتدرك قيمتك فهذه الوجاهة وهذا البهاء خيوط زائفة تشبه بيت العنكبوت يسير جدًّا أن تتلاشى، تجد نفسك توجه أعاصير وقد انفض من حولك زُمرة الطامعين والجامحين

والمنافقين، فأنت على شفا حفرة إن أخطأت تناسوا عمدًا كل حسناتك، تطؤك أقدام الرتب الأكبر فلا ضير أن تكون ضحية حتى تستمر المسيرة، ويتجملوا أمام الإعلام والرأي العام، وإن تألمت وتوقفت ثانية تلتقط أنفاسك لن يرحموك، يومًا ما ستصبح كخيل الحكومة خارج الإطار.. لقد انتهى دورك واخلع زهوك، وانظر في مرآتك ستجد شبحًا ينتظر الموت بلا قيمة ولا أدنى تقدير، لقد استنفدوا زهوة شبابك ومجد بأسك، وربما تجرأ عليك مجرم سبق أن أذقته عقابًا يستحقه، لكن أتى يثأر بعد أن أصبحت تواجه الرياح الهوجاء وحد، ولتعش منزويًا في سجل النسيان، تتباكى على ماضٍ تعتقد أنه مجيد، وتجتر الذكريات بحسرة وخيبة أمل.. تبًّا لتلك الأفكار التي تراودني، لم أفق إلا ويدي تنهال بالضرب على شابٍّ بالصفعات حتى هوى متكوِّمًا.. أركله بقدمي حتى انقطع نفسه فتوقفت لأجد ثلاثة عساكر بجواري واثنين من المخبرين والأمناء.. استحييتُ أن أسأل عن جُرمه ولماذا أضربه بكل هذا العنف، لكن لساني حصان جامح لا يكفُّ عن السباب والتفوه بألفاظ خادشة مقتًا لهذا الشاب الأسمر نحيل الجسد ذي صلعة في مقدمة رأسه، أتأمله وقد نهض واقفًا يرتجف كالفأر المذعور.. في عينيه رأيت بريقًا يلمع فجأة يلومني على كل هذه الحدة.. تصلبت لحظات.. أدرت ظهري ناحية المكتب، أُنقِّب عن علبة سجائري.. تهادى إلى سمعي صوت أمين الشرطة يُخاطبني:

- تمام يا أفندم.. لقد قبضنا على هذا الشاب من داخل السوق وأنقذناه من الموت بعد أن اعتدى عليه الناس في السوق لأنه تجرأ وتحرش بإحدى السيدات التي صرخت واستغاثت فقام الأهالي باحتجازه والاعتداء عليه بالضرب.

التفتُ أُشعل سيجارتي بغيظٍ أُحملق في وجه الشاب الذي انخرط في بكاء مريرٍ، سألته بهدوء:

- هل لك أم أو أخت؟ هل ترضى لأحد أن يعاكسها؟

علا نحيب الشاب ينتفض هلعًا لأفاجئه بصفعة قوية ليطير، يلتصق بالحائط، يسقط والدماء تنزف من فمه:

دلف ضابط زميلي في القسم يحيط بالشاب كي يرحمه من ثورة غضبي المتأججة وهو يردد:

- دعه لي.

صرختُ بعنف:

- لا بد من فتح محضر وتحويله للنيابة حتى يكون هذا السفيه عبرة ورادعًا لكل حيوان من أمثاله.

ردَّ الضابط بهدوء:

- لقد حضر عمدة قريته وشيخ البلد واثنان من المحامين يترجون المأمور أن يعفو عنه خوفًا على مستقبله، فهو طالب بكلية الهندسة.

خرجتُ من المكتب غاضبًا وقد انزوى كل من يقابلني، يُفسح لي الطريق خوفًا من ثورتي العارمة..

اقتحمتُ مكتب المأمور لأجده يجلس بصحبة ضيوفه، أصيحُ بغضب ودون إلقاء التحية:

- أرجو من سيادتك عدم التهاون مع هذا الحيوان المتحرش وأن تسير القضية بالإجراءات المتبعة حتى يكون عقابه رادعًا للجميع.

قام رجل عجوز ملامحه تحمل الوقار، يرتدي عباءة خليجية تحت جلباب ناصع البياض وعمامة وقد كسا وجهه لحية بيضاء خفيفة تزيد من هيبته، يحمل عصا من الأبنوس يتجه ناحيتي مبتسمًا ومُرحِّبًا:

- أهلًا بسيادة الرائد باسل أنا فخور أني قابلتك خاصة وأنك من أكفأ الضباط الذين جاؤوا إلى القسم هنا، وبعد إذنك تحمل كلامي لا يستحق هذا الشاب الحقير، إن حضرتك تتضايق ووجهك الجميل تختفي منه الابتسامة.. اهدأ وملعون الولد وأي شخص يزعلك.

تجاهلته بوقاحة وبعجرفة وإباء، استطردت أخاطب المأمور:

- بعد إذنك يا أفندم القانون يأخذ مجراه ولا مجال للوساطة أو أن شخصًا يجعلنا نتنازل عن حق سيدة شريفة نزلت السوق تشتري لتُفاجأ بحيوان ابن حيوان يتحرش بها.

نظر إليَّ المأمور منزعجًا بينما واصل الرجل حديثه يقف أمامي بكل تبجيل:

- والله أن أحيي فيك حبك لعملك وحرصك على أن كل مخطئ يأخذ عقابه، وأنه لا تهاون مع أي شخص مهما يكن.. لكن نحن أمام طيش شباب لا يعي ما يفعله وإذا وجد القانون فهناك روح القانون وأنا أخاطب فيك روح القانون وروح الأبوة.. أنا عمدة منذ ثلاثين سنة اسمي الحج رضوان والكل يعلم أنني لا أدافع عن أي شخص مذنب وحريص على العدالة مثل حرص سيادتك الآن، لكن ليس كل الجرائم تستحق أن نقطع رقبة مرتكبها هناك أشياء تحتاج منا التسامح والنظر بعين العطف، أنا أعرف هذا الشاب جيدًا وأعرف أصله الطيب النقي هو بذرة طيبة لكن ما فعله لم يكن إلا نزوة عابرة وطيش شباب والقبض عليه اليوم بهذه الطريقة المهينة أعتقد أنها عقاب كافٍ له وستكون درسًا له طوال حياته كي يستقيم حاله ويعرف ربنا ويفكر قبل أي خطوة.

ازداد انفعالي:

- النار من مستصغر الشرر من يتحرش بسيدة الآن دون عقاب سوف يفعل جرائم كبيرة بعد إذنك، ولنا في جريمة قتل صَابْحَة خير دليل، وللأسف لم يتوصل أحد للجاني.

اعتلت وجه المأمور دهشة كبيرة يتساءل وتفكير يناوشه:

- صَابْحَة...؟

ثم هز رأسه مُستغربًا:

- وما دخل صَابْحَة في موضوعنا اليوم؟ ثم ما علاقتك أنت بهذه القضية التي برأت المحكمة زوجها قبل مجيئك إلى هنا؟ أعتقد أن كلام الحج رضوان يُحترم.

اندفعتُ خارجًا لكن الحج رضوان يُلاحقني مُناديًا، التفتُ إليه بنظرة شرزاء يردد ملاطفًا:

- أرجوك لا تضايق نفسك وافعل ما تراه أنت مع هذا الشاب.

لم أرد بل خرجت ناقمًا ساخطًا.

رنين هاتفي لا ينقطع، أردُّ بعنف وفظاظة دون معرفة المتصل ليأتي صوت رجاء ناعمًا حالمًا.. بترت كلمات ترحيبها وانعقد لسانها لصدمتها في عنف ردي.. حظها السيئ أنها تأتي في غير الأوقات المناسبة ومن يقطف ثمرة لم تنضج يتحمل وحده مذاقها المر.. حاولت الاعتذار لكني حالتي لا تسمح وجسدي يفور ساخطا.. كل الضغوط تتآلف وتشتد عزيمتها.. شبح صَابْحَة مع موقف المأمور وغدًا الذي يحمل توترًا وربما أنباء غير سارة في ظل وجود معلومات عن جاهزية الأهالي لصد هجوم الشرطة والوقوف بقوة في وجه الإزالة التي ستتم لمنازلهم المخالفة.. يتراءى لي في غمار أحزاني وجه "ساسو" كلبي الذي عشنا قصة عشق طويلة منذ أن اشتريته من ضابط صديقي.. نهر فياض من الأحاسيس الوحيد الذي أحبني بإخلاص وتفهَّم شخصيتي وعرف قدري دون تملق أو نفاق أو منفعة.. عسير أن تجد حبًّا من أجل الحب لم يخلق هذا في قلوب البشر حتى العشاق ينتظرون منفعة الاهتمام والزواج

وما تلاه من أعباء وضغوط تفوق قدراتنا.. لم يفارقني ومن أجل عينيه ومخالفة للتعليمات خصصت عسكريًّا مجندًا في أثناء خدمتي في قطاع الأمن المركزي لخدمة ساسو والاعتناء به.. أمي شعرت بالغيرة من هذا العشق تغمغم دائمًا أن الكلاب نجسة ليتها عشقت ساسو ما كانت لتقول هذا.. بهجتي أن نسير معًا يتبختر مزهوا بروعته وبنيانه القوي المرعب.. لكنه خانني وتركني وحدي وخطفه الموت.. ذات صيف كنا نقضيه في الساحل الشمالي أخذتني غفلة من النوم أستيقظ على بكاء العسكري المجند وصراخه بينما ساسو ممد على الأرض بلا حراك.. تيقنت من نهايته انقضضت على العسكري بحزام أجلده بكل قسوة وهو يقف إزائي مهينًا متصلبًا لا يقوى على البوح بألمه وتمرده على هذه الإهانة حتى خرجت أمي على هياجي تنهرني بشدة وتعنفني، تدافع عن هذا المسكين بينما تقف زوجتي التي أصبحت طليقتي فيما بعد أرى الشماتة في نظراتها.. أحضرت ثلاثة أطباء بيطريين بلا جدوى حتى عرف آخر طبيب سبب الوفاة، وجد جرحًا في رأس ساسو أكد أنه عضة حية يبدو أنها تشاجرت مع الكلب وسُمها قتله على الفور في أثناء نوم العسكري.. لم أشأ إحضار كلب آخر وفاء لهذا الصديق الرائع الذي تركني أتألم فقده وينضم لقائمة الراحلين ممن يتركون وجعًا لا يُمحى في القلوب.

***

صباح غير رائق والضباب الكثيف يحجب أشعة الـشمس ونـسيم خانق يحاصرنا.. تجمعت القوات وجهـزت لنـا الـسيارات مـع وجـود رئيس مجلس المدينة وموظفيه.. الوجـوه تـنم عـن كآبـة وضـيق وفتـور فالأمر جلل، قد تحـدث مناوشـات، واشـتباكات يقـع خلالهـا ضـحايا ومصابون.. مهمة ثقيلة لكن قدرنا أن نواجه أحلـك الظـروف ونطبـق القانون الذي أقسمنا عليه لا تهزنا عواطف ولا تحركنا أهـواء.. شـعرنا بمزيد من التوتر بقدوم المأمور على رأس الحملة.. قـد يبـدو ظاهريًّـا أن حضوره يبعث على الاطمئنان لكن وجوده ربما يثـير حفيظـة الأهـالي.. انطلقنا جهة الشرق في طريق زراعي ضيق، تحيط بـه الأراضي الزراعيـة بطينتها السمراء واللون الأخضر يطارحها الغرام، نمسح التراب الـذي يهيله علينا ريح الطريق لا ينبس أحد بشيء.

توقفت الحملـة أمـام مجموعـة مـن المنـازل وسـط أراضٍ زراعيـة مترامية، بعضها تم بناؤه بالخرسانة والطوب الأحمر وتشطيبه بشيء مـن الفخامة وبيوت أخـرى متواضـعة بُنيـت بـالطوب الأبـيض الحجـري وسقفها عروش من البوص والقش.. كما توقعنا استقبلنا مجموعات من الأطفال والنساء يتقدمهم رجال أقويـاء يقفـون إزاءنـا بكـل تحـدٍّ بيـنما العجائز ينظرن من النوافذ يترقبن الأمر.

يمسك المأمور الميكرفون محذرًا الأهالي من مغبـة تعطيـل عمليـات الإزالة واعتراض طريق اللورد مع ضرورة الإخلاء الفـوري للمنـازل، ليعلـو صراخ النـسوة، ينهـال الأطفـال علينـا قـذفًا بالحـصى والـزلط،

تراجعنا خطوات وقد أُصيب بعض العساكر في المقدمة بجروح وخدوش بسيطة.. صرخت في العساكر بعدم التقهقر وضرورة الثبات مع تقدم مجموعات لمحاصرة الأهالي، والتضييق عليهم لإخراجهم بعيدًا وهو ما نجحنا فيه والمأمور ما زال يمسك بالميكروفون يدعو الموجودين في المنازل بالخروج يعطيهم مهلة.. يرتمي رجل على قدمي يُقبِّل حذائي.. ذعرت بشدة وزجرته كي يبتعد، انقض عليه عسكري يبعده والرجل يصرخ مستنجدًا: "حرام شقى عمري يضيع.. يرضيكم ننام في الشارع؟"

نجحنا في إخراج قاطني أحد المنازل ليتقدم البلدوزر يدفع الحوائط بقوة لتنهار ويخرُّ السقف وسط صراح الأهالي، والحجارة التي تنهال علينا.. أهرول بصحبة المأمور بين العساكر محاولين إبعاد الأهالي بكل جسارة وصلابة بينما فرَّ رئيس مجلس المدينة محتميًا بموظفيه الجبناء بعيدًا كأنهم يشاهدون عرضًا مسرحيًّا.

يسقط النقيب إيهاب مضرجًا في دمائه بعد أن شُج رأسه بمخرطة ملوخية أُلقيت عليه من إحدى السيدات.. يُهرع العساكر لحمله ونقله إلى سيارة الإسعاف التي جاءت بصحبتنا.. نجح العساكر في اقتحام بقية المنازل وإخراج الأهالي عنوة وحمل الأثاث إلى الخارج ليواصل البلدوزر عمله.. عجوز تعترض طريقي تنوح: "حسبي الله ونعم الوكيل"، التقت أعيننا شعرت برهبة.. أشحتُ بوجهي عنها لكنها اندفعت تمنعني من التقدُّم ولسانها لا يكفُّ عن ترديد ما تقوله والضيق يلازمني وخنقة شديدة تنتابني.. صرختُ في وجهها:

- أنتم مخالفون وتستحقون ما يجري لكم الآن ونحن ننفذ القانون.

تضرب كفيها على وجهها وصراخها يتصاعد:

- تنفذون القانون على الغلابة فقط والبهوات الكبار مخالفون أيضًا، بذمتك تقدر تهدم طوبة من عندهم .. منكم لله.. سننام في الشارع وأنتم تنعمون في التكييف والتهامي بيه أكبر منكم واشترى ذمتكم بالفلوس.

هممتُ بدفعها عن طريقي ولو بالقوة لوقاحتها، لكن رأيت وجهها تحول إلى وجه أمي ارتعدت وتسارعت أنفاسي، تزفر في وجهي:

- لو تعرفوا ربنا والقانون وفروا لنا سكن بديل.. كونوا عونًا للغلابة.

فررتُ من أمامها لألمح قدوم مجموعات كبيرة من الشباب المتحمس يحملون أخشابًا وعصيًّا، يحاصرون البلدوزر وقد نجحوا في إنزال السائق يوسعونه ضربًا لننجح في إنقاذه لينتهز الشباب الفرصة ويشتبكوا مع العساكر في مشهد مؤسف، يتكهرب الجو أكثر مع إصابة المأمور في وجه.. حاول شاب الاعتداء عليَّ بخشبة طويلة لكني تفاديت الضربة وطرحته أرضا لأجدني مُحاصرًا من مجموعة الشباب اشتبكت معهم وأبليتُ بلاء حسنًا خاصة مع انضمام العساكر لي وفجأة تتصاعد النيران والدخان من البلدوزر.. ننجح في الانسحاب والاحتماء بسياراتنا وحمل المصابين من قواتنا بينما يصرخ رئيس مجلس المدينة يُشير إلى البلدوزر المحترق والأهالي خلفنا يرشقوننا بالحجارة.

- البلدوزر عهدة.. روحنا في داهية.

في طريق عودتنا نلتقط أنفاسنا، نلملم جراحنا والتعب نال منا، لمحت قصرًا فخمًا وسط الزراعات بُني على طراز حديث تحيطه حديقة غناء وبوابة حديدية ضخمة تساءلت: ما هذا؟

ردَّ السائق:

- إنه قصر التهامي بيه.

شدَّني الاسم وتذكرت مقولة العجوز لأسأل العسكري باهتمام شديد عن هذا الشخص يبتسم العسكري رغم مرارة ما نحن فيه.

- يا سعادة الباشا هل هناك أحد لا يعرف التهامي بيه؟ إنه من أكبر رجال الأعمال، ما شاء الله شركات ومصانع لا حصر لها، ويمتلك فنادق وقرى سياحية وافتتح مؤخرًا قناة فضائية ويُقال إنه بصدد ترشيح نفسه في البرلمان الدورة القادمة.

تساءلتُ مندهشًا:

- لكن كيف بنى هذا القصر وسط الأراضي الزراعية؟

نظر إليَّ السائق بنوع من الغرابة أعنفه على عدم رده لينـدفع قائلًا بصوت يحمل الأسى:

- يا سعادة الباشا أنت سيد العارفين النفوذ والفلوس تفعل كل شيء وتفتح كل الأبواب سواء كانت شرعية أو غير ذلك، وأي مسئول يتمنى مخاطبة ود التهامي وخدمته من أجل الاستفادة من نفوذه الكبير.

تذكرت وجه العجوز الثائر تملكتني رغبة في العودة إليها لشيء أجهل سببه.. ربما أعتذر لها وأُقبِّل رأسها .. شعوري بالضيق يزداد.. غبار الطريق يتصاعد ثم ينعقد في بطء في أشعة الشمس.. تتأرجح إزائي مشهد البيوت وهي تُسوَّى بالأرض، بينما يربض القصر بعليائه وشموخه نمرٌّ عليه، وكأنه بأعمدته تخرج لنا لسانها.. يطالعني وجه أماني بوجهها الملائكي، دموعي تتناثر كندى الصباح، أدعوها للعودة ربما تزيح هذا الضباب وتحمل مشعلًا من البهجة.. تتلاشى ليظهر وجه صَابْحَة بجمودها ونظراتها الحادة.. عنَّفت السائق بشدة أن يسرع للعودة للقسم.

عدتُ مُنهك القوى.. رغبت في الراحة لكن تحملت المسئولية بديلًا للمأمور الذي ذهب ومعه معظم زملائي إلى المستشفى لتلقي الإسعافات، تلقيتُ مكالمة عتاب عنيفة من مدير الأمن يتهمنا بالتقصير والتخاذل.. قلتُ ملاطفًا أخفي مقتي وضجري الشديدين:

- يا أفندم كل شيء تم على ما يُرام، تم هدم المنازل المخالفة، أما عن مقاومة الأهالي، فهذا رد فعل متوقَّع وتعاملنا معه بهدوء.

يواصل تعنيفه:

- عُد برجالك للقبض على المشاغبين وعدم التهاون في حقكم.

أنهيتُ المكالمة بتبرم، رغبة شديدة في عدم تنفيذ أوامره لكن لا مناص وإن جاءت الأوامر على غير رغباتنا.. وهل تملك قطعة شطرنج

أن تعترض على تحريكها وإن أبصرت هلاكها؟ كلفتُ ملازم أول بالعودة والقبض على بعض الشباب ممكن اشتبكوا معنا مع عدم الاحتكاك أو التشابك مع النساء وكبار السن.

عادت الحملة تحصد خمسة عشر شابًّا، لحظات وفوجئت بقدوم أفواج من الأهالي من كل حدب وصوب يعلنون غضبهم واحتجاجهم الشديد على القبض على أبنائهم، يحاصرون القسم، يتوعدوننا بعدم الصمت.. تتعالى أصواتهم يهتفون ضدنا.. تتزايد الأعداد، بدت مظاهرة عارمة وحصار فعلي للقسم.. خاف العساكر وتحصنوا بداخل القسم.. الوضع ينذر بخطر شديد، الموقف يتصاعد، غضب الأهالي نار تتأجج وتستعر.. أمرت بإغلاق أبواب القسم، لكن ماذا أفعل؟ لو اقتحموه لن نقدر على صدهم واعتراضهم فليس معي سوى اثنين من الضباط ومثلهما من الأمناء ومجموعة تعدُّ على الأصابع من العساكر والمخبرين، فقد أُصيب معظم رجال القسم، بعضهم ما زال في المستشفى يتلقى العلاج والآخرون عادوا إلى بيوتهم للراحة بناء على تعليمات الأطباء.. ماذا يفعل الربان وسفينته على وشك الغرق؟ استنجدتُ بمدير الأمن لكنه رفض إرسال إمدادات وقوات خوفًا من استفزاز الأهالي وحدوث اشتباكات تهز صورته.. هربت المديرية من مواجهة الموقف وتركونا نواجه مصيرنا.. تعليمات مدير الأمن لنا بضبط النفس، وكيف ذلك والأهالي بالخارج أسود ضارية تتقدم نحونا كي تفترسنا؟ يتسلل اليأس إليَّ وتعبي مثقل بخيبة الأمل..اتصلت على

أمي ورجاء أسألهما الدعاء شعرت بمدى حبهما الجارف من سيل كلماتها
التي تدعو للطمأنينة والسكينة.. ارتميتُ على الكرسي تعتصرني الأفكار
والهواجس لاحظتُ وجود مصحف على مكتبي لم ألحظه منذ استلامي
عملي هنا، أمسكتُ به، يدي ترتجف وعبراتي المختنقة تهزني لأول مرة
أشعر بخوف شديد.. رتلت بعض آيات من القرآن الكريم.. قمتُ
توضأت وصليت العصر جماعة مع زملائي.. شعرت براحة وهدوء
نفسي.. رأيتُ أماني تحمل صورة الحج رضوان العمدة.. تذكرته هتفت
بشدة، إنه هو.. طلبت رقم هاتفه.. تذكرت مدى جفائي معه، لكن لا
مفر من الاستعانة به لتهدئة ثورة الأهالي الغاضبة وفضِّ هذا التجمهر..
جاءني صوته يحمل سكينة وخشوعًا، يجلب لي مزيدًا من الثقة.. بعد
نصف ساعة أتى على عجلٍ بوجهه البشوش، وابتسامته العذبة.. عانقته
بحرارةٍ، تذكرت أبي الذي افتقدتُه منذ أمد بعيد.. لم يتردد الرجل في
قبول المهمة، يبدو ملاكًا يسعى للخير، يحمل مشاعل النور.. خرج
يتصدى ويمتص غضب الأهالي.. دقائق عصيبة تمرُّ عليَّ انتظر نتيجة
التفاوض.. شعرت بقيمتي الحقيقية فقد كشفت الساعات الأخيرة
زيف وجاهاتي وانطفأ بريق زهوتي.. وزيف سيفي البتار وأن قوتي مجرد
وهم، حبُّ الناس مشاعر مصطنعة ومُفتعلة حتى رؤسائي تخلوا عني،
تركوني وحدي أواجه مصيري.. لا ضير إن نزعت ورقة من الشجرة
لن يقدروك، ربما نعتوك بالفشل والحماقة بينما يظهرون أمام الناس
يتحدثون عن مجدهم الزائف ويتباهون بذكائهم.. الهاتف يتلقى مزيدًا
من رسائل رجاء تبث الثقة وتدعوني للتفاؤل وحُسن الظن بالله.. لا

تدع فرصة إلا وتحاول التقرب إليَّ وسكب مزيد من الاهتمام والحنان في طريقي ربما ألين وأهدم جدار الصمت والجفاء بيننا.

جلسنا جميعًا خلف باب القسم نستمع إلى صخب الأهالي وحنقهم المتزايد، لم أكن أعتقد يومًا أنهم يحملون كل هذه الكراهية لنا.. نحن نقصر في حياتنا ونتنازل عن راحتنا والاستمتاع بلذة الدنيا من أجلهم والعمل على حمايتهم يكون هذا جزاءنا.. هُنَّا على رؤسائنا فهنّا على الأهالي.

دخل علينا الحج رضوان بابتسامة عريضة تزين ثغره يحمل البُشرى.. وافقنا على شروطهم وتم الإفراج عن الشباب، لم أنتظر رد المديرية فهي لم تسعَ لحمايتنا أو مساعدتنا.. خرج الشباب رافعين رؤوسهم يستقبلهم الأهالي كفرسان منتصرين عائدين من الحرب.. تعلو الزغاريد، ينفضُّ الجمع، يعود الهدوء إلى الشوارع المحيطة بالقسم بينما نحن نلملم هيبتنا وكرامتنا المُنكسِرة، وروحنا المهزومة.

في المساء وسائل الإعلام تذيع بيان الداخلية حول حادث حصار القسم تمجد في حكمة الداخلية وحنكة مدير الأمن في التعامل مع البلطجية - حسب ما ورد في البيان - والنجاح في فَكِّ حصارهم وعودة هيبة الشرطة.

***

هل نجد في الإجازة السلوى والراحة من عناء التفكير، ننفض عن أجسادنا وهن الشقاء.. استقبلتني أمي بالعناق والترحاب الشديد

وصنوف الأكل التي أعشقها.. تحاصرني بالحديث عن روعة رجاء وحُسنها وأنها لن تجد خيرًا منها تصلح زوجًا لي.. حاولت صمَّ أذني عن سيل كلماتها لكنها تقتحم أحلامي وصوت رجاء يتردد صداه.

عدتُ إلى سريري نبع الراحة والشفاء.. مكالمة مقتضبة مع رجاء تهنئني بسلامة عودتي تلمح بحتمية أن نتقابل.. وعد فاتر واستئذان فجٌّ مني فحاجتي للنوم تفوق أي شيء.. تنهي المكالمة ونبرة صوتها الأمل.. ما الذي يرغمها على تقبل جفائي والاستمرار في علاقة لا تجد منها ريحًا طيبة وقلبي الميت لا يستجب لإفاقتها.

في المساء خرجتُ أتنسم هدوء الليل، لا أشعر بحميمية شوارع مدينة السادس من أكتوبر المقفرة الخالية من نبض الحياة وروح المحبة، وطيب المعاشرة مع وجوه الناس الطيبة.. بستان ذو تنظيم هندسي رائع لكنه يخلو من الورود والخضرة.

اتصلت على شلة الأنس بروض الفرج هذا الحي الشهير الذي انتقلت إليه بصحبة والدي وقد بلغت مرحلة الصبا بعد التحاقه بالعمل في مصنع للزجاج بشبرا.

عشنا في شقة متواضعة بجوار سوق روض الفرج الشهيرة بمساحتها الكبيرة المترامية ما بين النيل وشريط السكة الحديد والتجار يأتون إليها من كل مكان في مصر قبل انتقاله في منتصف التسعينيات إلى مدينة العبور.. كنتُ أمضي مع الرفاق وقتي في التجول في أنحاء السوق ومشاهدة حلقات البيع والمزادات التي تُقام والسوق تموج بها الحركة لا

تنقطع كخلية نحل وحركة البيع والشراء والمساومة والمقاهي تحيط بالسوق يتحول بعضها في المساء إلى مسرح للمنوعات، حيث الطرب والرقص الشرقي تعيد أمجاد الحي حيث كان قديمًا مركزًا كبيرًا للمسارح الغنائية والاستعراضية، لكن والدي كان يأخذني إلى حلقات الذكر التي تُقام بعد صلاة العشاء في مسجد أبي الفرج.

بعد حصولي على الثانوية العامة رغبت في الالتحاق بكلية الهندسة، لكن أمي سعت لدى شقيقها الضابط الذي كان يرفض زيارتنا بحجة أن روض الفرج منطقة شعبية لا تليق بمكانته وهو بحكم عمله في الوزارة مقرب من وزير الداخلية ومن خلال وساطته نجحتُ في الالتحاق بالكلية، في العام الأول يرحل والدي بعد صراع مع سرطان الكبد.

انطلقتُ بسيارتي إلى هناك حيث عبق الأصالة، وموطن الذكريات.. لعل الأروع في روض الفرج أنها خبأت جذوة حزني على فقد أماني وانتظار عودتها، فقد تركت البقعة التي وُلدت، وعشتُ طفولتي فيها.

تجمعنا على مقهى عنبه بجوار مقر السوق القديمة حيث بُني على أطلاله قصر ثقافة وحديقة عامة، استقبال وترحيب من رواد المقهى.. هنا تفقد خصوصيتك تجد نفسك محاصرًا بسيل من الحب لا تدري ماهيته هل مفتعل؟ ومنصبك يمنحك تلك المشاعر المتدفقة وستنفد يوم أن تخلع رداء الوظيفة أم ماذا؟ حديث الشلة بين أصدقائي الثلاثة

أشرف مهندس مدنى بشركة المقاولون العرب وناصر مدرس التربية الرياضية وصاحب صالة ألعاب رياضية وبين مختار الباحث بالمركز القومي للبحوث خريج كلية العلوم الذي يسعى للحصول على درجة الدكتوراه ودائمًا متجهم ناقم على حياته.. يشكو أحوال العمل والفساد والمحسوبية التي تعشش في أركان عمله.. ينعى طيبته التي لم تجعل منه لاعبًا مهاريًّا يجيد تغيير وجهه ويُهادن هذا ويتودد إلى ذاك.. ليس قادرًا على الجلوس على كل الموائد، فعاش في معمله منبوذًا ينتظر الفرج ونظرة عطف من أساتذته.

اصطحبتُهم للهروب من ضجيج المقهى وزحام المنطقة إلى أحد المطاعم الشهيرة بحي مصر الجديدة كما تعودنا في كل إجازة لتناول العشاء، وقضاء يوم لا يتكرر كثيرًا، لكي نغسل همومنا وننسى مشكلاتنا وصراعاتنا الحياتية، لكنهم سرعان ما ينصرفون خوفًا من التأخر على زوجاتهم رغم شكواهم المريرة وافتقاد الحب معهن، لكنهم يتفقون أنهم يتحملون مرارة العيش من أجل اكتمال أركان البيت وحفاظًا على أولادهم.

في طريقي عودتي توقفت بسيارتي على كوبري ١٥ مايو أستمدُّ قوة أفتقدُها من صلابة النيل وشموخه، أُعانق نسيمه بشوق.. أنسام الليل أنفاس تسري.. رطبة متدفقة تمنحني انتعاشة.. أُناجي مياهه التي تمضي بهدوء تتناغم مع أضواء القاهرة الفاتنة لتشكل مسرحًا مبهجًا من السعادة والنشوة.. عاشقان بجواري تتشابك أيديهما تلمع عيونهما

كعصفورين يقفان على غصن يتسامران.. ربما جاءَ إلى محراب النيل ليكون شاهدًا على موثقهما.. صبية أطفأ الهم وجهها لكنها تمنحك ابتسامة دافئة تحمل الفل تستجدي أن تبتاع منها.. ترتدي فستانًا باهتًا وشعرها ينمُّ عن إهمال شديد.. أخرج جنيهات من جيبي.. تأخذها بودٍّ وغبطة ذت رونق فياض مع إصرار غريب أن تترك الفل ثمنًا لما أخذته.. عزة نفس وإباء تنضح من نبرتها.. ودَّعت النيل أسأله سبيل الرشاد.. وضعت الفل على تابلوه السيارة وبجواره الهاتف، يلمع اسم رجاء على شاشته المضيئة.

لم أرد إلا عندما وضعت رأسي على الوسادة وصوتها العذب ينساب في أذني.. حاولتُ التلذذ بكلمة "وحشتني" تقول لي: "بحق حبنا الجميل أنا على شوق لرؤيتك غدًا".

تذكرت موعدنا غدًا.. لم أدرِ شيئًا، استسلمتُ للنوم فقد كنتُ مرهقًا وبحاجة إلى نوم هادئ يُعوضني عن النوم غير المُجدي في استراحة القسم والراحة من لسعة الناموس هناك رغم كل ما فعلته من أجل القضاء عليه.

رجاء

ألو.. ألو...

الخط مفتوح ولا مجيب.. يبدو أنـه أستغرق في النـوم، وكـأنني لا أحدثه، يلازمني الضيق والخذلان مـن تـصرفاته.. يـؤلمني تجاهلـه كلـما فتحتُ ينبوعًا ردمه.. لا يُبادلني هذا الشغف والشوق، أبثُّ لـه الحنـين ويلقمني الأنين.. رغم شغفي للقاء الغـد لكـن مـا يقينـي ربـما يتـذرع بحجج واهية ويسافر دون لقاء.. لو فعـل ذلـك حقًّـا سـيكون الـسطر الأخير، وأغلق صفحته بل سأمزقها، فما عاد للفؤاد سبيل نحو الصبر.. وإن التقينـا سـأطلب منـه إجابـات حاسـمة فقـد تعملقـت علامـات الاستفهام، وصارت سوطًا يلهب حنيني ويقتل صبري وانتظاري.

أمقتُ الليل وما يحويه من هدوء يجلب الهمـوم وتـداهمنا الأحـزان وطوفان الأفكار يُغرقنا.. يُفتح باب غرفتـي بهـدوء تـدخل أمـي بتـبرُّم وتجهُّم أدرك سببه تزوي ما بين حاجبيها لأسألها عن سبب عـدم نومهـا حتى الآن ترد بحدةٍ ورغبة في الصدام:

- من أفعالك وعدم سمعك لكلامي ورفضك لأي عريس يتقـدم حتى العريس قريب صاحبتي ترفضين حضوره والجلوس معـه ومنحـه فرصة ربما يبهرك وتوافقين عليه.. كفاية انتظار لهذا الضابط المتعجرف.

شردت عنها أصمُّ أذني عن بقية حديثها وغضبها يتصاعد.. لم تجد جدوى، خرجت تغمغم وتتوَّعد.. فتحت نافذتي، أفرع الشجرة تتمايل مع نسائم الليل تهز ألمي كأنها تغالب حزنًا لا يحتمل.

استيقظت باكرًا رغم حصار الأرق وألم القلق.. اليوم عيد لقاء الحبيب أخرجتُ الهدايا التي أحضرتُها له، ولاعة على هيئة خنجر بلون ذهبي وتصميم أنيق.. كرافتة منقوشة بلون أحمر.. زجاجة عطره المفضلة على هيئة قلب.. لم أشأ التطلع إلى بقية الهدايا تركتها في موضعها أستعدُّ لهذا اللقاء الفريد، طيور السعادة ترفرف من حولي أترجى ألا تغادرني.. أحاول قدر الإمكان تحاشي الاصطدام بأمي فكلماتها الجارحة لن ترحمني وربما تفسد ابتسامتي.. أرى التهكم والسخرية على مُحيَّاها.. أهربُ إلى غرفتي، أُخرج ثيابي التي اشتريتُها منذ أسبوع كي أبدو أميرة في عيني باسل الحبيب والغد المنير، والأمل السعيد.

رنَّ هاتفي يقفز قلبي فرحًا.. باسل.. خطفت الهاتف لكني تذكرت جرح الأمس، تركني وحيدةً في ليل مقفر، ولم يشأ الاعتذار عن تجاهله، ألقيتُ الهاتف على السرير، أصارع دمعة انحدرت على خدي تواسيني لكن عاد الرنين.. يدي ترتعش ما بين الإقدام والإحجام.. قلبي يدقُّ بعنف.. رنة رسالة خطفت الموبايل بجنون وبشوق كبير أفتح الرسالة:

"أعتذر بشدة عما حدث فقد كنت متعبًا جدًّا ولم أشعر بنفسي إلا في الصباح.. تقبلي اعتذاري يا غالية حتى نلتقي اليوم حسب ميعادنا.. المخلص باسل".

تنهدت من أعماقي، أُقبِّل هاتفي، أضمُّه إلى صدري بشوق .. ما أروع رسالتك ونبض كلماتك التي تشعُّ عشقًا وأملًا وتجعلني ثملة بك وروعة ببهائك أيها الفارس الأسطوري.

في الطريق صوت داخلي ينعتني بالسذاجة، هربت إلى الشمس في عليائها بادلتني نظرة جامدة تحوي صمتًا لا أدري ماهيته.. تأففت من سائق التاكسي يختلس النظرات من خلال المرآة.. تحركت قليلًا وصوت تأففي يكشفه ويحذره.

في الكازينو بحثت عنه لم أجده كدتُ يُغشى عليَّ لولا أن جاءني صوته العذب من خلفي يُرحِّب بقدومي.. تنهدت، التفتُّ بابتسامة عريضة ويدي تتخلص من حقائبي على أقرب منضدة، أمدُّ له يدي الاثنتين، أُرحِّب به بكل شوق وسعادة، أبادله ابتسامة عريضة تزيد وسامته وبهاءه الذي يخطف الأبصار.. تبادلنا نظرات الشوق والحنين، يده تعانق يدي تزيد من لهيب شوقي ودقات قلبي تتسارع.. نبض ودفء ملمس يده يخدر جسدي.. لم أشعر بشيء من حولي، رأيته الكون بما حوى والأرض وما عليها.. جذبني كي نجلس وأنا لا أشعر بكياني، أحاول استعادة توازني وعيني لا تفارق الاعتكاف في محرابه، يهتف قلبي ابقَ معي حتى نهايات العمر فأنا مجنونة بك ومفتونة بروعتك فلا تدعني.. همستُ وأنا أميل بجسدي نحوه بدلال:

"أحبك يا أحلى ما في الوجود وفارس حياتي وكل حياتي".

ازدادت ابتسامته بريقًا يشكرني بتودُّد هتفتُ:

- لا أريد شكرًا أريد شوقًا.. ابحث عن حبك يا باسل ارحم ضعفي، قدِّر حبي وتعلُّقي بك.

تنحنح وتراجع بجسده قليلًا ونظراته تقول إننا في مكان عام لكن أمسكت يده، أهزها كي يظل معي لا يشرد بعيدًا يرد بصوت يحمل الحنان والرقة.

- أنا مقدر حبك الكبير وسعيد به جدًّا يكفي تحملك لعصبيتي وانشغالي عنك وتقديرك طبيعة عملي، وهذا الأهم واستحالة أجد مَن يحبني مثلك، أنت إنسانة فريدة ورقيقة جدًّا وتستحقين كل حبٍّ وخير.

سألته في فرح:

- هل تحبني يا باسل؟

التمعت عيناه بنظرة غريبة وبلع ريقه.. سحبت يدي بعنف وقد تلاشت ابتساماتي وجرحٌ يؤلمني، لكنه أطبق على يدي بكل رقة يغرقني بنظرة فياضة، يردُّ بقوة:

- رجاء أي شخص يعرفك بإنسانيتك ورومانسيتك لا بد أن يحبك ويتمسك بك، لكن أنا لي طبيعة خاصة، وظروف مختلفة لا أريد أن أظلمك معي.. أنا رجل خرجت من زواج فشل وسبَّب لى جرحًا كبيرًا لم أُشفَ منه حتى الآن، وجعلني أنظر للحياة بنظرة مختلفة وأُعيد حساباتي في كل شيء.. بجانب عملي الشاق والمرهق بطبيعته الخاصة وقيوده التي تمنعني من ممارسة حياتي بشكل طبيعي وتجعلني معرضًا

للموت والخطر في أي وقت.. الحياة ليست مجرد حبٍّ ومشاعر جميلة الذي يتحكم فينا هو المنطق ويمنعنا من الاستمتاع بلذة كل شيء حتى لا نشعر بالندم ونقع في مشكلات تُحيل كل شيء إلى جحيم.

قاطعته برقة أترجى فيه الحب:

- باسل أنا أفهمك أكثر من نفسك وقادرة على تعويضك عن فشل تجربتك السابقة وأعرف كيف أُسعدك وتنسى أى شيء مؤلم، وطبيعة عملك موافقة على كل شيء فيها واستحالة في يوم ألومك على انشغالك بسبب عملك.

اتجه بنظره نحو عصفور يطير ويحطُّ على غصن شجرة بجوارنا يستجمع كلماته:

- الحياة ليست مجرد كلمات جميلة ولحن نتغنى به.. الحياة ضغوط ومشكلات مهما تحملنا لن نصمد.

ابتسمتُ برقة أنظر إليه مليًّا.

- اطمئن أنا عندي قدرة احتمال كبيرة.. اعتبرني مُتهمة بحبك وعشقك واقبض عليَّ يا حضرة الرائد، أودعني في سجنك مدى الحياة.

علت ضحكاته تطربني وتهزُّ كياني .. تنعش وجداني.. ما أروعه! كم يبدو الكون زاهيًا! أنشودة عشق عندما يضحك هتفت تغمرني السعادة:

- الله! لماذا تريد أن تحرمني هذه الضحكة الصافية؟ تعرف يا باسل أمنية حياتي أن يكون ربنا يكرمني بطفل منك ويشبهك ويضحك مثلك بهذه البراءة والروعة.. ألا تتمنى أن تكون أبًا يا باسل؟

شَردَ وعلا العبوس وجهه.. ضغطت على يده كي يكون معي يشاركني المشاعر ويسكب عبيره على أنغام أحاسيسي، تأملني مليًّا:

- كل إنسان يحلم أن يكون له أولاد من صُلبه لكن الحلم لا يكفي.

تندفع كلماتي دون إرادة:

- وأنا معك كي نحلم معًا ونُشيِّد عُشنا.

أمسك بكوب الليمون يقدمه لي يدعوني للشراب.. تجرعته على شجن صمته وشروده ثم وضعته بعنفٍ أهتفُ بغيظٍ:

- باسل قل لي الحقيقة أرجوك، هل هناك امرأة في حياتك غيري؟ عرفني وصدقني لن ألومك أو أتضايق بالعكس تكون ساعدتني في راحة البال وعدم الانتظار وهذا الشوق والحنين الذي لا أطيقه.

أشاح بوجهه بغضبٍ يصيح:

- لا أريد كلامًا سخيفًا أنا رجل ليس لدي وقت للحب ولا يمكن أن أتلاعب بمشاعر أحد.

أجاهد ألا تخرج دموعي أصيحُ بأسًى وخيبة أمل:

- لا أريد أن أكون حملًا ثقيلًا عليك.. لكن اعذرني أنا أحبك والحب شيء خارج عن إرادتنا.. من حق أي إنسانة أن تحب وتتمسك بحبها وتسعى كي تملك الإنسان الذي تعلق قلبها به.. أرجوك عرفني من الآن من أنا وهل تودُّ الارتباط بي؟ ماما تسأل عنك وتنتظر زيارتك.

صمت لحظات ثم قال:

- ربنا يسهل.

رفعتُ شنط الهدايا أضعها أمامه، ثم أنهض، يمضي في أثري محاولًا تهدئتي.. أصرَّ على توصيلي حتى المنزل.. في سيارته خيم الصمت علينا لا شيء سوى أم كلثوم تشدو برائعتها: "أمل حياتي" وكأنها تتضامن معي كي تبلغه رسالة قلبي وهيامي وشوقي به.

رفض أن يصعد معي إلى شقتي لمقابلة ماما قال:

"انتظري قريبًا إن شاء الله خير".

انطلق بسيارته مُسرعًا وأم كلثوم ما زالت تخاطبه "أنا حبيت في عنيك الدنيا كل الدنيا".

قابلتني أمي يكسو الوجوم وجهها، تزمُّ شفتيها مستنكرة عودتي، والحزن يطل من عيني.. تغمغم.. أسرع إلى غرفتي، أرتمي على سريري لينفجر شلال دموعي وآهاتي.. أسأل وسادتي وقد تعبتُ من البكاء:

"كيف يُشفى من بات بالعشق شقيًّا؟"

باسل

استقبلتني أمي بوجهها البشوش، تسألني عن رجاء.. تنتظر أن أدع مياه النهر تشق طريقها، تفتت كل جفاء أصاب قلبي.. لم أشأ الدخول معها في جدال ينتهي بحزنها ودموعها التي تترجى أن أنساق لأمنيتها.. تودُّ أن تحمل حفيدها بين يديها، وتضمُّه إلى صدرها قبل أن تودع الحياة هكذا تحاول التأثير والتعاطف مع رغبتها.. من حقها أن تطالبني بذلك، والحياة تتلخص في قلب آلام فمن وهبت لنا الحب والحياة من حقها أن تسألنا حتى لا يذهب الحب هباء.. فالشمس التي وهبت للقمر نورها من حقها أن ترى صداه يضيء الأرض.

لم تدعني أهنأ بنومي تسألني عن رجاء بنبرة قلق:

- أرن على هاتفها يعطى جرس ولا ترد.

أردُّ بلا مبالاة:

- أكيد يا أمي مرهقة ونامت.

- لا.. رجاء ابنتي وأعرفها جيدًا لا يمكن أن تنام دون السؤال عني وتسمع صوتي قبل أن تنام.

ضحكتُ بشيء من الاستخفاف:

- يا سيدي على هذا الحب.

تجهمت وأنا أرى الغضب يغمر وجه أمي تنحنحتُ وقلت ملاطفًا ممسكًا بهاتفي:

- سأتصل عليها لكي يطمئن قلبك.

مع تباشير الصباح وحديث رجاء وكلماتها في آخر مكالمة تناوشني، انطلقتُ إلى عملي بعد إجازة قصيرة.. وأغلب المكالمة دار بيننا حديث يملؤه الحب والأمل.. حاولت الفكاك منها لكنها تشبثت بمواصلة حديثها تطلب أنا أعِدُها بالحب والارتباط مهما يطل الوقت فهي في انتظاري.. تحدثت وأنا أجهل الجواب.. هل يحتاج الحب إلى امرأة عاشقة تترجى الحب من تمثال يتظاهر بالقوة والصلابة يخشى النزول إلى البحر، يتذرع بعدم تكرار غرقه مرة أخرى، يأبى أن يخضع لفكرة أن الحب خُلق كي نغرق فيه؟

تلمع شاشة هاتفي برسالة أطالعها بعين وعين اخرى تراقب الطريق.. رجاء أرسلت مقطعًا صوتيًّا من أغنية نجاة:

"انزع حبيبي معطف السفر وابقَ معي حتى نهايات العمر.. فما أنا مجنونة كي أوقف القضاء والقدر، وما أنا مجنونة كي أطفئ القمر .. ماذا أنا لو أنت لا تحبني ما الليل؟ ما النجوم ما النهار؟ ما السهر؟ ستصبح الأيام لا طعم لها وتصبح الحقول لا لون لها......".

تتخايل على شفتيَّ ظل ابتسامة زهو.. أن تعشقك امرأة بكل هذا الجنون فأنت تملك العالم لكن متى ستظل حجرًا ألم يئن أن تلين؟

نسيم الصباح ينعش أوصالي.. الطريق خالٍ إلا من بعض سيارات نقل ثقيل، أمرق بجوارها أسابق الريح .. أعشق القيادة فجرًا.. فجأة بدون مقدمات تنشق الأرض لتظهر سيدة تتشح بالسواد، تعترض طريقي.. تضطرب عجلة القيادة في يدي.. أحاول كبح جماح السيارة والضغط على الفرامل.. تنحرف السيارة مع سرعتها الشديدة.. تتسارع أنفاسي وينتفض جسدي هلعًا فالسيارة توشك على الانزلاق .. نجحت في تفادي السيدة بصعوبة بالغة مع الاحتفاظ بتوازن السيارة بالانحراف لأقصى اليسار، ساعدني في ذلك خلو الطريق ذي الاتجاه الواحد.. لحظة مروري بجوار السيدة التي تقف كصنم جلمود تلاقت نظراتنا.. رأيت دماء تخرج من عينيها زادتني رعبًا.. لأقف على جانب الطريق ألتقط أنفاسي، أستعيدُ توازني.. أتمتم ببعض الأدعية وآيات الشكر.. تذكرت وجه السيدة.. إنها صَابْحَة نفس الوجه الذي رأيته في الصورة.. خرجت من السيارة مُسرعًا أبحث عنها.. لا أثر لها.. مسحتُ عيني وفتشت في أركان المكان ونظراتي تمتدُّ في الأفق عبر الحقول على جانبي الطريق لأفتش عن السيدة.. كأن لم تكن.. ربما خيالات تناوشني وهلاوس ناتجة عن قلة نومي والإرهاق.. تناهى إلى سمعي مع هذا الهدوء الذي يغلف المكان صوت استغاثة امرأة.. علا فجأة ثم انقطع كأن أحدًا وضع يده على فيها.. فزعتُ وأخرجتُ مسدسي من غمده.. أدور في المكان وأسعى على جانبيه بل ترجلت داخل الحقول، عيني تمسح أرجاء المكان.. لا شيء سوى سيارة نقل تمرُّ سريعًا تلاه صوت نهيق حمار.. عدتُ إلى سيارتي أشعر بثقل في رأسي وعرق غزيز ودقات

قلبي تتسارع.. جلستُ أعصر رأسي بين راحة يدي.. تبًّا وسُحقًا لتلك الأوهام .. لحظات وبدأ الهدوء يعود إليَّ أعدت تشغيل السيارة، انطلقتُ من جديد، وأفكار شتى تُطاردني.

وصلت والمدينة لم تستيقظ بعد.. الهدوء يحيط بالقسم وزقزقة العصافير على الأشجار ترتل أناشيد الصباح.. دلفتُ إلى مكتبي مُسرعًا أفتحُ درج الأخير.. أنزع ملف صَابْحَة.. أفتحه بشغف.. تطالعني صورتها.. يرتعد جسدي.. ما زالت نظرتها الحادة تطاردني.. وددت لو مزقتها وحرقت الملف بأكمله هربًا من قسوة عينيها.. لكن ما أمسكه مجرد ورق لكنها لن ترحمني في يقظتي ومنامي.. فالشبح عسير أن نروضه ونسيطر عليه.. أزفر دخان سيجارتي بغيظ شديد وتفكير عميق.. لن يهدأ لي بال وتعود حياتي لرونقها سوى بكشف لغز صَابْحَة ومعرفة أسرار جريمتها البشعة.. فمن يتجاهل الحقيقة لن ترحمه ولن تغفر له إلا وقد كشف اللِّثام عنها.

اجتمعتُ بالمأمور فور وصوله أقدم التهاني بسلامة عودته وتحسُّن حالته الصحية.. أسأله عن صَابْحَة يمتقع وجهه ويتساءل في حيرة شديدة:

- دع هذه الجريمة، والنيابة أولى أن تبحث وتُفتش بدلًا من أن تقيدها ضد مجهول، أما هنا فلدينا شغل كبير والقسم والشرطة هنا تحتاج إلى شغل مُضنٍ لإعادة هيبتها بعد الأحداث الأخيرة، ولا بد من توجيه حملات للقبض على البلطجية والخارجين عن القانون وتجار

المخدرات ومروجيها.. نحن لا نريد أن تهز صورتنا أمام الوزارة وكفى ما حدث.

قلتُ بشيءٍ من الرفق والترجي:

- كل ذلك سوف يتم يا أفندم لكن ما المانع أن أحاول جمع تحريات من جديد عن صَابْحَة دون تقصير من ناحيتي في أي عمل تكلفني به؟

ردَّ منزعجًا يبرم شاربه العريض:

- نفذ الأوامر دون نقاش.. لا داعي للبحث في جريمة غامضة تستنزف طاقتك وجهدك الآن.

خرجتُ متبرمًا منزعجًا.. عليَّ أن أنفذ الأوامر، لكن هل تدعني صَابْحَة لشأني؟!

بعد أيام من التحريات ووضع خطط واجتماعات وترتيبات مضنية من أجل الإيقاع بأخطر رجل في المدينة والقرى التابعة لها اسمه صبحي وشهرته مالطا.. أكبر مروج للمخدرات بأنواعها كافة، ويتزعم عصابة كبيرة عجزت الشرطة عن إثبات دليل يدينه.. يتميز بالذكاء الشديد والحيطة مستغلًّا شبكة من العلاقات والنفوذ توطد مكانته، تجعله ينفذ جرائمه بكل ثقة وثبات.. فرضت سيرة شديدة على رغبتي في الإيقاع به، فأنا لديَّ يقين أن له عيونًا معنا في القسم يتقاضون رواتب ثابتة من أجل إبلاغه بأي تحركات ضده.. عوائق كثيرة تعترض طريقنا، فالرجل يعيش وسط جزيرة في النيل مزروعة بأشجار الموز.. في وسطها يقع

قصره ذو الأسوار العالية والحراسة المشددة فضلًا عن صعوبة اقتحام الجزيرة.. مكثتُ أيامًا أفكر في خطة حتى وجدتها.. اقتنع بها المأمور بعد جهد.. سافرنا للقاء مدير الأمن نعرض عليه الخطة.. سوف نعبر في مراكب وصنادل تابعة لوزارة الري تحمل عددًا من الحفارات والمهمات نقترب من الجزيرة بحجة تطهير مجرى النيل، وإزالة نبات ورد النيل وتعمل الحفارات حتى لا يشك أحد ثم تقترب من شاطئ الجزيرة وترسو عليه طلبًا للراحة وفي خِضم ذلك يتوغل عدد من رجالنا الأشداء حاملين أسلحتهم في أنحاء الجزيرة متخذين كثافة أشجار الموز ستارًا لهم حتى يقتربوا من قصر مالطا، ويربضوا بالقرب منه دون أن يشعر بهم أحد من رجال مالطا، تكون مهمتهم في ساعة الصفر التي سيتم الاتفاق عليها، نهجم على الجزيرة مهتمهم لمنع أحد من اعتراضنا، ويتبادلون ضرب النار، ويشتبكون معهم إن لزم الأمر لمنع تقدمهم ناحيتنا حتى نصل إلى القصر ونهاجمه تزامنًا مع وصول مراكب أخرى تحمل قوات إضافية مدججة بالسلاح والذخيرة لمؤازرتنا، مدعمين بالكلاب البوليسية.

لكن تكمن نقطة ضعفنا في عدم تسريب تلك الخطة وموعد الهجوم على مالطا.. رأى مدير الأمن ألا نستعين بأحد من قسم الشرطة ونطلب من الداخلية إمدادنا برجال من الأمن المركزي والعمليات الخاصة نظرًا لخطورة هذا الرجل ونفوذه الذي يتزايد، وانتشار المخدرات بكثرة تعجز الشرطة مهما تقُم بالقبض على الموزعين عن القضاء على المخدرات في المنطقة لوجود مالطا رأس الأفعى.

انتظرنا أيامًا حتى جاءت موافقة الوزارة وإعجاب الوزير شخصيًّا بالخطة.. وقمتُ بالتنسيق مع مديرية الري لإمدادنا بالمراكب والمعدات.

أغلقتُ هاتفي في تلك الأيام، لا أريد تشتيتًا.. استأذنتُ أمي ورجاء نبرة صوتها تكشف عن تذمرهما، قلت لرجاء في حدة:

- أنسيتِ كلامك أنك سوف تتحملين طبيعة عملي الشاق وترضين بأي وضع طارئ وعارض.

صمتت مرغمة بينما اعتراض أمي جعلها تبحث وتعثر على رقم الهاتف الأرضي، لا تطيق لحظة لا تطمئن عليَّ فيها.

قبل تنفيذ الخطة وقُبيل الفجر كنت في المديرية نضع اللمسات الأخيرة، سربتُ خبرًا في القسم أنني في إجازة حتى لا يرتاب أحد في أمر غيابي.. ذهبت إلى استراحة المديرية طلبًا لساعة نوم، بمجرد أن وضعت رأسي على الوسادة لم أشعر بنفسي لكنني في أثناء نومي استيقظت على صوت امرأة يناديني من خلف الجدران.. قمتُ مذعورًا.. لم أجد إلا خيطًا من نور الفجر بدأ يتسلل إلى الغرفة عبر النافذة الضيقة.. خرجت مُسرعًا لم أجد إلا طرقة طويلة يجلس في منتصفها عسكري يغطُّ في نوم عميق.. عدتُ إلى الغرفة أحكم غلق الباب.. أفكر في ماهية هذا الصوت، إنه يشبه صوت الاستغاثة الذي سمعته فجر يوم عودتي في الطريق.. خطفني النوم مرة أخرى فقد بلغ الإعياء مني عتيًّا، لكنني رأيتُ نفسي أهرول وسط سوق المدينة والأرض مخضبة بالدماء.. أرتدي جلبابًا ممزقًا والناس جالسون

متحلقين وقد غطت الدماء أرجلهم ينظرون نحوي بغرابة.. تبينت الدموع في أعين بعضهم، وأنا أتعثر في خطواتي حتى وجدتُ أمامي امرأة تشبه نافورة يتفجر الدم من كل أنحاء جسدها.. وجهها يحمل صورة صَابْحَة.. تشير إليَّ وتمدُّ يدها كأنها تستغيث.. تسمرت مكاني، ينتابني خوف وذعر شديد وصراخ السيدة يتصاعد ويتعالى.. فجأة تمتد يدها وتطول.. تواصل تمددها نحوي.. حاولت التراجع والتقهقر لكني تصلب جسدي وكأنني نبتة غُرست في الأرض حتى وصلت يدها إليَّ.. تطبق على عنقي بقسوة.. أختنق محاولًا التخلص منها لكن تزيد من قبضتها وجسدي يخور، عيناي ينسحب منهما النور ليغطي الكون عتمة وأنا بكل قوة أصرخ كي تدعني وظل صراخي يتزايد حتى نهضتُ مذعورًا، أمسك عنقي عاجزًا عن التنفس.. أشعر بضيق شديد.. أنظر حولي فأجد نفسي ما زلتُ في الفراش وقد انتشر نور الصباح في أنحاء غرفتي فقمت مذعورًا محاولًا استعادة ذاتي.

خرجتُ مُسرعًا من الغرفة كفأر مذعور وقد انتصب العسكري إزائي مندهشًا يهمُّ بسؤالي إن كان لي حاجة لكني مررتُ من أمامه كالبرق.

ماذا تريدين يا صَابْحَة؟ ساعديني في التوصل إلى القاتل ودعي لي الباقي، وسوف أنتقم لك منه وينال عقابه المستحق حتى تهنئي في قبرك.. ربما تتساءلين: بأي ذنب قتلتِ؟!

لنقضِ على إمبراطورية مالطا وغدًا أتفرغ لك يا صَابْحَة مهما يكلفني الأمر.. عرضتُ الأمر دون إبلاغه بما أراه على مدير الأمن، أمعن النظر نحوي مشدوهًا:

- يعجبني فيك حماستك، تذكرني بأيام خلت.. افعل ما تراه صحيحًا ما دام في الصالح العام ودون مخالفة قوانين، ولوائح العمل.. عملنا متعته في المغامرة والبحث والتقصي.

سررتُ بشدة لكلامه.. وددت لو ظهرت صَابْحَة إزائي كي أطمئنها.. لا ريب أنها تراقبني وتعلم تحركاتي.. ثورة الدماء لن تخمد ويُطفأ لهيبها إلا إذا أخذتُ بثأرها من كل سفاح استباح دمها وأهدره.

القاتل

خيَّم ظلام ثقيل وراء الباب الموصد، أستريحُ من عناء البكاء، وأجفاني المتعبة تسألني النوم لكن عقلي مِرجل لا يهدأ من ثورة التفكير وتلك الأشباح تتراقص في جوف الشارع المُعتم.. يعتصرني الندم وتأنيب الضمير.. لماذا فعلت بها هذا؟ تآمرت عليها واشتركت في قتلها.. جريمة بشعة وشبح صَابْحَة لا يكفُّ عن مطاردتي يتراءى لي في كل موضع، يحيل حياتي إلى جحيم لا يُطاق.. سئمت كل شيء وهجرت عملي أيامًا قلائل، وتركت أسرتي.. شركائي هددوني بالقتل لو لم أخرج للحياة، وأمارس حياتي بشكل طبيعي حتى لا أُثير شك أحدٍ خاصة الشرطة التي لن تصمت وتترقب ظهور أي دليل جديد يقودهم للكشف عن أسرار جريمة قتل صَابْحَة والجناة وتقديمهم للمحاكمة حتى يكون حبل المشنقة مصيرهم.

سألت شركائي عن شبح صَابْحَة وصفوني بالجنون.. هجرت زوجتي وأولادي. عاجزون عن تفسير ما يحدث لا يدركون أنني سفاح لا أستحقُّ شفقة ولا رحمة.. زوجتي لا تكفُّ عن الذهاب إلى المشايخ وعمل أحجبة تحميني تؤكد أن الجن يسكن بداخلي.. مسكينة لا تدري جرائمي وأني خنتها مع امرأة أخرى ثم لطخت يدي بدم صديقتها صَابْحَة.. أخشى دخول المسجد والصلاة خوفًا من الله واستحياء منه،

كيف أحدثه وأنا مُثقل بكل هذه الذنوب والخطايا.. أعلم أنه تواب رحيم، يغفر الذنوب عن عباده، لكنني لا أقوى على فعل شيء.. لا أدري كيف الخلاص من هذا الشبح. لم أدرِ أن التخلُّص من صَابْحَة يعني نهاية الخوف.. فكرت أكثر من مرة في الصراخ.. أقفُ وسط السوق أصرخُ وأعترف بأنني قاتل صَابْحَة كي يستريح ضميري، ويهدأ عقلي، ويتلاشى هذا الشبح الذي يُطاردني.. شركائي في القتل لن يدعوني أفعل ذلك - فلستُ أنا السفاح الوحيد.

نهضتُ أدور في أنحاء الغرفة، في حرقة دموعي أتذكر الماضي.. صوت يصرخ بداخلي.. هوِّن على نفسك، صَابْحَة تستحق مصيرها، ألم تهددك؟ وساومتك أكثر من مرة كي تصمت على جرائمك.. إنها امرأة جشعة كانت تودُّ السيطرة على السوق والاستحواذ على كل شيء فيه.. تعلقت بالوهم وتصوَّرت أنه بمقدورها تحقيق طموحاتها.. طمع صَابْحَة السبب وتستحق جزاءها.. ألم تهددك بفضحك والتشهير بك؟ التخلُّص منها كان الحل الوحيد بدلًا من ابتزازها المستمر لك.

يهتف صوتُ آخر:

لكن ليس القتل وسفك الدماء حلًّا.. لقد اخترت الحل الأسهل.. لم تسعَ لترويضها حتى لو بالخداع ولتظل هكذا بقية عمرك في جحيم وشبح صَابْحَة يطاردك ويقضُّ مضجعك.

قلت لها قبل الحادث بيومين:

- كفى جشعًا يا صَابْحَة، تريدين الاستحواذ على السوق كلها.. دعي بقية الباعة يسترزقون.

ضحكت باستهزاء وجسدها الممتلئ يهتزُّ:

- حقي ولا أحد يقدر على منعي.. لا ذنب لي أنهم أغبياء لا يملكون حُسن التصرف والتعامل مع التجارة بذكاء.. والتجارة شطارة ومنافسة والسوق حلبة مصارعة.. البقاء فيها للأقوى.

- تلعبين بالنار يا صَابْحَة.

حدجتني بنظرة منزعجة وغضب يجتاحها:

- وما شأنك أنت. حسابك قادم أنت وصاحبتك التي حاولت أكثر من مرة إزاحتي من السوق بسوء خلقها.. تحاول إظهار البراءة أمام الجميع، لكن الله يُحبني وجعلني أكشف ما بينكما، وطبعًا تدرك من أقصد، لكن كل شيء في الوقت المناسب، وقريبًا سوف يحدث، سأفضحكما وأعرِّف الناس كلها المصيبة التي تحاولان إخفاءها.. ليعلم الجميع أن صَابْحَة قادمة وسوف يسود عهدها وتُصبح السوق في يدها.

امتلكني خوف وذعر شديدان، لم أشأ الرد عليها خوفًا من عيون تلاحظنا ويسمع أحد كلامنا.. بادلتها نظرة نارية وأنا أُضمر لها الشرَّ، أتوعدها بالهلاك.

تذكرت ما قالته صاحبة صَابْحَة وشريكتي في العشق والدم: "لا بد أن نتخلص من صَابْحَة وجودها تهديد حقيقي لنا هي كشفت سرنا ولن تتركنا سوف تظل تهددنا وتقضي علينا بالبطيء".

صرختُ في وجهها أُحذرها من مغبة ما تقوله، والشرطة لن تسكت.. ربما ينكشف الأمر ولن تصبح فضيحة واحدة.. لكنني دومًا ضعيف إزاءها، أنساق خلفها، العشق إدمان يجبرنا على أفعال قد لا نتصور في يوم أننا سنُقدم عليها.

أفقتُ من شرودي على طرق على باب المنزل.. عرفت الطارق ولِمَ أتى في هذا التوقيت... لا مَفرَّ من الخروج للعمل.

•

باسل

ينساب النيل بروعته، وبهائه كأسطورة جمال تفيض على الطبيعة، تتهادى مياهه بوداعة وصلابة.. على شاطئيه، ينبسط اللون الأخضر بما يحتويه من حشائش وزراعات الموز، يُغلِّفها صمت مطبق وتخفي ما وراءها.. سلاح يتخفى وراءه المجرمون بلا ذنب لها.. فالريشة قد ترسم أبدع الصور وربما تُشوِّه الجدران بخطوط عرجاء.. الانبهار يصيبك، تُفتن بهذه الصور البديعة من الروعة والجمال.. تتمنى لو مضى عمرك هنا.. ماء وخضرة وجمال.. تمخر المركب عباب النيل تتجه صوب الجزيرة في مغامرة ربما يكون الموت نهايتها.. تحمل كنفك ولسانك لا يكفُّ عن ترديد الشهادتين.. أشدُّ من أزر رجالي العساكر والأمناء والخفراء وزملائي الضباط.. كل يحاول بثَّ الثقة في الآخر، لكن يترسب بداخله شعور المخاطرة المحفوف بالخوف، وانتظار عواقب ما سيحدث.. نعم تدربنا جيدًا والخطط وُضعت بشكل دقيق ومُنظَّم، لكن رد فعل هؤلاء الخارجين عن القانون، وتجار الموت لا نعرف مداها.. لا يمتلكون سوى الرصاص والنار.. جُل همهم قتلك.. دم هابيل لن ولم يجف ما وُجِدَ في كل زمن قابيل.. نتخفَّى في زي عمال الري.. أرتدي بدلة تسمى العفريتة، يتوارى سلاحي داخلها، يتأهب في أي لحظة للاشتباك والصمود.. تطالعنا الجزيرة قائمة في عرض النيل

بشموخ وثبات.. تحيط بها أشجار الموز في كل جانب تخفي ما تحويه.. الحفار يعمل بكل همة ونحن نساعد رجال حماية النيل ومهندسيهم ممن وافقوا بكل شجاعة وفدائية على مساعدتنا مهما تكن العواقب.. نرصد عيونًا متحفزة تراقبنا من كثبٍ.. بعد ساعات تظهر مراكب صيد تقترب منا.. يبادلنا الصيادون التحية.. نبتسم مدركين حقيقتهم.. بعضهم صعد إلينا بحجة إمدادنا ببعض المأكولات وشرب الشاي يوجهون لنا أسئلة ويجمعون المعلومات عن طبيعة عملنا.. يستفسرون، ليس الآن وقت تطهير مجرى النهر.. الردُّ لدينا جاهز وحاسم، المعلومات الأولية بأن فيضان النيل سيكون منسوبه عاليًا هذا العام واحتمالية غرق أجزاء من الجزيرة؛ لذا بادرنا بتطهير المجرى وتعميقه لاستيعاب كميات المياه الكبيرة وقت الفيضان.. نستأذن منهم في أن نرسو على شاطئ الجزيرة طلبًا للراحة وكي تكون نقطة لتجمعنا وانطلاقنا نحو العمل.. لم ينبس أحدهم بكلمة لا يمتلكون القرار.. يأتي الرد قبيل الغروب: لا مانع لكن لن نترككم، واجب الضيافة يُحتم علينا خدمتكم.. وافقنا.. رست بعض المراكب مع حلول الظلام على شاطئ الجزيرة بمساعدة هؤلاء الصيادين ووجودهم.. جلسنا معهم نتسامر ونتبادل النكت والقفشات.. عرضوا علينا إحضار حشيش وبانجو إن كنا أصحاب مزاج على حد قولهم.. اعتذرنا لكننا سمحنا لهم بالتدخين نشجعهم على مزيد من تعاطي الحشيش، دخلنا معهم في تحدٍّ بأنهم لن يصمدوا وأن كمية قليلة سوف تذهب بعقلهم لكنهم قبلوا التحدي حتى انغمسوا وبشراهة فغابوا عن الوعي لتكون فرصة لبعض رجالنا وفق الخطة

الموضوعة في التسلل إلى الجزيرة، يلتحفون بالظلمة والهدوء للبحث عن قصر مالطا.. الأنوار المبهرة التي تحيط بسور عالٍ وكثرة الرجال المدججين بالسلاح حول الأبواب العالية جعلتهم يدركون أن هذا قصر مالطا.. مكثوا متوارين يراقبون الموقف ومداخل القصر وكمية الحراسة المُشددَّة عليه، بينما وقفتُ على النيل مُتحفِّزًا أُراقب الموقف في انتظار ساعة الصفر، أمسحُ وجهي براحة يدي كنوع من التخلص من شعور مفاجئ بالتوتر فنحن في عرين الأسد واصطياده ليس بالأمر الهين.. أتأمل الظلمة التي تكتنف المكان محاولًا تذكُّر حكايات جدتي عن الفرسان الشجعان يحاربون بسيفهم البتار كل شَرٍّ يعترض طريق الخير.. أتأمل مياه النيل بحثًا عن عروس البحر التي تخرج وتمشي بدلال على الماء بوجهها المضيء بحُمرة تُشبه القمر في بدره تدعو إلى الحب، قالت جدتي: إنها تظهر قبيل الفجر مباشرة، لكنها دومًا كانت تحذرنا من النظر إلى النيل في الليالي المظلمة التي يغيب فيها القمر، ترعبنا وتحذرنا من أمنا الغولة تلك العجوز الشمطاء ذات الوجه القبيح التي تقف على ضفة النهر، تخطف الرجال كي تنتقم من البحارة الذين قتلوا حبيبها في زمن غابر.. تخدع الرجال وتصطحبهم إلى قصرها القابع تحت الماء المشيد من الذهب الخالص وبه كل ما تشتهي الأنفس، تستغل طمعهم، تتركهم ينعمون ليالي في القصر ثم في تنقضُّ عليهم وتفترسهم.

كبرتُ يا جدتي وتعلمتُ أن الخوف ليس من أمنا الغولة وأو برجل مسلوخة كما كانت حكاياتك، بل علينا أن نخاف ونحذر ممن يعيشون وسطنا ويضمرون لنا الشَّرَّ.

تُلهب حماستي ذكرى قديمة لا تُنسى في مطلع شبابي وانتشار المخدرات بصورة علنية، عندما فوجئنا ذات يوم بقوات كثيفة من الشرطة فجرًا تحاصر منطقة روض الفرج بداية من الكورنيش حتى شارع جزيرة بدران ومنطقة الجسر بالساحل، وقد احتل العساكر أسطح المنازل، نترقب الأمر بخوف شديد خاصة وأن الشرطة نادت في الأهالي بعدم الخروج أو فتح النوافذ.. لا نعلم ماذا يجري حتى اتضحت الصورة كاملة مع فك الحصار أن الشرطة نجحت أخيرًا في القبض على صلاح أبو زيد أشهر تجار المخدرات والذي كان يسكن في إحدى حواري روض الفرج وفشلت الشرطة على مدار سنوات في الإيقاع به رغم كثرة الحملات التي وجُهت إليه إلا أنه كان ينجح في الهروب والتخفي يساعده أعوانه ورجاله.. ظَلَّ بعدها في السجن حتى مات كمدًا في زنزانته.

صوت ضابط ينتشلني من دوامة شرودي يُعيدني إلى دائرة التركيز في تلك المهمة الشاقة يشدُّ من أزري.. يهمس أن القوات الإضافية قد وصلت على ضفة النيل في هدوء ودون أن يشعر أحدٌ من رجال مالطا على أهبة الاستعداد وفي انتظار إشارة منا لكي يلتحموا معنا في الهجوم، على مقربة منهم ترابط المراكب التي ستقلهم إلى الجزيرة.. أومأت برأسي دون تعقيب حتى لا يفضحنا هدوء الليل.. تمنيت لو سمعت صوت أمي لكن يستحيل الاتصال تنفيذًا للتعليمات.. بحثت في جوف العتمة عن وجه أماني ربما يشرق ويبصر الطريق ويمدُّني بحافز، ويرفع روحي المعنوية، لكن الليل جاحد يمضي بلحظات كئيبة.

حانت ساعة الصفر.. أنرتُ كشاف البطارية الذي بحوزتي في اتجاه المياه ثلاث مرات إيذانًا بقدوم القوات الموجودة على الضفة، خلعنا سترة عمال الري لنظهر بزينا الرسمي وانطلقنا نشق طريقنا وسط الظلمة نلتمس مسلكًا وسط زراعات الموز بعيدًا عن الطريق الرئيسي للجزيرة الذي يحتشد برجال مالطا.. بدأت الخطة بتقدم القوات التي سبقتنا بمراقبة القصر بحصاره من الخلف مع وجود رجال أكفاء مدربة على التصدي والتعامل مع الكلاب الشرسة التي تملأ القصر مع إلقاء قنابل مسيلة للدموع لمواجهة رجال مالطا وشل حركتهم، وتمركز قوات من القناصة في حالة إطلاق رصاص علينا من سطح القصر مع وجود كشافات قوية في حالة قطع الكهرباء كرد فعل متوقع من الداهية مالطا، ثم اقتحام البوابة الرئيسية وأكون في المقدمة لدخول القصر، والانتشار بداخله، والقبض على رجال مالطا حتى نصل إليه.

تمت الخطة مع انطلاق دوي رصاص ينهمر علينا لكن القوات تقدمت، نجحت في السيطرة على الموقف وتطويق الرجال الموجودين بالطريق الرئيسي لمنع دعمهم لزملائهم.. قادتني قدماي لبهو القصر الفسيح بما يحمله من انبهار لروعة طرازه وتشطيبه مع وجود العديد من التحف والأنتكيات والأثاث الفخم.. صعدتُ إلى الطابق الثاني، ورجالي يقتحمون الغرف بقوة وشراسة يلقون القبض على كل من يقابلهم حتى اقتحمت غرفة لأجد رجلًا طويل البنيان يرتدي بيجامة من الحرير وجهه يحمل ابتسامة ساخرة يفتح ذراعيه مُرحِّبًا بجواره

سيدة ذات قوام ممشوق، بيضاء الوجه ترتدي روبًا خفيفًا.. انتابها رعب وهلع شديد، أشرتُ لرجالي بعدم التعرض لها إلا بعد ارتدائها ثيابها كاملة..

"أهلًا بسيادة الرائد باسل نورتني".

صاح أحد المخبرين إنه مالطه، انقضَّ عليه رجالي يرغمون أنفه في أرضية الغرفة ويضعون القيد في يده، ثم راح يهذي بكلمات تهديد، قد اتسعت عيناه الضيقتان من هول تلك المفاجأة:

"سوف تندمين يا حكومة، ومالطا لا يستسلم والبادئ أظلم، وقانون مالطا سوف يحكم في النهاية".

تم العثور في بدروم القصر على كميات لا بأس منها من مخدر الحشيش والبانجو والأفيون وحقن الماكس وشرائط الترامادول وزجاجات الخمر مجهولة المصدر.. رجال العلاقات العامة بالمديرية يقومون بتصوير القصر، والمضبوطات وكاميرا فيديو تلاحق مالطا، ورجالي يسحبونه بذلةٍ وهوان.

في الوقت نفسه هاجمت مجموعة من الجنود والعسكر البيوت الملاصقة للقصر وتم القبض على العديد من المجرمين وضبط كميات كبيرة من المخدرات.

على باب القصر استقبلنا ضوء الفجر زاهيًا بنسيمه الرطب الذي ينعش الجسد ويُعطي إحساسًا بالراحة.. نتجول مع روعة شروق

الشمس في حديقة القصر الشاسعة وبما تحويه من أشجار ونباتات نادرة تم تنسيقها بشكل هندسي بارع لنكتشف وجود أقفاص بها أسود ونمور.. إنها مملكة خاصة حقًّا.. مملكة مالطا.. استطعنا السيطرة على الجزيرة والقبض على مالطا ورجاله، ونقل المصابين في مراكب حيث تنتظرهم سيارات الإسعاف على ضفة النهر، بينما حضر على عجل مأمور القسم ومعه زملائي في القسم غير مصدقين.. يهنئون أنفسهم قبل تهنئتي بزوال جحيم مالطا حيث قامت حملات تزامنًا مع الهجوم على مالطا والقبض على أعوانه وتجار التجزئة في أنحاء المدينة وقرى المركز لتكون ضربة قاصمة لأباطرة المخدرات والبدء في إعلان المنطقة خالية من المخدرات.. يعطيني المأمور هاتفه للرد على مدير الأمن يصلني صوته منتشيًا وبنرة سعادة:

- ألف مبروك يا باسل أديت المهمة على أكمل وجه، والوزير شخصيًّا يبلغك تقديره وتقديره لجهدك العظيم.

في الصباح امتلأ القصر بكاميرات القنوات الفضائية والإعلاميين والصحافيين.. الكل يتسابق لتغطية هذا الحدث بجلاله وغرابته.. حاول كثير منهم إجراء حوار معي لكني اعتذرتُ بلطف.. فأنا لم أفعل إلا واجبي بينما بدا المأمور كطالب يقرأ حكمة اليوم في الإذاعة المدرسية منتشيًا بوجاهة الميكرفون.. ليس إعراضي عن الظهور الإعلامي مثاليًّا بل روح التميُّز لم تصلني بعد، فلم أحقق ما قلته لأماني ذات يوم بأنني سأصبح أميرًا وأرتدي معطفًا مُزركشًا كهذا الذي صورته حكايات جدتي.

بمجرد تشغيل الموبايل انهالت رسائل رجاء ظلت طوال الليل تكتبها شوقًا وقلقًا.. تترجى أن أرد عليها كي يطمئن قلبها.. حدثتها في طريق عودتي.. نبرة صوتها تتخضب بالعبرات المختنقة، ليتني كنت حكيمًا يُجيد علاج هذا الشوق، حتى والدتي لا ترحمني من التوبيخ، تسألني الرفق بقلب رجاء ولست لها برجاء.

***

تتسلل شمس الصباح في حنايا غرفة المكتب، ما زالت أصداء القبض على مالطا منذ أسبوع تُلقي بظلالها، وطوفان من التهاني ينهال عليَّ وقد بلغت شُهرتي مدى لم أكن أتوقعه.. أرتشف من فنجان القهوة والسيجارة بين أصبعي يخرج منها خيط دخان يمضي مسافة غير بعيدة ثم يتلاشى.. تأملته هكذا الشهرة تبدأ وهجًا قويًّا ثم تنطفأ تدريجيًّا.. أفقتُ على دخول النقيب إيهاب متجهمًا.. ملامحه تشي بأمر خطير.. انتابني قلق سألته عما به، اندفع بوجه ممتقع.

- النيابة أفرجت عن مالطا.

صُعقت، قد انعقد لساني، وتسارعت أنفاسي كأني بركانٌ يوشك على الانفجار.. ضربت بيدي على المكتب، تتناثر بقايا القهوة عليه ليستطرد:

- للأسف لعدم كفاية الأدلة ولا يوجد شيء ضده.

لم أحتمل قمتُ بركانًا ثائرًا، أهرول في الغرفة أصيحُ وقد انتابتني حالة من الهياج الشديد:

- كيف وكل هذه المخدرات التي ضُبطت في قصره؟ وسجله الإجرامي وآلاف الشباب الذين أطفأ زهرة شبابهم وخرَّب مئات البيوت والأسر.. القاصي والداني يعلم حقيقة مالطا.. الأمر لا يحتاج إلى أدلة وبراهين.. لقد نجحنا أخيرًا في القبض عليه ثم بكل سهولة نطلق سراحه.. كيف؟ غير معقول! و...

حُبس صوتي من شدة الانفعال والغضب ليقترب النقيب إيهاب محاولًا تهدئتي:

- اهدأ يا أفندم.

نظرت شزرًا إلى إيهاب أكاد أفترسه أصرخ:

- أي هدوء وكل ما فعلته يذهب هباء، وهذا المجرم ينتصر علينا، ومجهودنا كله كأنه لم يكن.

يرد إيهاب بأسًى وحسرة:

- جيش من المحامين كانوا معه في أثناء التحقيق حاولوا أن يشككوا في إجراءات الضبط والقبض عليه، لكن لما فشلوا أحضروا عقد ملكية يفيد أن القصر ملك شخص آخر وأن مالطا في ليلة هجوم الشرطة كان ضيفًا عنده والمخدرات تخصُّ مالك القصر ومالطا لا يعلم عنها أي شئ.. مالطا والمحامون استطاعوا أن يخدعوا النيابة، وكالعادة كل مرة أحد رجاله يشيل القضية.. للأسف حياتنا أصبحت كلها مالطا.

يكـاد عقـلي ينفجـر.. أتهـاوى عـلى أقـرب كـرسي، أُرجـع رأسي للخلف.. تنساب دموعي وشعور بخيبة الأمل ولقنوط.. تغيب الرؤيـة عن عيني.. لا أسمع ماذا يقول إيهاب.. أشرتُ له بالخروج، لا أودُّ هذا العالم بصخبه وضجيجه.. كرهتُ كل شيء ويئستُ من كل شيء.

لم أُفق إلا ويد المـأمور تربـت عـلى كتفـي، يـسألني عـن أحـوالي.. نظرت إليه مليًّا مُحاولًا استيعاب ما حدث.. أمسكت رأسي بكلتا يدي.. يتناهى إلى سمعي صوت المأمور مُشجعًا:

- أعلمُ مقدار حزنك يا باسل لكن هذا قرار النيابة رغـم أن الكـل يعرف وضوح الشمس أن مالطا هو صاحب القصر والمخدرات تخـصه لكن النيابة لها الورق.. أمثال مالطـا ومـن يعـاونهم يـستغلون القـانون لصالحهم.

نهضتُ من على الكرسي أقف منتصبًا، فوران غضبي يتصاعد:

- أمثال مالطا لا يجب معاملتهم بالقانون.. خطئي الوحيد أننـي لم أفرغ خزانة مسدسي في رأس هذا الحقير.

ظهر الفزع على وجه المأمور يردُّ مستنكرًا:

- ما هذا الهراء يا باسـل أنـت تعلـم حـدودك! ولا يمكـن لنـا أن نتعامل بهذا المنطق ولو فعلـت هـذا سـتضيع نفـسك ويكـون مـصيرك السجن.

ابتسمت بسخرية خشية أن أبكي:

- السجن! لا يهمني يا أفندم.. المهم أن أخلص المجتمع من قذارة هذا الملعون وأحمي الناس من شروره وايذائه لشبابنا.. إذا كان القانون عاجزًا عن التعامل مع مالطا وأمثاله من أباطرة الفساد والإجرام فلا قيمة لنا ولعملنا وعلينا ان نجلس في بيوتنا ونتركهم يواصلون العربدة وإفساد المجتمع.

- يبدو أن أعصابك متعبة وبحاجة للراحة.. اكتب على إجازة وسأوافق عليها فورًا.

اندفعتُ بحدة وإحساس بالمرارة.

- بل سأكتب استقالتي.

لم أسمع رد المأمور رغم صوته العالي المشحون بالغضب، فقد تراءت صورة صَابْحَة لترتعد فرائصي تزايد مع رنين الهاتف الأرضي لأرفع السماعة بيأس وحسرة:

- أهلًا يا باسل أنا مدير الأمن.

انتابني قلق واستجمعتُ كياني وحواسي ليخرج صوتي بكل أدب جمٍّ وترحيب:

- أهلًا يا أفندم، أتمنى سيادتك تكون بخير.. تحت أمر معاليك.

- وصلتني الأخبار أنك غاضب جدًّا بسبب الإفراج عن تاجر المخدرات، لك حق، وأنا شخصيًّا مستاء جدًّا وكل شريف في البلد لا

يعجبه ذلك، لكن علينا أن نحترم أحكام القضاء، وهذه جولة وهناك جولات أخرى لن يفلت منها هذا المجرم ومصيره يقع ونعتقله ويكفي أننا قبضنا على رجاله وكسرنا شوكته وسيطرنا على الجزيرة واستحالة أن يرجع لها مرة أخرى، وسوف نضعه تحت أعيننا، ونكون له بالمرصاد ولن يفلت في المرة القادمة.. أنت ضابط كفء ولك مستقبل كبير.. استمر في عملك بنفس الحماسة والجدية.

بشيء من الفتور يخالطه نبرة ذوق وكياسة ودبلوماسية تفرضها طبيعة العمل أرد:

- نحن ننفذ تعليمات سيادتك وكلامك يُعيد لنا الثقة، ونجاحي بفضل قيادتكم الرشيدة.

وضعت السماعة، رياح القنوط تعصف جسدي بموجات متلاحقة من الإحباط، أحدق إلى سقف الغرفة بلا أمل.. يغشى الضباب رؤيتي للغد.. ماذا أفعل؟ هل أستسلم وأهرب من الميدان بالاستقالة؟ فقد فشلت.. القانون سيفي لكن حقيقته انكشفت وبات سيفًا خشبيًّا انكسر مع دوي المواجهة.. أخبئ وجهي في كفٍّ يدي المخضبتين بالدموع.. يتراءى طيف صَابْحَة في ظلمة كفي، تجرجر ثوبها الممزق المصبوغ بلون الدم.. رفعت هامتي بذعر وبحركة لا شعورية فتحت الدرج الأسفل أستخرج ملف صَابْحَة.

ينتصب جسدي أمسك بالملف أهتفُ.. صَابْحَة معركتي القادمة.. التحدي الأكبر.. لن أترك دمها يذهب هباء، ولن يغفل لي جفن إلا بعد التوصل إلى الجاني وتقديمه للمحاكمة.

رفضت طلب المأمور بالحصول على إجازة.. كونت فريق عمل للبحث والتقصي من جديد ضم مجموعة من المخبرين ورجال الشرطة السريين والنقيب إيهاب وملازم أول رأفت معاوني المباحث لفتح ملف مقتل السيدة صَابْحَة بائعة السوق والتوصل إلى الجناة.

رأيت على الوجوه علامات الدهشة وخيَّم الصمت عندما أخبرتهم برغبتي القوية في معرفة الجاني قال أحد المخبرين بأدب وفضول:

- سيادتك صَابْحَة أنا أعرفها شخصيًّا وكنت أتعامل معها.. الله يرحمها كانت سيدة عندها طمع وطموح ومفترية تريد الاستحواذ على السوق بأكملها وتحارب أي تاجر أو بائع يقف في طريقها.

رفع مخبر ثانٍ يديه يستأذن في الحديث:

- لا يا أفندم صَابْحَة كانت من سيدة طيبة وحريصة على رضا ربنا في البيع والشراء ولأنها نجحت وحققت مكانة كبيرة نالتها سهام الحاقدين محاولين تشويه صورتها وإطلاق الشائعات عليها.

قلت:

- لنغلق باب المناقشة لكن اسمعوا رأيي: واضح ان صَابْحَة عليها اختلاف خاد ما بين مؤيد ومعارض، وما حدث لها يدفعنا لمزيد من

البحث والتقصي وسواء كانت صَابْحَة طيبة أو مفترية فنحن أمام جريمة حدثت، ودورنا الكشف عن لغز صَابْحَة ومعرفة الجاني ونبدأ من حيث انتهت التحقيقات السابقة.

رد الملازم رأفت:

- المحكمة برأت زوجها المدمن رغم أن كل الأدلة ضده.

نظرت ناحية النقيب إيهاب ليدلي برأيه فرد في حماسة:

- الغريب أن زوجها رغم ما تعرض له من تعذيب وتكدير صمَّم على رأيه بأنه لم يقتل صَابْحَة.

قلت متعجبًا:

- واضح أن هناك طرفًا آخر ويعلم مدى توتر العلاقة بين صَابْحَة وزوجها واستغل أنه قبل الحادث بيوم هجم عليها عنوة وأمام السوق كله محاولًا سلب نقودها لشراء المخدرات، لكنها كانت شرسة وقاومته ليحكي الحاضر للغائب عن ذلك فكانت فرصة للجناة للإسراع بتنفيذ جريمتهم.

صاح النقيب إيهاب مندهشًا:

- سيادتك تقول جناة وليس جانيًا!

طفرت على محياي ابتسامة ثقة:

- جريمة صَابْحَة لم يرتكبها شخص واحد، يقيني وخبراتي تؤكد أنهم مجموعة أرادوا التخلص منها لتحقيق أهداف ومنفعة لهم خاصة أنها لم تكن مجرد بائعة صغيرة ولها طموح كبير، وعلاقات متشابكة مع التجار وأصحاب المزارع وكلمتها تهز السوق كلها.

استطرد النقيب إيهاب:

- التحريات تؤكد أن صَابْحَة كانت ذكية جدًّا استطاعت في سنوات أن تتحول من مجرد بائعة جرجير إلى واحدة من أكبر تجار السوق، وكانت في طريقها للاستحواذ على السوق كلها.

رد الملازم رأفت مندفعًا:

- أعتقد هذه جريمتها أنها أرادت الاستحواذ على السوق كلها وتصورت أنه بمقدورها فعل ذلك دون رؤية واضحة ودراسة العواقب، ربما تفوقها في زمن قياسي أصابها بالغرور نوعًا ما وهذا كان ضد مصالح آخرين، فلم يسمحوا لها بذلك.

رد المخبر المتعاطف مع صَابْحَة بأَسًى:

- اسمح لي يا أفندم أن أقول نقطة لوجه الله: إن السيدة صَابْحَة كانت تسعى للخير دائمًا وتعطف على الفقراء، وتنفق على أسرٍ فقيرة، وتكفلت بأيتام وزواج فتيات أيتام وعلاج المحتاجين، وإلى الآن الناس تذكرها بالخير وتترحم عليها.

رد المخبر الآخر.

- للأسف لم تكن تفعل ذلك لوجه الله وكانت تسعى لجذب تعاطف الناس معها.. أنا سمعتُ أنها كانت تنوي أن ترشح نفسها في انتخابات البرلمان.

علت قهقهة النقيب إيهاب:

- نحن ندرس سيرة السيدة صَابْحَة وكأنها صَابْحَة العدوية.

قمت من على المكتب أدور حول المخبرين اللذين يقفان كصنمين، بينما نظرات إيهاب ورأفت تتجه صوبي.. ابتسمت وأنا أقف في مواجهة المخبرين أشير ناحيتهما أوجه حديثي إلى إيهاب ورأفت.

- هل تعلمون لماذا لم يتم التوصل لمن قتلوا صَابْحَة حتى الآن؟ بسبب هذين المخبرين كل منهما عندما كان يجمع معلومات وتحريات كانت له خلفية مسبقة عن صَابْحَة ووجهة نظر أحادية لا تقبل النقاش أو استيعاب الرأي الآخر وتقبله .. هذا يرى صَابْحَة طيبة وتمدُّ يدها بالخير وهذا يراها سيدة مفترية ولديها نهمٌ الاستحواذ والسيطرة.

ارتعدت فرائض المخبرين وقد اتسعت أعينهما هلعًا لأستطرد:

- وهذه جريمة أخرى لكن المشرع لم يضع لها عقابًا؛ لهذا مطلوب منهما التنحي عن العمل معي في استكمال مهمة البحث عن قتلة صَابْحَة وسوف أستعين بآخرين.

مَثُلَ أمامي زوج السيدة صَابْحَة استجابةً لطلبي باستدعائه ومناقشته.. يقف إزائي نحيل الجسد.. قصير القامة.. رأسه أصلع..

يقف مرتبكًا غير قادر على الاتزان.. تجاعيد كثيرة محفورة على صفحة وجهه العابس.. يقف مطرقًا بصمت وهوان.

أخرجت صورة كبيرة من الملف أطلب منه التحديق إليها.. يزداد وجهه تجهمًا، يرد بصوت مرتعش:

- صَابْحَة الله يرحمها ويسامحها.

ابتسمت بهدوء:

- لو سمحت ممكن تحكي لى عن صَابْحَة وعلاقتك بها.

اندفع هائجًا وتحوَّل إلى مرجل يغلي، يصيح ثائرًا:

- يا سعادة الباشا أنا قولت كل حاجة عن صَابْحَة واتبهدلت تحقيقات وأسئلة وضغط رهيب وذل وإهانة وتعذيب وأنا أقسم بالله بريء.. أنا صحيح ممكن أهدد بالقتل لكن أنا مجرد لسان استحالة أفكر في إيذاء أحد مهما يكن.. نعم أنا عاملت صَابْحَة بكل قسوة وجبروت، كنت أخطف منها فلوسها وأضربها وأشتمها لكن لم أكن في وعيي بسبب البرشام والحشيش وهي الله يسامحها السبب.

تساءلت في دهشة:

- السبب؟

بدا الإعياء الشديد عليه، أمرته بالجلوس، أعطيته سيجارة أشعلها بنهمٍ ليتحدث بنبرة وهنٍ:

- صَابْحَة بنت عمي كانت وردة وقطة مغمضة تقدمت للزواج بها، لكن عمي رفضني وفضل علي شخصًا آخر لأنه غني وعائد من العراق، لكن بعد فترة اتطلقت منه بسبب عجزها عن الإنجاب، ونزلت السوق تبيع جرجير وخس طلبتها للزواج مرة أخرى.. وافقت طلبت منها عدم النزول السوق، لكن أصرت على أن تظل بائعة وأنا وقتها كنت أعمل مشرف أنفار في مزرعة كبيرة ودخلي كبير لكن شرب الحشيش ضيعني وانفصلت من عملي.. تعلمت من الدرس وابتعدت عن الحرام وعرضت عليها أن أعمل معها في السوق، ونكون شريكين، لكنها رفضت وكل كلامها لي "أنت فاشل".. طول الوقت تعايرني اني فاشل ولا أنفع في أي عمل.. فقدت الثقة في نفسي وكرهت صَابْحَة والدنيا كلها.. طلبت من ناس تتوسط بينا لكي أساعدها في البيع في السوق لكنها لم تكن تكف عن توبيخي أمام الآخرين واتهامي بأني فاشل وصايع.. كان من الطبيعي أن أرجع لرفاق السوء والإدمان بصورة أشد، ولما كانت ترفض إعطائي فلوس كنت أضربها بكل قسوة وعنف.. وربنا كان لها بالمرصاد نهايتها كانت مخزية وفي الآخر يتهموني أني القاتل وأنا مستحيل كنتُ أفكر في ذلك أبدًا.

توقف عن الحديث لينخرط في بكاء مرير.. أسأله بحدة:

- إذًا ساعدنا في معرفة القاتل وقل لي: هل تشك في أحد؟ أو ماذا قالت لك صَابْحَة قبل مقتلها؟ حاول تتذكر.

نظر إلى مليًّا والدموع تملأ مقلتيه.

- لم تكن تحكي لي أي شيء.. هي من قبل الفجر تخرج بعد عودتي بساعة من المقهي كنت لا أراها إلا في السوق، وكان لها شبكة كبيرة من العلاقات صعب حصرها، لكن الحق يقال رغم ما بيننا من خلافات لكنها كانت شريفة عفيفة وقلبها طيب لكنها السبب ضيعتني وضيعت نفسها في النهاية.. ما المانع أن أكون سندًا لها وأساعدها وأحميها من الغدر؟ لكنها كانت عنيدة رفضت وجودي بجوارها.. أعتقد لو وافقت ما كانت نهايتها بهذا الشكل.

- ومن أين تعيش وتنفق بعد وفاة صَابْحَة؟

خَفَضَ رأسه وصمت لحظة بدا لي أنه فقد وعيه ثم رفع عينيه وقال بنبرة مكسورة:

- أنا فقدتُ الإحساس بالحياة، أنتظر الموت لا أفكر في شيء، لو قضمت لقمة ممكن أعيش عليها أيامًا.

- ومن أين تنفق على المزاج؟

تسارعت أنفاسه تتدافع الكلمات على لسانه:

- أنا بريء وتبت عن كل شيء.

- أين كنت لحظة وقوع الجريمة؟

قام معترضًا يصيح:

- أنا قلت كل شيء والمحكمة برأتني وموضوع وانتهى.

ضربت المكتب بيدي وغضبي يتصاعد بنبرة تهديد ووعيد:

- رد على الأسئلة دون لف أو دوران ليس معني براءتك أنك بمنأى عن التهمة، ربما نكتشف أدلة وقرائن تدينك وتؤكد أنك السفاح القاتل، ولنا وسائل نستطيع أن نجعلك تعترف.

راح يضرب رأسه ويعتصره بكلتا يديه متألمًا وباكيًا:

- ارحمني يا بيه أنا والله بريء.. أنا أعرف الوسائل جيدًا وذقتها هنا بمرارة وذل وهوان.. رجال القسم هنا عندهم ضمير في التعذيب، لكن لو أنا القاتل كنت اعترفت من زمان على الأقل أضمن حبل المشنقة يريحني من ذل الحياة ونظرة الناس لي.. البلد كلها تظن أني القاتل ونظرات الناس تحتقرني ولكن هذا ذنب صَابْحَة.. ربنا لا يرضى بالظلم لأني ظلمتها لما كنت بضربها وأسرق فلوسها، لكن هي ظالمة تركتني وحيدًا لم تستأمني على مالها وأقف في السوق أساعدها.. منها لله ضيعتني وضيعت نفسها.

استدعيتُ حجاج الذي جاء على عجل يدخل ببنيانه القوي ونظراته المرعبة وبمجرد أن رآه زوج صَابْحَة هاج وماج وأخذ يصرخ وانكب على قدمي مُحاولًا تقبيلها كي أبعد عنه حجاج، صحتُ وأنا أزجره وأركله كي يبتعد:

- لو أنت خائف من حجاج اعترف بكل شيء.

أشارت لحجاج بالخروج لينهض زوج صَابْحَة وجسده ينتفض رعبًا وهلعًا يصيح باكيًا:

- والله بريء ولم أقتل صَابْحَة.. أنا يوم الحادث كنت سهران كالعادة مع أصدقائي في القهوة.

- لكن حسب التحقيقات القديمة وتحريات المباحث أنك تركت أصدقائك الساعة الثالثة فجرًا والجريمة وقعت الساعة الرابعة.

رد بصوت متهدج ودموعه سيل لا ينقطع:

- أنا عدت إلى الدار مباشرة لم أجد صَابْحَة كالعادة فهي تخرج في هذا التوقيت مع جمال السائق ومجموعة من بائعات السوق للذهاب إلى الوكالة لشراء الخضر والفاكهة لبيعها في السوق من الصباح الباكر.

- لكن التحريات والتحقيقات أكدت أن جمال كان قد سافر الصعيد لأنه عمه مات واتفقت صَابْحَة مع باقي رفاقها على عدم الذهاب للوكالة في هذا اليوم.. إذًا لماذا خرجت صَابْحَة واتجهت إلى هذا المكان؟

ضرب كفًا على كف ثم راح يمسح العرق بيده من على جبينه محاولًا بلع ريقه.

- صَابْحَة لم تكن تحكي لي أي شيء.. نعيش في بيت واحد لكن غرباء عن بعض.. نادرًا ما كان لساني يخاطب لسانها.. هي كانت عنيدة ومغرورة.. لم تحتوِني وتنتشلني من الضياع الذي كنتُ أعيشه..

أمرت بإخلاء سبيله مع وضعه تحت المراقبة الشديدة، أمرت باستدعاء بعض التجار ممن له صلة وتعاملات مباشرة مع صَابْحَة، لم

أتوصل إلى شيء.. شعرت باليأس وشبح صَابْحَة يطاردني كأني القاتل.. ربما أكون لها أملًا كي أثأر لدمها لكن الغموض يحيط بالقضية، وصَابْحَة لغز كبير.

وبّخت فريق عملي على قصوره في التحريات، طلبت مزيدًا من البحث والتقصي وعدم الاعتماد على ما تم سابقًا.

رأيت أماني في منامي تلعب على ضفة النيل، تطير مع الفراشات.. داعبتها بابتسامتي الحانية لكنها لم تعبأ بوجودي.. تجاهلتني.. ناديتها.. ضحكت الفراشات، سخرت من لوعتي.. أماني تطير بخفة ورشاقة ثم ابتعدت تحلق مع الفراشات.. تنساب دموعي بغزارة، أماني تواصل تحليقها تعلو وتعلو حتى ابتلعها الأفق، وأنا أناجي النيل.. أسأله ربما يمدني بتفسير، لِمَ تبدل حال أماني وتعاملني بهذا الجفاء والجحود.. فجأة وجدتُ يدًا تجذبنب لكي أهوي في مياه النهر.. مياهه تبدلت إلى دم، والأفق قد بدأ يتخضب بنور خفي يثير الغموض والرهبة.

استيقظت فزعًا.. أفرُّ من فراشي.. أبحث عن نسمة تعيد اتزاني خرجت من غرفتي مُسرعًا لا سبيل يرشدني.. حتى هبطت الدرج مُسرعًا من استراحتي إلى مكتبي.. اقتحمه وأحد رجال القسم في أثري يتعقب خطواتي.. يصيح متسائلًا عن مكروه أصابني.. وجدتني في مكتبي بملابس النوم.. أشير إلى العسكري بالخروج وأن يدعني منفردًا.. أمسكت سماعة الهاتف الأرضي لم أدري أي رقم طلبته لكن جاءني صوت أم رجاء منزعجًا تقاوم نعاسها، سألتها بحدة عن رجاء،

وأن توقظها فورًا لأني بحاجة لمحادثتها.. تتساءل: ماذا حدث؟ أرد بغضب متنامٍ أن توقظ رجاء.

صوت رجاء تساءلني بقلب ملتاع عما حدث.. تنفست راحة، عاد إليَّ الهدوء نسبيًّا بمجرد سماع صوتها قلت بصوت متهدج:

- لا شيء كنت مرهقًا وبحاجة إلى سماع صوتك.

ضحكت بينما أسمع صوت أمها، تغمغم بضيق وتبرم لترد رجاء بعد صمت:

- اهدأ يا باسل أتمنى تكون بخير، مشكلتك أنك ترهق نفسك في عملك وتنسى أن لبدنك عليك حق، لكن أنا سعيدة جدًّا أنك لما شعرت بضيق فكرت في الاتصال بي.. لا أستطع وصف سعادتي بذلك.

- صَابْحَة جاءتني في الحلم.. بل كابوس يطاردني.

ردت بدهشة بالغة.

- صَابْحَة؟!

أمضيت ساعتين حتى حلَّ الصباح أحكي، أفضفض لرجاء عن صَابْحَة وحكايتها وملابسات جريمة مقتلها.. تنصت باهتمام وتناقشني.. تبدو في ذروة السعادة لأني فتحت قلبي وأشركتها في اهتماماتي.. وضعت السماعة، روادتني أفكار شتى استخلصتها من

حديثي مع رجاء.. حقًّا الحديث مع المرأة يجلب أفكارًا ويفتح آفاقًا للمعرفة.

اجتمعت مع فريق عملي لنضع خطة عاجلة يتم تنفيذها فورًا دون تسويف، بعد يومين من التفكير والتخطيط، وجمع مزيد من المعلومات والتحريات، ارتديت جلبابًا بلديًّا قديمًا وطاقية وشالًا مع وضع شارب مستعار .. أبدو بائعًا، النقيب إيهاب يحذو حذوي ليبدو مساعدًا لي أو الصبي الخاص بي بلغة السوق.. جلب لنا أحد المخبرين أقفاص مانجو وعربة يجرُّها بغل، اتجهنا إلى السوق تنفيذًا للخطة الموضوعة.

الغبار الرقيق يتصاعد من قلب السوق ثم ينعقد في بطء في أشعة الشمس ليزيد من قيظ الصيف مع زحام شديد، أصوات تتداخل على الرغم من أن الساعة تشير إلى الثامنة إلا أنه يبدو أننا جئنا متأخرين فالسوق يبدأ قبل السادسة.. اخترقنا الجموع وتدافع الناس.. مغامرة جديدة، شعور بالترقب والتوجس.. اتجهنا إلى موضع صَابْحَة ما زال ركنها خاليًا لم يجرؤ أحد على احتلاله.. وقفنا أمامه وإيهاب بكل همة ينزل الأقفاص لنفاجأ بصياح إحدى السيدات وهياجها تعترض وتستنكر ما نفعله، تبعها مجموعة من الباعة يحيطون بنا يتساءلون: ماذا نفعل ومن نحن؟ وعلينا أن نبتعد عن هذا المكان.

غريب أمر هؤلاء الناس، لقد فرح الكثيرون بمقتل صَابْحَة لكنهم ما زالوا على العهد يخافونها ولا يجرؤ أحد على الاقتراب من مكانها قلت بهدوء وبلهجة صعيدية وصوت أجش:

- يا اخوانا أنا قريب صَابْحَة جئت من الصعيد أبحث عـن رزقـي هنا وأنا أولى بهذا المكان من أي غريب.

دار حولي رجل يتفحصني ويحدق النظر إليَّ متسائلًا:

- صَابْحَة لم تقل لنا أي شيء عنك.. صحيح قالت مرة إن لها خـال سافر منذ زمن بعيد للعمل بمصنع الألمونيوم في نجع حمادي وانقطعـت الصلة به.

قاطعته بحماسة وأسًى ويدي تقبض على يد إيهاب.

- أنا ابن خالها وهذا صديقي بلدياتي.. الله يرحمها كلمتني قبـل مـا تموت أكثر من مرة أن أحضر هنا وأعمل معها وأنا كسول لكن لما ضاق بي الحال في بلدي قلت أحضر هنا وكلي أمـل في كـرمكم وعطفكـم أنـا أخوكم تقبلوا وجودي هنا.

اندفعت البائعـة المجـاورة لنـا تـصيح بـصوتها النـاعم وجـسدها المشوق:

- أهلا بمن يحمل رائحة صَابْحَة.

ثم تنظر للجمع تخاطبهم بحماسة:

- من واجبنا نحو صَـابْحَة أن نرحـب بأقاربهـا ونقـدم لـه العـون ورزقنا على الله.

ثم مدت يدها تـصافحني بـودٍّ وابتـسامة ذات رونـق تبعـث عـلى النفس راحة وبهجة:

- أنا جمالات كنت أنا وصَابْحَة أخوات ومن أقرب الناس إلى قلبي ولم نكن نفترق قط.

عيناها الكحيلتان بجلبابها المزركش وطرحتها السوداء تشعان ودًّا وجاذبية تعجز عن مقاومتها.. امرأة أربعينية.. تتحرك بخفة ودلال مظهرها يؤكد حرصها على الاعتناء به وسعيها أن تكون محط إعجاب كل من يراها.. حاولت إبعاد نظراتي عنها.. إنها امرأة ذات رونق وبهاء لم أفق من دوامتها إلا وقد انقلب الحال وبدأ الناس بمصافحتي والتعرف إليَّ كل يذكر اسمه ويعرض خدماته، بينما أقبل الناس والزبائن يفحصون بضاعتي ويشترون بكل سرور.

بينما راح إيهاب بجلبابه الفضفاض وطاقيته التي عوجها على رأسه بطريقة مضحكة يهتف راقصًا لجذب الزبائن ويده تلوح بالمانجو:

"تعالى عندنا الحلاوة كلها هنا.. وخلي الغلابة تاكل مانجه.. خلي الغلابة تاكل مانجه".

مطلع الظهيرة، وصل زوج صَابْحَة، يتمايل ويهتز جسده النحيل، يحدق إليَّ وأنا أتجاهله.. يحاول فتح حوار معي لكنني منشغل بالبيع لا أعطيه أي اهتمام حتى جلس بجواري، ثم تحدث إلى إيهاب يسأله عن صلة القرابة بيننا وبين صَابْحَة فأشار إيهاب ناحيتي ليسألني بكل حدة لكني واصلت تجاهلي حتى أمسك بيدي وقد انقلبت تعبيرات وجهه إلى ابتسامة عريضة يصيح مرحبًا بي فهززت رأسي، أبادله الابتسام ليجذبني من يدي - يتنحى بي بعيدًا عن صخب الناس.

- أنا زوج المرحومة صَابْحَة وسعيد بوجودك هنا وأنا تحت أمرك في أي شيء لكن لي طلب صغير عندك ممكن تسلفني خمسين جنيه لأني مريض والدكتور كتب لي على ورشتة وليس معي فلوس؟

ضحكت بسخرية وقلت:

- ليس معي يا ابن عمي نحن أول يوم وعلى باب الله.

رد يكتم غيظه:

- لكن ما شاء الله الحال عال العال والزبائن يزداد عددهم.

تركته واتجهت أنادي على بضاعتي وأتناقش مع الزبائن لينـدفع يعترضني.

- اسمع هذا مكان صَابْحَة ولن أسمح لأحد بالوقوف فيه ولو مصمم يبقى تاخذه إيجار وكل يوم تدفع لي عشرين جنيه.

دفعتُه بعيدًا عني حتى كاد يسقط لينهمر لسانه بالسباب وسيل من الشتائم، يتوعدني فأمسكته من تلابيب ثيابه أخنقه بقوة:

- ألا يكفيك أنك قتلت ابنة عمتي؟ هل تريد قتلي أيضًا؟

اندفع محاولًا التخلص من قبضتي يصيح؟

- أنا لم أقتل أحدًا لكن صدقني القاتل كان أرحم بها مني.

تدخل بعض الحاضرين لفض الاشتباك ونجحوا في تخليصه من بين يدي ليفر كالفأر المذعور، يسبُّ ويواصل وعيده وتهديداته بينما

جمالات تنظر إليَّ مبتسمة بزهو وفخر.. تشير إليَّ بعلامة النصر.. ما زلت أتأملها لا أنفك عن أسرها.. ذات بشرة بيضاء وعينين واسعتين تزيدها نضارة وحسنًا.. جسدها بضٌّ ينبض أنوثة وجاذبية بجوارها زوجها شاب يبدو أصغر منها سنًّا.. طويل القامة ذو وجه مستطيل يبدو مخبولًا من كلامه وحركاته.. موضع سخرية من الناس بينما جمالات تستحوذ على كل شيء.. القيادة والسيطرة.. لا أخفي إعجابي بها خاصة أنني كلما نظرت ناحيتها أجدها تبتسم لي في دلال حتى إيهاب لاحظ ذلك فهمس في أذني مبتسمًا: "فعلًا جمالات وليست جمال واحد!".

مع مجيء العصر، بدأت الحركة تخف، وأعداد الناس تتناقص في السوق، جاءت جمالات تحمل لفافة.. وجهها يشع بهجة تقول ضاحكة تقدم لي ما تحمله:

- واضح أنكما لم تتناولا طعامًا منذ حضوركما هذا الصباح.. هذه سندوتشات من صنع يدي ويقال من ياكل من يدي يحبنى وهذه مقولة المرحومة صَابْحَة ربنا يرحمها وينتقم ممن حرمنا منها.

انتهزت فرصة أنها جلست بجواري على فرشة بالية وذكرت صَابْحَة بينما انشغل إيهاب في مساومة زبون على كيلو مانجا سألتها بخفوتٍ ولغة العيون بيننا تتوهَّج:

- بصراحة صَابْحَة كانت محظوظة أن لها جارة في السوق بهذا الجمال والنشاط والهمة.. واضح أنك بائعة - ما شاء الله -شطارة وجمال.

توردت وجنتاها وابتسامة صافية تزين ثغرها المرسوم بدقة.

تميل ناحيتي تهمس بدلال ورقة:

- لهجتك صعيدي لكن ملامحك وأسلوبك لا يدل على ذلك.

ضحكت وأنا أقضم السندوتش أتلذذ بطعمه:

- والدتي أصولها من بحري وأنا شخص تعلمت أن أحترم وأقدر الجمال.

تتنهد تبدو منتشية تمعن النظر ناحيتي.

- الله كلامك حلو يا.... صحيح لم تقل اسمك.

- اسمي رمضان.

تضحك في قهقهة ساخرة ليغمز لي إيهاب متعجبًا.. أسألها: هل اسمي به شيء أثار ضحكاتها؟ لتقول:

- لا، لكن أسلوبك مختلف عن صَابْحَة أنت ذوق ولسانك حلو لكن قريبتك كانت أسلوبها حاد وجاف جدًّا في التعامل، لكنها كانت صريحة تقول ما في قلبها.

سألتها باهتمام:

- ولماذا ماتت.

ارتجفت وبلعت ريقها وأنا أتابعها بدقة ترد ساهمةً:

- لا يوجد غيره.. زوجها الله يلعنه وأنت رأيت ما فعله معك منذ قليل وفرحت لما رديت عليه بعنف كي يخاف منك ويعمل لك ألف حساب لأنه رجل سكير وحشاش كان يخطف فلوس المرحومة يسرق عرقها وينفقه على المخدرات.

أردُّ بأسًى وحزن:

- لكن المحكمة برأته وما زال يعربد ويفعل ما يحلو له.. هل لديك دليل أنه قتل صَابْحَة؟

اضطرب صوتها لحظات قبل أن تتماسك وتهم بالنهوض:

- لا أعرف شيئًا ولما المباحث سألتني اتهمته صراحة لأنه الوحيد الذي كان على خلاف معها وطامع في فلوسها.

ثم تركتني وانصرفت وعينا إيهاب تراقباننا.

حل الليل وانفض السوق، وقد نفدت بضاعتي، وربحت، وجمالات تجمع حاجاتها بمساعدة زوجها.. تزجره وتسبه وتعامله بسخرية حتى أولادهما يقلدون أسلوبها.. أتابعها.. ترسل لي نظرات وابتسامات متبادلة ثم اتجهت ناحيتي تسألني:

- هل لكما مكان تنام فيه أنت وصاحبك؟

سؤال مفاجئ ارتبكت لحظة ثم قلت:

- نحن غريبان وهذا أول يوم لنا وسوف ننام هنا على الأرض.

تضحك، تغمز بعينيها:

- اتفضل معنا بيوتنا مفتوحة وأنتم ضيوف حتى تجدا مكانًا لكما.

هرشت ركن شاربي أتأملها قبل أن يتلعثم صوتي:

- ألف شكر على كرمك يا ست الكل ونراك غدًا على خير.

- وماذا تنوي أن تفعل غدًا. من أين سوف تشتري مانجا. هل هناك تاجر معين تعرفه؟ ما رأيك تأتي معنا الوكالة مثلما كانت تفعل صَابْحَة وتشتري مانجا وعنب وجوافة وتين وتتوسع في تجارتك؟

تميل ناحيتي تبتسم بدلال ورقة تهمس:

- وفرصة تتعلم أسرار العمل هنا.

قلت وحمرة الخجل تلاحقني:

- عندك حق وأكون خليفة صَابْحَة.

تبدلت ملامح وجهها تصيح:

- صعب يكون فيه خليفة لصَابْحَة لأنها كانت ذكية وقوية وحادة الطبع وأنت إنسان كلك ذوق وشهامة.

فجأة يظهر رجل عابس ضئيل الحجم، ذو شارب كث يرتدي جلبابًا فضفاضًا وشالًا أبيض، وجهه عريض، يُرمقني بنظرات مريبة وغاضبة يصيح بحدة مخاطبًا جمالات بدهشة:

- غريبة أنك إلى الآن في السوق وزوجك وأولادك مشوا من فترة.

تلتفت إليه بفرح:

- أهلًا يا جمال تعالَ أعرفك إلى رمضان قريب صَابْحَة وسيخرج معنا إلى الوكالة غدًا.

تنظر ناحيتي، بريق ابتسامتها يزداد بهاء، تشير ناحيته:

- جمال السائق.

بادلني نظرة عدم ارتياح.. بدا وجهه صلدًا كئيبًا كسماء ليل خلا منها القمر والنجوم.

القاتل

تحاصرني الظنون.. شعور خانق بالخوف يطاردني، شبح صَابْحَة لا يكفُّ عن محاصرتي.. أتمدَّد عاريًا بجوار جمالات وقد أخذتها النشوة إلى غفوة.. أتأمَّلها وكأني لم أرها منذ فترة طويلة، ترتدي قميص نوم ستان، بالغ الإثارة، يبرز مفاتنها، يزيدها حُسنًا وبهاء.. ما أروعها! أدمنتها والشوق لا يبارحني.. منذ أن رأيتها في السوق وردة زاهية جذبتني بأنوثتها وروعتها.. توددت إليها بادلتني الشوق والعشق.. لم نقوَ على اللوعة والحرمان مع جهدنا في إخفاء لوعة الشغف، والهيام أمام الناس في السوق.. اخترنا مكانًا بعيدًا عن الأعين يكون جنة لغرامنا، نسكب فيه آهات الحرمان ونتذوق طعم العشق، نروي عطشنا، نطفئ نار أشواقنا المتأججة في سرية، بعيدًا عن أي فضول.. لكن منذ الليلة المشئومة رأيت النور وغشاني وهج البصيرة لأشعر بندم شديد وخوف يحطمني.. وخيال صَابْحَة لا يكفُّ عن ملاحقتي أينما أكن.. حاولت الفرار لكن إلى أين. وجمالات تهزأ بي.. تسخر من هلعي.. تصفني بالجنون.. كم حاولت الذهاب إلى النيل كي أرتمي بين أحضانه ليخطفني الموت لكني خائف من عذاب الله فأنا آثم وذنوبي عظيمة، وفي الدنيا حجيم عذاب السنين وتأنيب الضمير بينما الجحيم الأكبر والأشد هناك عنده من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.. كم

حاولت التراجع، والامتناع عن جمالات لكن الشوق يُجذبني يجعلني أنغمس أكثر في الحرام فلا تراجع، ولا توبة.. يقيني أن العواقب وخيمة ونهايتي مخزية وأن الستر نعمة لن تدوم .. حبها الجارف يبعث في قلبي قلقًا مبهمًا.. تفتح عينيها ببطء يغشاها ضوء النور.. تموج ابتسامتها بدهشة وحيرة تتثاءب وتتساءل عن سر نظراتي.. يعلو الغضب وجهي.. تبادلني نظرة جامدة.. تنهض مسرعة تتساءل عن الوقت فلقد تأخرت على زوجها في السوق وتخشى أن يرتاب في الأمر.. ضحكت في سخرية اعتدل لأجلس على طرف السرير.

- أبعد كل هذه السنوات يشكُّ الرجل. أنت ذكية يا جمالات لأقصى درجة ولا يمكن كشفك بسهولة.

تسحب ثيابها بحدة تتساءل:

- إذُا لماذا أنت غاضب هكذا؟

نهضتُ أقف إزاءها منهمكة بارتداء جلبابها.

- من غير لف ودروان السبب معروف.

تبادلني نظرة شرزاء أمسك غطاء رأسها قبل أن تمسكه كي تنبته لي فتجذبه بعنف تصيح.

- لا أحب الألغاز اتكلم بصراحة.

قلت محتدًّا:

- علاقتك مع الغريب الذي ظهر فجأة وادعى أنه قريب صَابْحَة تُثير الشكوك يا جمالات.

تعدل من وضع غطاء رأسها في المرآة تهتف بغضب:

- لا أسمح لك بالحديث في هذا الموضوع علاقتي عادية بالرجل وهو في قمة الأدب والاحترام ولا أنت تظن ان كل الرجال مثلك عيونهم زائغة!

أقف خلفها أرد محاولًا تهدئتها وبنبرة تحمل الرجاء:

- يا جمالات نحن نمشي بستر الله لا نريد فضائح وأنت تعرفين ماذا أقصد.. شبح صَابْحَة لا يفارقني ينغص عليَّ حياتي.

تنهض تتجه ناحية الباب:

- خوفك هو الذي سيفضحنا ويكشف كل شيء لو كنت أعرف أنك إنسان مهزوز ما فكرت في فعل ما حدث، أما صَابْحَة فقد ماتت وانتهت وخيالك المريض يصور لك الوهم كي تعيش في خوف وقلق.

وقفتُ أعترضُ طريقها:

- الموضوع مصيبة ولا بد أن نأخذ حذرنا.. أرجوك ابتعدي عن الغريب منذ قدومه من أسبوع وأنت دائمًا بجواره تضحكين معه بصورة لافتة وأخشى أن العلاقة بينكما تتطور ولسانك يتفوه بكلمة أو أن يعرف أي شيء.

اندفعت بغضب شديد:

- اخرس أنا أعلم حدود علاقتي بأي شخص، ولست مثلك تلهث وراء أي واحدة.. ولو خائف إلى هذه الدرجة اقطع علاقتك بي ويكون أفضل لا أحب الرجل الجبان.

وضعت يدي على رأسي أعتصره بدموع حارقة:

- قطع العلاقة بينا ليس حلًّا لم يعد ينفع لأن مصيرنا واحد وفي مركب واحد وربنا يستر علينا.

تخرج مندفعة توصد الباب خلفها بعنف.. تتركني وحيدًا أتخبط في أفكاري.. أغمض عيني من فيض الدموع.. أفتحها فلا أرى إلا ظلامًا وعتمة شديدة.. شهقت وفركت عيني كي أرى لكن لا شيء سوى الظلام.. فجأة أبصرتُ السرير بحيرة من الدم تسبح فيه صَابْحَة.. البحيرة تتسع وتفيض ناحيتي.. أتراجع خطوات للخلف أصرخ لأصطدم بكرسي وأسقط مغشيا عليَّ.

***

عدتُ خلفها إلى السوق.. اصطدمتُ بالصورة كما توقعت.. تقف مع الغريب يتبادلان حديثًا حميميًا كما يبدو من هيئتهما.. بينما زوجها يقف على مقربة منهما أهطل وغافلًا لا ينتبه لما يحدث، ولا يأخذ بيد زوجته يوبخها على تصرفاتها.. لعنة الله عليه هو السبب! ترك لها الحبل على الغارب.. أعطاها حرية دون حساب لتستغل ذلك أسوأ

استغلال.. ليته لاحظ تقربي إليها وتوددي ناحيتها.. ليته نهرها ومنعها من الحديث معي.. لو فعل ذلك لكانت أمور كثيرة تغيرت.. لكنه مسكين حظه السيئ في زواجه من امرأة لعوب وقعت بين يدي، وأنا ذئب يبحث عن الشهوة والنزوة.. تمادينا في الفجور حتى لم تعد الجريمة مجرد علاقة آثمة.. صارت دمًا.

لم أحتمل ما يحدث إزائي.. حركتني مشاعر الغيرة لأتجه صوب جمالات أصيح فيها أن تذهب لتساعد زوجها لترمقني بنظرة حادة تحمل كل صنوف الغضب.. عادت إلى عملها وقبل أن يتحرك الغريب سألتُه بتوجُّس أتفحصه وأتبين ملامحه جيدًا:

- من أين أنت من الصعيد؟

ردَّ بثقة مفرطة:

- من نجع حمادي يا ابن العم.

هززتُ رأسي والشكوك تساورني:

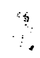
- لكن هيئتك ولهجتك المفتعلة لا تدل على ذلك.. أنا صعيدي الأصل وقادر على تمييز الصعيدي الأصيل ولهجة أهل قناة نجع حمادي مختلفة.

علت ضحكاته بصورة مستفزة يرد بسخرية:

- أنا صعيدي هجين أمي من بحري وكانت دائمة الخلاف مـع أبي الصعيدي فكانت أمي تغضب وتأخذني إلى أهلها في حـري بمعنـى أنـا نصف بحري ونصف صعيدي.. بعد إذنك عندي شغل يا ابن عمي.

تركنـي وسـط غـضبي ومقتـي الـشديد لـه ومـا زالـت الـشكوك تحاصرني والخوف يتعاظم بداخلي.

باسل



رحلة شائقة ومغامرة مثيرة تلك التي تبدأ قبيل الفجر.. نتجه إلى الوكالة.. عالم آخر مليء بالحكايات وأروع الروايات.. تجار من كل حدب وصوب، مزادات ومساومات للبيع والشراء والشاطر الذي يستطيع التعامل وجلب ما يريده وبسعر يحقق له الربح المنشود.. بورصة مصغرة لكنها مليئة بالأعاجيب والحيل والفهلوة أحيانًا.. لم تدعني جمالات كانت دومًا خير رفيق تدعمني وتعلمني وتنقل لي خبراتها.. حاولت أن أعدل من أسلوبها في التعامل بما يحمله من دلال واهتمام زائد أثار فضول البعض حتى جمال السائق لا يكفُّ عن النظر نحوي بازدراء.. فقد حدث أمر مغاير ربما يكون سببًا لنظرته.. في اليوم الأول ركبنا سيارة جمال ربع النقل.. جمالات بجواره وأنا وباقي الرفاق في الصندوق الخلفي لاحظت أن العلاقة قوية بين جمالات وجمال طوال الطريق لا يكفون عن الضحك وتميل ناحيته وربما تضربه بيدها بشيء من الهزار، والمودة المبالغ فيها.. الأمر مريب نظرتُ إلى الرفاق وجدتُهم يغطون في نوم عميق لكن في طريق العودة والعيون يقظة التزمت جمالات الجدية والشدة، لكن في اليوم التالي صعدت جمالات إلى جواري في الصندوق تاركة جمال، وقد احمرَّ وجهه غضبًا وغيظًا مكتومًا.

جاءني أحد المخبرين ممن يعملون معي كأنه زبون يهمس في أذني بعد أن طالبته بمراقبة جمالات خاصة أنني لاحظت أنها أحيانًا تغيب عن السوق في منتصف النهار بحجة الذهاب إلى المخزن.. المخبر يحمل أخبارًا مثيرة.. جمالات تلتقي جمال في كشك خشبي داخل حوش السكة الحديد خلف إحدى عربات القطارات القديمة المتهالكة، الواقفة منذ سنوات بعيدًا عن الأعين.

سألتُ جمالات عن سر تغيبها قالت بشيء من التردد:

- كنت في المخزن.

- لكنك تذهبين لا تحملين شيئًا وتعودين كذلك.

تضحك وتغمز بعينيها:

- ما رأيك تذهب معي غدًا إلى المخزن تساعدني في حمل بعض الأقفاص.

ابتسمتُ أهزُّ رأسي بالموافقة بينما عينا إيهاب لا تكفُّ عن مراقبتي.

في اليوم التالي بعد الظهيرة وحسب اتفاقي مع جمالات أشارت لي خُفية لأخرج تاركًا إيهاب وحده يبيع، أسير في أثرها.. دخلت محطة السكة الحديد.. تسير على الرصيف لنهايته.. تعبر الشريط الرئيسي لشريط القطار ثم تسير على خط فرعي يبدو مهملًا يعلوه الصدأ.. على جانبيه أخشاب وقطع حديد بالإضافة إلى قطع من الفلنكات المتناثرة حتى وصلنا إلى عربة قطار قديمة يبدو أنها منذ سنوات طويلة لم يقترب

منها أحد تختفي خلفها جمالات.. لأسرع كي ألحق بها.. وجدتها تقف أمام كشك خشبي تخرج المفتاح وتفتح القفل الحديدي.. تشير إليَّ كي أتبعها وأدخل، بمجرد دخولي أغلقت الباب بإحكام.. في المقدمة مجموعة من الأقفاص المتراصة ثم تدلف في طرقة تنتهي لتجد إزاءك سريرًا صغيرًا وكرسيًّا ومنضدة.. على الحائط قميص نوم أحمر مثير، مُعلَّق على الحائط بمسمار.. خلفي جمالات تهمس بصوت يحمل إثارة ورقة متناهيتين:

"نورت المخزن يا رمضان".

تمسك بيدي ليرتعش جسدي كأن ماسًا كهربائيًّا سرى.. شعرت بالرهبة وجمالات تسحبني لنجلس على طرف السرير.. وجهها يحمل ابتسامة صافية تهز القلوب والمشاعر.. سألتها محاولاً بلع ريقي بصعوبة:

- لماذا جئنا إلى هنا؟

اقتربت نحوي برقة ودلال تداعبني بابتسامة حانية ذات غنج:

- أنا سعيدة أني معك يا رمضان.. هذا المكان استراحة لي من زحمة ودوشة السوق.. مكان الروقان وبصراحة أنا معجبة بك، أنت إنسان شهم وابن بلد وفوق كل هذا حلو وملامحك جميلة تتمناها أي امرأة.

تأملتها بنظرات تحمل الرغبة.. همت بها جوارحي مع هيامها بي.. كياني لا يتحمل.. جسدي خلق من ضعف.. يتفصد العرق مني.. ابتلعت ريقي.. لم أرَ جمالات بل خيل إلى وجه أماني الشاحب والوهن

أصابها في تلك الليلة المشئومة التي غادرت دار جدي إلى المشفى ولم تعد حتى الآن.. تذكرت من أنا.. الدافع الذي جعلني أتحول إلى بائع.. تذكرت القتيلة صَابْحَة ليعود وجه جمالات كأنه بقعة سوداء أصابتني بالنفور، تضع يدها فوق يدي لأسحبها كأن حية لدغتني.. تبدى دهشتها لرد فعلي لأرد بجفاء ومحاولة للخروج من قيدِها:

- لكن أخشى أن يحضر زوجك في أي وقت.

ترد ضاحكة تلتصق بي وتتعلق بذراعي:

- انسَ أي شيء وتعال نعش هذه اللحظة الحلوة.

تلتصق بي أكثر تمدُّ ذراعيها لتعانقني لكني قمت متأهبًا.. تزداد دهشتها.. على وجهها علامات استفهام، تلتمع عيناها بنظرة غريبة نظرت إليها مليًا محاولًا مقاومة إغرائها والفكاك من شَرَكِها، فأنا روح ومشاعر وضعيف.. بحثت عن وجه أماني مرة أخرى كي ينقذني أو حتى صَابْحَة كي ترعبني لكن حصار جمالات يشتدُّ، صِحتُ بقوة:

- أقدر إعجابك وحبك لي لكن أخذت على نفسي عهدا ألا أستمتع بحياتي إلا بعدى التوصل لقاتل صَابْحَة.

يظهر الغضب على وجهها تقف تكاد تلتصق بي ترد:

- انسَ صَابْحَة.. هي قضاء وقدر وصعب توصل للقاتل.

رمقتها بنظرة شكٍّ أستفسر عن كلمتها الأخيرة.. اضطرب صوتها وظهر عليها الارتباك لتهرب بنظراتها ترد تحاول استعادة توازنها:

- أقصد أن البوليس بقدراته وإمكانياته فشل في معرفة القاتل يبقى صعب نعرف نحن.

أهمسُ في أذنها تلمع عيني بنظرة حادة:

- هل يمكن أن تساعدني في معرفة أي شيء عن هذا الموضوع خاصة أنك كنت أقرب الناس إلى صَابْحَة وأسرارها كلها معك خاصة وأنك في أول تعارف وجهتِ اتهاماتك لزوج صَابْحَة المخبول.

أهتفُ فاردًا ذراعي وكأني أستعرض على مسرح:

- حلمي يا جمالات أن أعرف القاتل حتى يستريح عقلي وضميري وأنعم معك بدفء الحب وروعة الغرام معك لكن أهم شيء أعرف قاتل قريبتي.

تتراجع خطوات تبدو كأنها تتخبط فاقدة الوعي.. لتلقى بنفسها تجلس على السرير لا تنبس بكلمة.. اضطرابها زاد من شكي ناحيتها قررت إلقاء قنبلة في وجهها، أنتظر ردَّ فعلها فقلت بصوت أجش.

- إلا إذا كان لك يد في قتلها.

تجحظ عيناها وتُصعق لردي ثم تصرخ وتقذفني بالوسادة بحركة فجائية وغريبة:

- اخرس يا ابن الكلب واخرج منها.

ضحكت لرد فعلها ألاطفها وأنا اتناول الوسادة من على الأرض.

- امرأة بجمالك وروعتك معقولة لا تُجيد الهزار.

تنظر نحوي بريبة وشك تتسارع أنفاسها، تعض أناملها بشيء من التوتر تأمرني بالخروج وعدم العودة إلى هنا سألتها بنبرة حانية في محاولة لمزيد من الضغط عليها:

- ماذا حدث يا قمر؟ أنا أريد مساعدتك.

التفت الناحية الأخرى تهرب من نظراتي تهتف بغضب شديد.

- قلت لك لا أعرف واخرج من هنا يبدو أني أخطأت.

ثم تلتف ناحيتي تبرق عينيها وعيدًا وشرًّا:

- لكن احذر أن تحدث أحدًا عن هذا المكان أو تعرفه بأنك جئت معي هنا وإلا...

تصمت برهة، تلوح بيدها وأردفت:

- سوف تلحق بقريبتك وساعتها اسألها مَن فعل بها هذا.

أخرجُ أقهقه وقد غنمت من تلك الزيارة بمعلومات وملاحظات خطيرة بينما تركت جمالات تتخبط في أفكارها.

عادت جمالات إلى السوق تتحاشى النظر نحوي..تتجاهل وجودي، سألني إيهاب ماكرًا.

"هل ما زال العِنب حصرمًا؟"

ضحكت أغمز بعيني ناحية جمالات:

"العنقود استوى والعصفور حدد مكانه، مسألة وقت لا أكثر".

في اليوم التالي خرجنا إلى الوكالة تعمدتُ الجلوس بجوار جمال.. في طريق عودتنا وعند مدخل المدينة والسيارة تهدئ من سرعتها لعبور أحد المطبات، اعترض طريقنا زوج صَابْحَة، يسب جمال، يسأله أن يعطيه مالًا لكن الأخير بصق في وجهه لينقض الرجل يوجه لكمة إلى جمال من النافذة، وبحركة فجائية يخطف الهاتف المحمول من على تابلوه السيارة ويفر مُسرعًا ليترجل جمال من السيارة يصيح غاضبًا محاولًا اللحاق به لكن الرجل اختفى وعاد السائق بخفي حنين يضرب كفًّا على كفٍّ وقد سُرق الهاتف أمام عينيه.

مَرَّ يوم.. لم يأتِ جمال في موعده لنذهب إلى الوكالة.. اختفى أما جمالات تبدو متوترة لا تكفُّ عن الشجار مع الزبائن، وشتم زوجها وضرب أولادها.. يبدو أن خطبًا عظيمًا تخشاه.. فجأة اختفت، وزوجها كلما سأله أحد عنها يؤكد أنه لا يعرف، حضر مجموعة رجال يهمسون في أذنه وأحدهم يُطلعه بشيء على الهاتف، ليعلو صوته هائجًا، يغمغم بكلام غير مفهوم، ثم يُسرع خارجًا من السوق.

جاءني المخبر على عجل يصيح غير مصدقٍ:

- المدينة كلها انتشر فيها فيديو جنسي لجمالات مع السائق جمال.

يأمرني بفتح خاصية البلوتوث ليرسل لي الفيديو الذي انتشر كالنار في الهشيم وقد تم نشره على إحدى صفحات الإنترنت وصار حديث

الصباح والمساء في المدينة.. لحظات وحضر زوج جمالات في ثورة عارمة وهياج شديد يحيط به مجموعة من الرجال يأمر أولاده بالعودة لمنزلهم ثم يسكب النار على خيمة جمالات بما فيها من بضاعة وأقفاص يشعل فيها النار يسب زوجته ثم راح يهذي بكلمات غير مفهومة والناس تتزايد، حضرت لمشاهدته وسط دهشة وغمز ولمز.

اتضح أن الفيديو كان على هاتف جمال الذي خطفه زوج صَابْحَة بالأمس، وقام ببيعه بسعر بخس لأحد الأشخاص الذي اكتشف هذا الفيديو فأشاعه ونشره في المدينة كلها.

شاهدتُ الفيديو يصور لقاء جنسيًّا مقززًا بين جمالات والسائق جمال في الكشك الخشبي مدته لا تتعدى الثلاث دقائق وتصوير بجودة سيئة .. ويبدو أنها على علم أن عشيقها يصورها.. لكن الخطير والمثير في نهاية الفيديو ما قالته جمالات وهي تهم بارتداء ثيابها:

- الحمد لله أننا تخلصنا من صَابْحَة وابتزازها لنا.. كانت تريد خراب بيوتنا لكن خوفك ممكن يضيعنا.

عدتُ إلى القسم مُسرعًا، تخليت عن تقمُّص دور البائع.. تم فتح ملف القضية من جديد لكن لا أثر لجمالات أو جمال اختفيا بمجرد انتشار الفيديو.. أمرت بالبحث عنهما بدقة وسرعة لا بد من القبض عليهما.. لقد صدق حدسي وأن جمالات وعشيقها وراء مقتل صَابْحَة، لكن لماذا؟ وما السبب الذي جعلهما يقدمان على ذلك؟ هذا ما ننتظره منهما عندما نعثر عليهما.

استدعيت زوج صَابْحَة للمثول للتحقيق من جديد سألته:

- لماذا خطف الهاتف المحمول من السائق. وهل كان على علم بوجود هذا الفيديو المسجل عليه؟ وهل كان على علم أن جمال وعشيقته جمالات اشتركا في قتل صَابْحَة؟

ردَّ بزهو وفخر:

- أنا لي وجهة نظر في الناس وبصراحة حذرت المرحومة صَابْحَة منه ومن الملعونة جمالات لكنها لم تكن تسمع كلامي وتقول إنه طيب وجمالات بنت حلال.. لكن جمال بعد مقتل صَابْحَة كان دائمًا يعطيني فلوسًا وأحيانًا يدفع لي ثمن المشروبات على القهوة لكن في الفترة الأخيرة حدث شجار بيننا بسبب لعب الطاولة ورفض يعطيني فلوسًا أو يدفع حساب القهوة ومن يومين كنت قد ذهبت للسهر والمبيت عند صديق لي في مدخل المدينة شاهدته عائدًا من الوكالة فطلبت منه فلوسًا لكنه رفض وأصر على إهانتي فضربته وخطفت الموبايل وأنا لا أعرف ما به واشتراه مني أحد الجالسين على القهوة وقام بتشغيله واكتشف هذا الفيديو المشين وفضح جمال وجمالات لكن لم أكن أتخيل أنهما يقتلان زوجتي.

- في اعتقادك ما السبب الذي جعل جمال وجمالات يقتلان صَابْحَة كما واضح في حديث جمالات في نهاية الفيديو؟

يهز رأسه بأسًى.

- الحمد لله الذي أظهر الحق وظهرت براءتي وفضح المجرمين وألصق بهم العار والخزي.. تخيل يا بيه الله حليم ستار ما الداعي أن تعصي الله في السر وتتصور لتفضح نفسك بيدك.. فعلًا الله يمهل ولا يهمل ولا يرضى بالظلم والقاتل مهما يظل بعيدًا عن أعين العدالة ربك له بالمرصاد وله يوم مشهود كما حدث الآن و...

قاطعته بحدة وحزم:

- رد على السؤال مباشرة.

- لا أعرف يا باشا.. صَابْحَة كلها أسرار وكانت علاقتها بجمالات قوية وبينهم تعاملات كثيرة وجمال هو السائق الذي كان يأخذهم للوكالة.

تم استجواب زوج جمالات.. يبدو غير متزن عقليًّا، لكن اتضح أنه الزوج الثاني، فقد تزوجت جمالات في البداية ببائع في السوق وأنجبت منه ولدًا وبنتًا لكنه مات لتتزوج هذا يصغرها بسنتين، تنجب منه ثلاثة أولاد لكنهما لم يكونا على وفاق بجانب شخصية جمالات القوية واعتدادها بجمالها وسيطرتها على كل شيء.

اختليت بنفسي في المساء، أداعب سريري الذي افتقدته الأيام الماضية في سبيل صَابْحَة.. تتراءى إزائي صورة جمالات.. ينتابني حزن كبير على هذا الجمال وتلك الريحانة التي أهلكت نفسها بأن انغمست في الحرام وضيعت كل شيء.. لماذا يضيع الإنسان نفسه... تترقرق الدموع في عيني.. أحاول طرد أفكار تراودني.. لا يمكن التعاطف مع سفاحة..

ليتني ما ذهبت للسوق وتعرفت إليها.. أتذكر بهجة ابتسامتها وروعتها ونحن معًا.. كانت فيضًا عذبًا من عشق الحياة والإبحار في جنان الغرام.. امرأة أحبتني ورأتني جديرًا بعشقها.. تمهلت في تفكيري، وبخت نفسي.. كيف أضعف وأراها هكذا وقد اتضحت كل الحقائق.. ربما ظروفها لكنها امرأة لعوب كانت على علاقة جنسية مع السائق، حاولت أن توقعني في شباكها، وأكون عشيقًا لها يبدو أن حياتها سلسلة من العلاقات الشائنة، اتخذت من الكشك وكرًا لملذاتها.. قمتُ غاضبًا أنظر إلى هيئتي في المرآة.. أواصل مناجاتي:

إنها لا تستحق أي شفقة من تنغمس في الحرام، وتدنس شرفها ولا تراعي حُرمة الله ولا تحفظ زوجها في غيابه، ثم تُلوِّث يدها بالدم، لا تستحق سوى الموت.. لكنها مخلوق ضعيف لماذا نرجمها هكذا؟ مَن يدرى ربما تشملها توبة من الله.. لكن ماذا عن الدم. قاتل نفسًا بشرية هل له من سبيل للمغفرة؟

انتابتني نوبة سعال وصدري يتمزق من أثر النوم في الشارع وقلبي يدق كالطبل الأجوف.. رفضت إحضار طبيب.. ألمي لا دواء له.

رجاء تحدثني، تطمئن عليَّ.. وجدت الحزن يغلف صوتي.. أحتاج لمن أفضفض له عن جمالات لكن حقًّا هل تصدقني رجاء ولا تحركها غيرة النساء.. فضلت الصمت لا يمكن البوح حتى أمي لن تستوعب وزميلي النقيب إيهاب الشاهد على الأحداث لن يقدر أن ينصت إليَّ، سوف يتعامل بفكر رجل الأمن لا بقلب عاشق أضناه الهوى.

هناك مشاعر لا تحتمل البوح.. تظل حبيسة القلب وكأن جدتي تصيح: "تعالَ يا ولدي، انتهت الحدوتة، فقد مات الأمير وهربت الأميرة".

غلبني نعاس خفيف وبين النوم واليقظة يهتف قلبي:

"لا تبكِ على حلمٍ وُلد ميتًا".

الصباح بنوره الفياض يحمل البُشرى.. نجحت شرطة النقل والمواصلات في القبض على جمال في أثناء محاولته الهروب بركوب قطار الصعيد من محطة مصر بالقاهرة.. خبر سعيد ومنعش.. ننتظر ترحيله وقدومه إلينا لكن لا أثر أو معلومات عن اختفاء جمالات وأين ذهبت والمكان الذي اختفت فيه.. لم تكن حياتها سوى داخل حيز المدينة والسوق تحديدًا.. صلتها بأقاربها شبه معدومة حتى زوجها فر من المدينة وترك بيته والأولاد هربًا من نظرات الناس والعار الذي يلاحقه.. لم يحتمل تندُّر المستهزئين وسخريتهم.. لكن النقيب إيهاب وجَّه إليَّ سؤالًا قويًا، يفتح آفاقًا جديدة وألغازًا محيرة حسب التحقيقات والتحريات الموجودة بملف القضية يتضح أن جمالات ليلة مقتل صَابْحَة كانت محجوزة بمستشفى الحميات وسجلات المرضى تؤكد ذلك.

أما جمال وبشهادة أقاربه فقد كان موجودًا بالصعيد للعزاء في وفاة عمه.. هل هناك طرف ثالث.؟ يبدو أن قضية صَابْحَة لا تودُّ الالتئام لتظل جرحًا لا يندمل، لكن حتمًا القبض على جمال غنيمة كبرى وكنز

سوف يكشف الستار عن كل غموض، ويوضح الحقائق كاملة وجمالات ليست بمنأى عنا حتمًا ستقع بين أيدينا وتُقر بكل شيء.. أبشري يا صَابْحَة ولتفرحي، فدماؤك لن تذهب سُدًى، وثأرك لن نتهاون فيه.

وجع في قلبي يناوشني لا يكفُّ عن الإلحاح.. كيف لك أن تواجه جمالات عند القبض عليها. هل تنتصر الصرامة والحدة كرجل أمن على كونك رأيتها نجمة بازغة تشع بهجة ومأساتها تكمن في ضعفها.. لكن كل الأشرار ضعفاء خضعوا لشهواتهم ونزواتهم، لكن ماذا عن قلوبنا التي لا تهوى سوى حبٍّ هشٍّ غير جدير أن نفكر فيه ونعطيه مساحة يشغلنا.

رنين الهاتف المحمول يعلو، اسم رجاء على الشاشة، يأتي صوتها رقيقًا تسألني عن الأحوال.. أحاول إنهاء المكالمة لكنها تبدو منزعجة على غير العادة تسألني عن قرار. وأنا عقلي مشحون.. تنفجر باكية فقد تقدَّم إليها عريس يطلبها للزواج.. والدتها موافقة، رجاء تنتظرني كي أكون شفيعًا لها عند والدتها.. لا وقت لديَّ لمثل هذه الأمور الآن.. التسويف سبيل حتمي لا مفر.. فكري يلوح في عتمة الضباب يستكشف نورًا يبصر روح صَابْحَة وقنص جمالات.. رجاء تنهي المكالمة وصوتها خفيض متهدج مختنقة العبرات وخيبة الأمل ثمرة حنظل تتجرعها بكآبة وسأم.

أعددتُ العدة لمواجهة جمال والتحقيق معه لكن إيهاب دلف إلى مكتبي حزينًا بوجه عابس لا يحمل سوى الصمت سألته بضيق عن حاله.. حاول الحديث لكن ارتعاشه صوته تؤكد أن مصيبة وقعت، انتصبت قائمًا أزفر في وجهه كي يتحدث قال بصوت متهدج:

- جمال انتحر.. قاموا بترحيله إلى مديرية الأمن ووضعه في الحجز وفي أثناء إنهاء إجراءات ترحيله إلى هنا غافَلَ الجميع وقام بقطع شريان يده.

صُعقت، شعرت بدوار وتشوش في الرؤية لأهوي على الكرسي مسلوب الإرادة، عاجزًا عن النطق.. غَشيني ظلام وإعصار من الهموم والأحزان ينتابني قنوط، تجتاحني آلام تعصف بكياني غير مصدق، ربما أوهام تناوشني ثم رأيت وجه صَابْحَة يلوح لي في العتمة تحدجني بنظرة تهيم حائرة، عقلي تجول به أفكار ثائرة.. أرسل بصري في الظلام خائفًا فزعًا.

رجاء

تحملق أمي في عيني متألمة، نبرة صوتها تعلن التحدي:

- اسمعي يا رجاء أنا أمك وأعلم بمصلحتك لو كان هذا الضابط المغرور والمتعجرف يحبك ويريدك كان جاء وطلبك للزواج لكنه يراوغ ويماطل وأنت ساذجة وبلا كرامة.

غلبتني دموعي أصيح بأسًى.

- ظروف عمله تحتم عليه الانتظار وهو وعدني أنه سيأتي في الوقت المناسب.

قطَّبت ما بين حاجبيها مستغربة:

- وإلى متى الانتظار. أنا لا يمكن أوافق على هذا الوضع وأنت لا يمكن أن تجلسي هكذا في انتظار سيادته.. مهما كانت الظروف لا يمنع أنه يحترمك ويقدرك ويحفظ صورتك أمامي، لكنه أناني لا يفكر في الزواج ولا يريد تحمُّل أعبائه.. هو شخص فاشل وسبق له الزواج، أما أنت تنقصين من قدرك ونفسك بهذه الطريقة المهينة.

هاجت في نفسي ذكريات أليمة وحبي الضائع، ويقيني أني امرأة سيئة في الحب لا نصيب لها من السعادة، بينما تواصل أمي حديثها المُزعج:

- وحتى لو تقدم لك سأرفضه لأنه لم يحترمنا ويماطل وغير جادٍّ أو أمين.

صرختُ بألم وضيق:

- كفى يا ماما، بالعكس باسل إنسان محترم وأمين جدًّا وحبه الشديد لعمله يفرض عليه أن ينسى نفسه وسعادته.

صاحت أمي بثورة عارمة:

- اقطعي صلتك به وأنا وافقت على العريس، ولا أريد النقاش في هذا الموضوع واستعدي سيأتي مع أهله لكي نتفق على الخطوبة والزواج.

قمت ثائرة أصرخُ ومتجهة لغرفتي وصوتي يحمل اعتراضًا شديدًا:

- لن أتزوج إلا الشخص الذي يختاره قلبي.

دخلت الغرفة أوصد الباب بعنف وضجر.. أتصلُ على باسل لا يرد.. أعاود الاتصال مرات متتالية حتى جاء رده بصوت غاضب وناقم يصيح بثورة عارمة لم أكن أتخيل ردَّ فعله:

- ماذا تريدين الآن؟ ولماذا إصرارك الغريب على الاتصال وأنا ليس لديَّ استعداد لسماع أي أحد.

صمتُّ برهة محاولة استعادة تركيزي غير مصدقة ما يقوله، أردُّ بصوت هادئ:

- خير يا باسل اهدأ يا حبيبي لا تعكر مزاجك، هل هناك شيء حدث لكي تتضايق لهذه الدرجة؟

ازدادت ثورته وهياجه الشديد:

- لا وقت للكلام الآن، قلت لك لا أريد سمع صوت أحد.

- حتى أنا حبيبي؟

صراخه يخترق أذني يكاد يصيبني بالصمم.

- كفي برودًا، أنت إنسانة مستفزة، وأنا لست مستعدًّا لمهاتراتك.

كاد الهاتف يهوي من يدي، لا أستوعب ما يقوله، لكن صدمتي اشتدت مع غلقه الخط.. انفجرتُ أبكي ويعلو نواحي ألعنُ الحبَّ وهذا الضعف.. كرهتُ ذاتي والعالم كله.. ألا يكفي أنني أحمل مشاعل الحب؟! تاهت أحلامي وغربت آمالي.. أرى سوادًا مقيتًا يُحاصرني.. لِمَ يا قلب تفعل بي كل هذا؟ والبشر جهلاء بالحب عجزوا عن إدراك روعته، وأضحى بستانًا ربيعًا دائمًا تتلألأ فيه الورود ويتراقص فيه النسيم وتغرد الطيور لكنه بلا جدوى وسط عالم أعمى أصم فاقد الإحساس.. ما فائدة جمالك وسط هؤلاء تموت كمدًا ويأسًا وغدًا يبصرون ليجدوا خرابًا والقحط يملأ الأركان، فيجلسون في سرداق عزاء الفقد والندم يبكون، يندبون حظهم، يتمنون ما كان لكن بعد فوات الأوان.

ألوم نفسي وأُوبِّخُها: لماذا لم أرد عليه وأصفعه بكلماتي كما فعل كـي يفيق؟ يدرك قدره ولن أعـش في فلكـه، أتـضرع في محرابـه فمـن أطفـأ شمعة لن يهتدي يوما بنور القمر.

تتوالى خيباتي وانكساراتي.. ربما لا أجيد فنَّ الحب ومهـارة القـرب من الحبيب.. بالأمس ضاع هشام وانتهت أسطورة عشقنا.. حتى باسل لا يطيق لي صوتًا ويستمر طغيانه في تجاهلي..

باسل

لا تأتي المصائب فرادى، تجتمع لتجثم على القلب كجبل راسخ عسير أن يتزحزح، بينما ألوم نفسي على قسوتي وقلة ذوقي وأسلوبي الجاف والحاد مع رجاء.. لا تستحق كل هذا الجفاء مهما تبلغ ضغوط عملي وصدماتي لا ذنب لها.

يأتي بلاغ بعثور مجموعة من الصيادين على جثة امرأة طافية غريقة في النيل، وأنها تخصُّ المتهمة جمالات من خلال تعرف بعض الأهالي إليها.

نزل الخبر علينا في القسم كالصاعقة.. لحظات كئيبة لا أقوى على استيعاب ما يحدث.. تلمع عيني بالدموع والأمل يتلاشى في جُبٍّ عميق.. رأيت أماني على قارب صغير يسبح على سطح ماء ساكن، يطل من عينيها نظرة حالمة.. أودُّ الوصول إليها والمضي معها لكنها تبتعد، دموعي تتساقط كحبات مطر على صفحة الماء الذي اضطرب فجأة وظهر الهلع على وجه أماني، أناديها مع محاولتي الغوص في الماء لكن قدمي راسخة لا تتحرك والقارب يغوص وتذوب ملامح أماني تحت الماء.

أُقرِّر الذهاب بنفسي لمعاينة جثة جمالات ومناظرتها.. شعور غامض يدفعني نحوها، والحزن يسكن القلب الذي يدق بشدة، كل

الأمور ساءت وحتمية الفشل سبيل لا مناص منه، الأحداث المؤلمة تصفعني بشدة في غمار أفكاري المضطربة يسألني النقيب إيهاب القابع بجواري:

- الآن نغلق ملف صَابْحَة بعد أن قرر الجناة القصاص من أنفسهم بالانتحار.

أجبتُ والكآبة ترنُّ في نبرة صوتي:

- هل تعتقد أن جمالات وجمال هما فقط الجانيان؟! لديَّ يقين أن القائمة تطول، ألم تقل إن التحقيقات والتحريات أشارت إلى وجودهما في أماكن بعيدة عن وقوع الجريمة؟

وصلنا إلى ضفة النهر حيث ترقد جمالات يحاصرها صخب الأهالي وزحامهم، يجمعهم الفضول وعلامات استفهام كبيرة تناوشهم.. الخفراء يفسحون لنا الطريق.. أتقدم بخطوات تائهة وحائرة.. شيخ الخفراء يشير ناحية جسد ممدود مغطى بأعواد حطب وحصيرة.

تأملتها بحزن عميق.. يغشاني ضباب جعلني أنسى لِمَ جئتُ هنا.. تراءت بسمتها وجمالها الفتَّان.. دنوتُ منها.. شعرتُ برجفة شديدة.. أكشفُ وجهها.. أصطدمُ بعينيها المفتوحتين.. هالني ما آلت إليه انطفأ جمالها وتبددت نضارتها إلى وجه منتفخ وتبدل لون بشرتها البيضاء إلى بُني فاتح يثير الهلع.. انسابت دموعي، وهاجت ذكريات الأمس القريب يوم التقينا في الكشك الخشبي بروعتها وجمالها الذي يفيض

بهجة ويشعُّ حسنا وبهاء.. ما زال صدى صوتها العذب يتردد في أذني تنادي باسمي المستعار.

"رمضان"، حتى فوران نشاطها في السوق مع وهج ابتسامتها وفيض اهتمامها يثير شوقي.

لكن الآن تبدَّد كل شيء، انهارت معانٍ جميلة، بات السراب رفيق كل رحلة نتجرع مرارة الصدمة.

يد النقيب إيهاب تربت على كتفي، يشعر بألمي وسِر حزني.. يخامرني الوجع ومرارة الفقد.. أتحسر على ما آل إليه حالها.. جمالات الزهرة الندية ذات الحسن والجمال دنست روعتها وانساقت وراء شهواتها لتهوي في الوحل وتختم حياتها بالخزي والعار، وتختار الانتحار وسيلة للهروب من قسوة الحياة، وما جنته يداها.

عدتُ ثائرًا، أفتح ملف صَابْحَة أقرأ كل حرف بتمعُّن شديد ربما أصل إلى شيء لكن لا شيء.. هناك شريك آخر وربما يزيد لأكثر من شخص ارتكبوا جريمة قتل صَابْحَة، حتمًا قادمون إلى الوقوع والسقوط بين أيدينا، من كان يظن أن جمال وجمالات ضمن المتهمين بقتل صَابْحَة.

***

تتوه الأفكار وتتزاحم المعاني ويزداد قلقي وتوتري.. في خضم ذلك أجلس على مكتبي، وملف صَابْحَة مفتوح على مصراعيه وصورتها تتصدره كأنها تقف في مقاعد المتفرجين تشجع اللعبة الحلوة..

يعلو رنين الهاتف الأرضي أرفع السماعة بسأم ورتابة أردُّ بشيءٍ من اللامبالاة.

- ألو..

- أهلًا يا رمضان كيف حالك؟

أفتح فيَّ دهشة وتعجبًا وقد انعقد لساني لتواصل حديثها بصوتها العذب الرقيق:

- معقولة نسيت اسمي يا حضرة الضابط؟

استجمعتُ قواي، أصيح ويدي تقبض على السماعة بقوة وتحفُّز:

- أهلًا يا جمالات.. أين أنت؟

تصمت لحظات كأنها تلتقط أنفاسها قبل أن تردف:

- هذا همُّك يا سعادة الضابط رئيس المباحث.. خدعتني والآن تسألني أين أنتِ. كي تقبض عليَّ وتواصل مجدك وترتقَّى لرتبة وترقية أعلى وتسلمني بكل فخر إلى حبل المشنقة.

- جمالات لا داعي لهذا الكلام من مصلحتك تسلمي نفسك طواعية وصدقيني سأقف بجانبك لتخفيف الحكم عليك.

- أرجوك اسكت.. ما زلت مصرًّا على خداعي أنا لم أهرب من الفضيحة ولا العار لكن هربت منك.. كيف أقف أمامك تستجوبني وتحقق معي وتجبرني على الاعتراف على جريمة قتل صَابْحَة رغم أنني ليلتها كنت مريضة ومحجوزة في مستشفى الحميات.

- ما دمتِ واثقة ببراءتك وأن يدك نظيفة من دم صَابْحَة تعالي وسأقف بجانبك لإثبات تبرئتك.

- لا يا حضرة الضابط لن أخدعك مثلما خدعتني وسأقول لك الحقيقة قبل نهايتي التي اخترتها.. أعترف لك وحدك وبعيدًا عن المحاضر والرسميات بأنني ضمن مجموعة اشتركت في التخطيط لقتل صَابْحَة، لن أفصح إلا عن نفسي، سوف تسأل عن سبب الجريمة لأن صَابْحَة كانت إنسانة جشعة دائمًا تضايقني وتخطط في الخفاء لإقصائي من السوق، فقد كانت تغار من جمالي ونجاحي وكي ترسم صورة ايجابية كانت تظهر لي الود والمحبة أمام الناس وتمدح في صفاتي وتردد أنني أختها، وأقرب الناس إليها، وعندما اكتشفت حقيقة علاقتي بجمال هددتني بالفضيحة، وبدأت في ابتزازي وتحولت إلى كابوس في حياتي وتفرض على جمال أتاوة فلم يكن هناك حلٌّ أمامنا سوى التخلص منها بأي طريقة بعد أن توحشت وفشلنا في ترويضها.. شريك آخر في الجريمة استغل جشعها وطمعها خدعها وأقنعها بأن هناك صفقة شراء محصول البطيخ من عدة مزارع وبه تضمن السيطرة على السوق وفرض السعر الذي تريده لكي تحقق أرباحًا طائلة صدقته وخرجت معه قبل الفجر وفي سرية تامة كي تضمن نجاح الصفقة، لكنها لم تكن تعلم أنها مؤامرة على حياتها وكمين لاستدراجها والقضاء عليها.

- ومن شركاؤك غير جمال؟ أرجوك تكلمي يا جمالات، لا داعي للسكوت وإخفاء جزء كبير من الحقيقة.

تضحك ساخرة:

- قلت لن أتحدث إلا عن نفسي ودورك أنت كضابط شاطر وكفء تكشف وتعرف بقية الجناة يا رمضان.. أسفة يا حضرة الضابط.. الآن استراح ضميري وصممتُ على الاتصال بك لا تعلم كيف حصلت على رقم القسم وعرضت حياتي للخطر! أردتُ ألا أتركك في حيرة وكي أودعك يا.... يا أحلى رمضان.. رغم أننا لم نعرف بعضنا إلا أيامًا فإنك كنتَ إنسانًا طيبًا رائعًا لكن لم أعمل بنصيحة أمي عندما كانت تقول إن من يقترب من الشمس يحترق، وتحذير جمال منك.

- جمالات لا حل أمامك إلا تسليم نفسك وهذا يصبُّ في مصلحتك لأنك مهما يطُل الوقت مصيرك إلينا.

تواصل ضحكاتها:

- قلت لك لا يمكنني الوقوف أمامك لهذا قررت الرحيل.. صدقني أنا لست امرأة سيئة، لكني كنت أبحث عن الحب والحياة، اخترتُ طريقًا خطأ ليضيع كل شيء في النهاية.. وداعًا يا رمضان.

إلى هنا وانقطع الاتصال، وكان ذلك قبل انتحارها بثلاثة أيام وتركتني في حيرة أشد ولم أدرِ هل أذكر ذلك وهل سيفيد القضية أم لا؟ هل لديك جواب لما يجول بداخلي؟ أجلس راقدًا على سريري في الاستراحة أفضفض إلى إيهاب أبثُّ إليه ألمي وهمي فقد أصابني وهن

شديد وتعب جسيم بعد العودة من معاينة جثة جمالات.. لم أقوَ على الاستمرار أصبتُ بدوار.. أحضروا الطبيب الذي أوصى بضرورة الراحة التامة من جراء الإعياء.. والمأمور منحنى إجازة عشرة أيام.

غدًا في الصباح سوف تأتي سيارة تقلني إلى بيتي في مدينة السادس من أكتوبر كي أستريح من عناء العمل.. ربما تصيبني ريح النسيان، ويغادرني شبح صَابْحَة رغم أن ملفها ما زال مفتوحًا لكن حتمًا سوف يتساقط الجناة تباعًا مثل أوراق الخريف، ولنا في جمال وجمالات العبرة.

***

ترفض رجاء الرد على اتصالاتي.. من حقها أن تتضايق وتنزعج لردي، لكنها دائمًا تلتمس لي الأعذار وتُقبِل نحوي، تنسى كل جفاء وإساءة.. الآن تصرُّ على الهجر والابتعاد.. غضبها غير مفهوم عليها أن تقدر ضغوط عملي التي تجبرني على مسارات ضد طباعي، وسماتي الشخصية.

أعادتها أمي إلى طبيعتها بعد تدخلها وسعيها الحثيث وإزالة أي سوء تفاهُم بيننا لكن رجاء وضعت شرطًا بإيعاز من أمها أن أتقدَّم إليها رسميًّا، وعلى استعداد للانتظار كيفما أشاء.. أمقت هذا الأسلوب.. شيء غريب تلك المساومة في مرحلة أمر بها، عقلي مشوش، غير متزن، والصدمات تلاحقني، تعكر صفو حياتي.

أمي تدافع باستماتة عنها، تؤيد وجهه نظرها.. قررت الهروب إلى أين لا أدري. أبتغي عالمًا مغايرًا، أستعيد توازني، أتنفسُ هواء نقيًّا، أُلقي

عن كاهلي همومي، أمسح ما مَرَّ بي من مواقف في الفترة الأخيرة وخاصة منذ انتقالي إلى تلك المدينة الغريبة التي تعجُّ بالتناقض، وترفض عالمي.. تعيش عالمًا موحشًا والقلق يُخامرني، يأبى الخنوع.

فكرت، تفتقت في ذهني الذهاب إلى هناك.. حيث عاشت أماني.. عند بيت جدي على ضفاف النيل، لكنه غير النيل الذي اختارته جمالات كي تغسل خطاياها وتلفظ الحياة بنهاية مخزية ومؤلمة.. ربما هناك أجد طيب الحياة وطعم السعادة، وأعود طفلًا يلهو لكن هاتفًا يُردِّد بداخلي:

"لا جدوى من الهروب والعودة إلى أرض الأماني .. لا فائدة من إذكاء الروح بأمل كاذب".

لكني تعلَّقت بالفكرة.. في الصباح الباكر أشقُّ طريقي وسط ضباب، يرسم ملامح البؤس واليأس.. لا أحد يعلم وجهتي.. البحث عن الحياة غايتي، وأمنية للهروب من تعاستي.. الحنين يغلبني إليها.. أماني هذا الأنين الراسخ في قلبي وأحلامي تشبه هذا الضباب دمعًا يسري بلا جدوى.. تتراءى صورتها.. يهتزُّ مقود السيارة في يدي، أهتفُ:

"أماني، إليك قادم".

دموعي تتناثر كندى الصباح على أناملي المرتعشة والطريق إزائي يمتدُّ بلا نهاية عبر حقول تفرش اللون الأخضر، وتبعث في النفس التفاؤل المفقود، تُحيي الأمل الضائع.

وصلت إلى قريتنا الصغيرة، والشمس تشق طريقها وسط الغمام، تنظر نحوي كأنها تتساءل: لماذا جاء هذا بعد كل هذه السنين؟! ترجلتُ من سيارتي.. أسعى وسط الأزقة أبحث عن رفاقي.. لكن وجوهًا غريبة ترقبني.. حتى التراب تبدد، والبيوت الطينية اختفت.. وأبراج الحمام لا أثر لها.. أهيم متعبًا ولم أُعر السائل اهتمامًا.. غريب أنا ضاقت به الحياة، وأوراق الشجر الذابلة لا تجيب عن أسئلتي.. هنا كانت شجرة التوت نتسلقها في الربيع ونهزُّها كي تفيض بثمارها اللذيذة، أين ذهبت؟ ولماذا لا يجود الزمن بما مضى؟! اختفى النخيل وسط غابة من البيوت الخرسانية الجوفاء، تشبه امرأة دميمة ينفر منها الرائي.. وصلتُ إلى شاطئ النيل أناجيه كي يدعني أبلل حزني بما تفيض به عيني، لكن يبدو صامتًا بلا روح ضاعت هيبته، تلاشى جماله، اندثرت روحه وابتسامته، حاصرته تلال من التراب، ومخلفات المباني والقمامة، مياهه بدت سوداء تفوح منها رائحة كريهة.. جئتُ إليك شاكيًا لأجدك جسدًا بلا ورح حتى دار جدي بما كانت تحويه من فناء كبير وحجرات واسعة لم يعد لها وجود، قُمست إلى مجموعة من المنازل الصغيرة الخرسانية بلا روح أو ثمة جمال.. لا شيء يؤكد أنني عشتُ هنا.. جدتي كانت تحكي عن الجدود الذين ماتوا والآباء الذين سيموتون، لكنها لم تذكر أن عبق المكان يتلاشى والأرض سوف ترتدي حلة تمحو الماضي، وتندثر معها كل روح جميلة.... أتطلع بعيون دهشة لعلي أتذكر أماني بوجهها الملائكي تعدو، وتفيض روعة، توزع الابتسامات، وتغرد مع الطيور، تدعوني كي أشاركها اللهو وأنا أرسم وجهها على الطين عندما ينهمر المطر.. عاجز كأني فقدتُ الذاكرة كل شيء تبدَّل فكيف نتذكر الوجوه!

ليتني ما عدتُ لا يمكن أن تعود روح أماني هنا، فالورود لا تُشترى من محارق القمامة.. حتى الأقارب غرباء لا صلة بيننا.. مات الأعمام، وبقي الأبناء جُزرًا منفصلة ومنعزلة، ربما يطالعك أحدهم من غير موعد، يقتحم حياتك لمصلحة يلتمس نفوذك لقضائها وعند الانتهاء لا تراه مُجددًا، ويُمحو من الذاكرة سريعًا لذا لا جدوى من طرق باب أحدهم كل الأبواب موصدة، يقبع خلفها وحشة وصمت كالقبور.. لا أحد ينتظرك أو لديه متسع للترحيب بك.. رحم الله الجود وشيم العطاء والمنح رحلت مع جيل الآباء.. جف خبز جدتي.. شيء ما يهتف بقسوة في داخلي:

"عد حيث كنت.. لا تبتغِ التبتل في حنايا معبد مهجور، فقد جفَّ الودُّ برحيل الأحباب".

انطلقتُ إلى هناك حيث التل المرتفع، والقبور تتراصُّ في صمت كئيب، سكون يحمل معاني مؤلمة وحقائق مفزعة بينما نباح كلاب القرية تعوي على البعد كأنها تنوح.. أخترقُ هذا الأمان الموحش حتى وقفت أمام قبر جدي وأبي في حرقة دمعي أتطلع إلى ذكريات تتلاحم، وتتدافع كأنها تنبش الماضي كي تزيد في النفس الألم، والحسرة إلى ما كان وتلاشي.. هذه الأجساد بما كانت تحمله من نبض وحيوية وحبٍّ للحياة، وغريزة البقاء، أصواتها التي تضجُّ بها الحياة وسعيهم الحثيث للكفاح.. كل شيء إلى لا شيء الآن.. حوتهم القبور واندثروا.. في عليائهم الموحش ربما ينظرون نحوي بسخرية ينتظرون قدومي لأبقى

معهم في الخلود، نندم على عمرنا الذي ضاع في هذه الحياة بـلا جـدوى سوى أننا تصورنا اللغط حياة.. أتضرع إلى الله لهم بالرحمـة ..ربـما يـأتي من بعدي مَن يُذكُرُني، ويترحم ويتذكر شيئًا مـن فـضلي إن كـان هنـاك فضل.

بكيتُ وعلا نواحي أمام هذا القبر الصغير هنا وضعت أماني زهرة ندية لم تعرف الحياة بعد.. هذا الغارق في الصمت والسكون يحوي براءة أماني وابتسامتها.. وضعوها هنا لأعيش وحيدًا شريدًا أفتقدها.. أبكيها العمر حتى ينقضي.

يومًا ما سوف يهزمني الموت لكي نلتقـي لحظتهـا يكـون انـتـصارنا على الموت الذي فرَّقنا، ونحن لم نعِ معناه بعـد.. هـل الآن عرفـت لمـاذا أعشق الموت يا أماني وأتمنى الهزيمة على يديه؟

عدتُ من حيث أتيـت، والـشمس غارقـة في أحـضان الغيـوم.. لم تسألني أمي أين كنت بل لسانها يردد:

"رجاء.. حرام عليك تتلاعب بمشاعرها".

هزتني الكلمة بعنف واحمرَّ وجهـي غـضبًا حتـى أمـي لا تـودُّ أن تفهمني وتقدر حيرتي.. وددت لو سألتها هل تتـذكرين أمـاني .. أشـكُّ فقد ولَّى العمر سريعًا وازدحمت الذاكرة بكثير مـن الأحـداث والوجـوه التي لا تستوعب معها تذكر ماضٍ عتيق وربما لأن أماني لم تـترك بـصمة إلا في وجداني، وأجزم أن أشقاءها لا يعرفونها وربما يحتـاجون لجهـد في

استعادة شيء من أثرها.. هذا الإنسان عندما يرحل مودعًا الحياة في البداية يبدو اسمه براقًا ترويه دموع الثكلى، وألم الفقد ثم رويدًا وبمرور الأيام، ينطفئ الاسم تدريجيًا حتى يتلاشى ويُمحى تمامًا وكأنه لم يكن ويُنزع من قلب محبيه.

هل أحكي لك يا أمي عن جمالات.. لن يفهم أحد مشاعر تلك المرأة التي باتت في نظر الناس عاهرة سفاحة تستحق الشنق.. لكن لا تحزني ذاكرة الناس ضعيفة الآن يتناقلون حكايتك ولا يخلو مجلس من ذكرك، لكن سوف ينشغلون غدًا بتفاهات وفضائح أخرى حتى أولادك سوف يتخلصون من سيرتك سريعًا حتى لا يظل عارًا يلاحقهم.

هي الحياة يا جمالات.. كلامي ليس تعاطفا معك فأنت حقًّا مخطئة، وتستحقين العقاب، بل ألمًا لحالك وتهاونك في الحفاظ على حياتك وانسياقك وراء شهواتك.

أمي تصم أذنيها عن مبرراتي.. لم تستوعب قصة صَابْحَة تقول بلا مبالاة:

" قتل ودم.. ما الجديد كلها جرائم اعتدناها!"

- استهانة منك يا أمي بلا مبرر.. قضية السيدة صَابْحَة اختلف عليها الناس هناك من يمجد فيها ويتذكر فضلها وهناك من يذم في مسلكها ينعتها بالجشع والطمع، ومن ثم هناك أكثر من جانٍ بعضهم

سقط وافتُضح أمره وآخرون بمنأى عن العدالة لكنهم حتمًا قادمون ولن يفلتوا.

أذعنت لرجاء أمي، وافقت على الذهاب إلى رجاء ومقابلة أمها لكن ليس الآن.. الزيارة الإجازة القادمة شرط وضعته فالتسويف سبيل لاستعادة العقل رشده والتغلب على هذا الحزن ربما نهتدي بدرب الهوى ونرتوي بالسعادة المفقودة قالت رجاء في اتصالها الهاتفي.

- كفى تأجيلًا، ما المانع أن تأتي حتى أنت والست الوالدة نشرب جميعًا الشاي.. حضورك سوف يهدئ من هجوم أمي عليَّ ويُحسِّن من صورتي أمامها.

تنهدتُ وقد سئمت من كل تبرير:

- لكن يا رجاء أنا مرهق جدًّا وفي حالة توهان.. الفترة الماضية كانت مشحونة بقضية صَابْحَة ومن قبلها حصار القسم، لست مستعدًّا الآن وفي حاجة للنقاهة، لكن وعد أول يوم في الإجازة القادمة سأكون عندكم وسوف أتقدم وأطلب يدك من الست والدتك.

ترد منكسرة تحاول إخفاء ضيقها:

- أنا لم أطلب منك شيئًا يا باسل، تعالَ فقط ولو عشر دقائق، وجودك سوف يفرق كثيرًا.. ماما تُصرُّ على حضورك.

قلتُ بحدة وصبري بدأ ينفد:

- لقد قلتُ كلمتي ولن أتراجع، وعلى الست والدتك الصبر.

ردت ونبرة صوتها تغالب دموعها:

- قل لي أرجوك ولا تُعلقني بالوهم، هل أنت بالفعل تُريـدني؟ إذا كنت ترى أنني غير مناسبة أو لا تحمل لي أي مشاعر قل لي وارحمني مـن هم الانتظار والتفكير.. لا تسافر وتتركني أستجدي منك كلمة.

صحتُ منفعلًا بشدة والهاتف يهتز بين يدي:

- قلت ما عندي سوف أحضر الإجـازة القادمـة لكـي نبحـث في أمرنا وعلاقتنا لا أريد كلامًـا ومطًّـا في هـذا.. كلمتـي واحـدة لا تقبـل المساومة أو التشكيك.

ردتْ بتوسلٍ:

- والإجازة القادمة متى؟ حتى أرد على أمي بشيء مقنع؟

- تعلمين أنني لا أملك قرار الإجازة حسب الظروف.

- إذًا تعالَ ولا تتحدث في أي شيء مجرد زيارة ودية إن كنت فعـلًا تريدني.. أرجوك يا باسل لا تـرفض طلبـي وبـصراحة لا تـتـضايق فيـه عريس متقدم وأمي تصر عليه، لكني أرفض تمامًا فـلا أرى في الوجـود سواك.

صمتُّ برهة ثم صحتُ غاضبًا:

- أنا أرفض المساومة وهذه الألاعيب الرخيصة وأن هناك عريسًا، والفيلم المعروف هذا بسخافته .. آخر كلامي وأي كلام فيه لن أرد.

انفجرتْ باكيةً وثورة عارمة تلاحق كلماتها بصوتٍ عالٍ:

- آخرتها يا باسل تقول ألاعيب وسخافة.. عيب يا حضرة الضابط أن تقول هذا لست ممن يكذب أو يستخدم أسلوبًا رخيصًا كما تدعي، وأنت حُرٌّ تأتي أو لا تأتي لا يهمني.. لن أترجى سيادتك أو أتوسل إليك بنظرة عطفٍ فأنا لي كرامتي وأعتدُّ بنفسي....

قاطعتها بغضب شديد:

- لا ترفعي صوتك عليَّ، الزمي حدودك يا آنسة و....

قاطعتني تواصل ثورتها وصوتها يعلو أكثر:

- أنا حرة أتحدث كما أريد، وكفى غرورًا وعجرفةً منك.. أنا لست عسكريًّا أو مخبرًا عندك في القسم تظهر عليهم عقدك النفسية ونقص شخصيتك.. اسمع أنا تحملت منك الكثير ورضيت جفاءك على أمل أن ينصلح حالك وأن أساعدك ربما تنسى الماضي، لكن اتضح أني مخطئة وملعون هذا الحب الذي يهدر كرامتي ويجعلني أتحمل أسلوبك.. لا تظن أنني ضعيفة، لكن حبي لك جعلني أتغاضى عن كل شيء في سبيل إسعادك حتى لو جئتَ على كرامتي كي تشعر برجولتك لكن التمادي بهذه الوقاحة أمر مرفوض، وصدقني أنا فعلًا رفضت العريس الذي تقدَّم لكن أقسم بالله أي عريس يتقدَّم لي مهما يكن وضعه.. لو شيطانًا حتى سوف أوافق عليه حتى لا يظل قلبي ضعيفًا ويجعلني أتنازل وأعود إليك.. كرهت كل شيء ولا أريد أي شيء.. كفى يا باسل حرام عليك.

ثم أغلقت الخط وسط نحيبها وبركان غضبها.. تائه لا أدري لماذا عاملتها بكل هذه القسوة.. كيف أطأ زهرة تنشد سعادتي ويفوح عبيرها من أجلي؟ ما هذه الحماقة التي تجعلني أصدمها وأُهين مشاعرها بهذه الوقاحة كما قالت؟ حتى لو كان قلبي خاليًا من حبها كيف أكسر قلبًا ينشد حبًّا؟ تبًّا لحماقتي ومشاعري التي تعلقت يومًا بنجاسة وترفض الآن الطُّهر.

ظلام دامس يحيط بعالمي يجعلني أتخبط غير قادر على اشتهاء الحب.. زفرت زفرة طويلة فقدت الحب والأمل فيه.

تذكرت أماني بحثت عن وجهها، لكن لا شيء سوى ظلمة تطوقني.. تذكرت جمالات بفيض ابتسامتها.. حب يمرض القلب.. نميل إلى المرأة اللعوب أما من تنشد الطُّهر والبراءة ننبذها.. ربما حلم لكن سؤال أمي وما الذي فعلته بالمسكينة التي انهارت وانقطع صوتها من شدة بكائها وصدمتها.. ابحثي معي عن إجابة يا أماه، احضني قلبي القاسي ربما ينبض بفيض حنانك وبشيء من الحب.

أبكي والنعاس يناوش أجفاني المتعبة وصوت يتردد بداخلي يغني:

"قلبي بستان ذبلت وروده يعشش فيه القحط.. قلبي بئر جفت مياهه.. قلبي سماء معتمة بلا قمر أو نجوم".

***

عدتُ من الإجازة، يبدو أن الأمور الجسام في انتظاري، وعقلي ما زال مشوشًا، زادت آلامي برفض رجاء كل محاولاتي للصلح.. ربما شيء لو فعلته قد يُعيد المياه إلى مجاريها، لكن غروري أبى فقد اقترحت أمي زيارتها.

يخبرني المأمور بقرار خطير أصدره المحافظ.. نقل السوق خارج الكتلة السكنية إلى أرض بور غرب المدينة.. تذكرت صَابْحَة وجمالات.. التحريات تشير إلى وجود معارضة قوية من الباعة والتجار يصرون على البقاء.

سافرنا إلى المديرية بصحبة المأمور ونائبه، والنقيب إيهاب للاجتماع مع مدير الأمن الذي قال من متشددًا وبتوجيهات لا تقبل النقاش.

قرار المحافظ لا بد من تنفيذه مهما يكلفنا الأمر، وعلى التجار الانصياع وإخلاء أرض السوق.

تساءلت بدهشة:

- أرض السوق واسعة هل هناك خطة من المحافظة للاستفادة منها.

أجاب نائب المحافظ الذي انضمَّ إلينا:

- هناك خطة شاملة لتطوير المدينة سواء في المرافق والخدمات أو استغلال المساحات المهدرة.. مثلا أرض السوق ملك للدولة وكان التجار يدفعون ضريبة حق انتفاع على الأرض ملاليم لا تسمن ولا

تغني، كما أنه أصبح يمثل عبئًا كبيرًا لما يحدثه من زحام شديد، واختناق المدينة، وإشغالات مع تراكم القمامة، ولهذا جعلنا أرض السوق هدفًا ضمن خطة تطوير المدينة.

أردفت وتساؤلات تناوشني:

- وكيف سيتم استغلال الأرض. خاصة وأنها مساحة شاسعة وتقع في قلب المدينة وبها تتفرع الشوارع الرئيسية في المدينة.

استطرد نائب المحافظ يرد بدبلوماسية:

- في ظل اتجاه الدولة للخصخصة وفتح آفاق الاستثمار ومنح الفرص لرجال الأعمال المخلصين من أجل المشاركة في النهوض ببلدنا الحبيب، فقد اشترى الأرض أحد المستثمرين من أجل إقامة وحدات سكنية بأسعار مُخَفَّضة للشباب وكذلك إنشاء مسطح أخضر يكون متنفسًا للمدينة.

قال مدير الأمن مُوجِّهًا حديثه إلينا:

- دوركم في إقناع التجار بالانتقال إلى الأرض الجديدة صحيح أنها بعيدة وربما يكون هذا سببًا لرفضهم لكن في حالة المماطلة والرفض لا بد من استعمال الشدة وإن لزم الأمر القبض على بعضهم كتهديد وردع للآخرين ثم الإفراج عنهم فيما بعد.

قال رئيس المدينة:

- لقد وجهنا إنذارات لهم لكن الأغلبية رفضت تسلمها.

عدتُ بالذاكرة إلى عام ١٩٩٦ عندما قامت محافظة القاهرة بنقل سوق روض الفرج إلى الصحراء بمدينة العبور وسط بكاء أهالي المنطقة وعويلهم، فقد اعتبروه قطعًا لأرزاقهم ومحاربة لهم، ورغم اعتراضهم الشديد نُفذ القرار عنوة دون الرجوع إليهم.. لحظة طيش من مسئول أصدر قرارًا بدون دراسة وأخذ رأي أهل المكان من باعة ورواد السوق، لم يكن السوق مجرد مكان للبيع والشراء للخضر والفاكهة بل عالمًا ينبض بالإنسانية وفيض العطاء والتعاون.. حياة مصغرة، مثال حي يرمز إلى مصر بأسرها منذ أن تعبر الواجهة المميزة للسوق، وتدلف إلى عالمه تعشق تفاصيله، تألف كل الوجوه، وتستمع إلى أغاني التجار ينادون على المانجو والبطيخ والجوافة ومع حلقات المزادات، وما تضمه من بهجة حيث تستعين بفرق موسيقية جوالة ومعها مطرب أو مطربة لجذب انتباه الناس بالغناء، والصراع بين تجار الكوامل والهلة وكلاهما من سوهاج، لكنَّ تنافسًا شريفًا يجمعهما الحب ليلًا على المقاهي ومسارح المنوعات التي تجاور السوق.. تسمع اسم المعلم محمد زيدان يتردد على بعض الألسنة رغم مقتله عام ١٩٥٢ لكن يظل أحد أشهر تجار السوق والمتحكم الرئيسي في السوق وقتذاك، ورغم ما اتصف به من أعمال الخير فإن التنافس الشديد بين تجار السوق والذي جسَّدته شاشة السينما في فيلم الفتوة عجَّل بمصرع المعلم زيدان عندما كان عائدًا من مزرعته بالجبل الأصفر بصحبة سائقه، وفي أثناء مروره

بكوبري عزبة حافظ باشا في محافظة القليوبية استوقفه ثلاثة رجال بحجة وجود حفرة بالطريق ليفاجأ بإخراج الرجال الثلاثة أسلحة وانهالوا على السيارة بالرصاص ليقتلوا زيدان ملك الفاكهة بتسع رصاصات.. ما زالت السوق تذكره، وكل ركن يحكي عشرات الحكايات المختلفة عن دراما الحياة والصراع داخل عالم السوق.. عشت تلك اللحظات، وارتويت بهجة من الروعة خلال جولات الصبا داخل السوق لكن مع قرار النقل المفاجئ لمستُ حجم الألم والمعاناة، رأيت الدموع تملأ المآقي.. فكرة النقل تؤلمني، لا أودُّ تكرار مأساة الماضي، لكن لأنتظر، يتبدل الزمان، تتباين الرؤى، تتفاوت الأحداث.

عدتُ من هذا الاجتماع مثقلًا بالهموم، وهواجس تطاردني تنذر بخطر قادم صوب قلبي.. تراءت صورة أماني يغشاها ضباب.. تبدو هلامية تتأرجح.. أشرتُ إليها أسألها عن الخطب، لم أتبين في ملامحها سوى الجمود.

تأتي الأخبار تباعًا لقد اشتبك الباعة والتجار مع موظفي المدينة الجبناء، ولقنوهم علقة ساخنة وطردوهم من السوق بعد ملاحقتهم بالعصا.. وتوعدوا كل من يقترب سيكون السوق قبره.

المأمور يسألني عن الحل وكيفية التعامل حتى لا نعطي فرصة لهؤلاء بفرض إرادتهم وإضعاف هيبة الدولة.. المحافظ أصدر قراره ولا بد من تنفيذه.

ما زاد من أملي وثبَّط عزيمتي أنني علمتُ أن رجل الأعمال التهامي هو من قام بشراء الأرض بثمن بخس بفضل نفوذه وعلاقاته وأنه صاحب اقتراح نقل السوق للاستيلاء على الأرض، قال النقيب إيهاب:

- إنه ينوي الترشح للبرلمان الدورة القادمة.

لكن نائب المأمور الذي ظهر نشاطه في تلك الأيام بشيء مريب، وهو الذي كان يقبع في مكتبه ينعم بالهدوء وراحة البال صاح معترضًا:

- الرجل أكد أكثر من مرة أنه لا ينوي الترشح، فلماذا نحاول تشويه صورته.. مشكلتنا أننا لا نقدر إلا على جلد الشرفاء وإلصاق التهمة بهم جزافًا.

قلت بحدة ودون خوف:

- وهل الشرفاء يا أفندم يقمون ببناء قصر فخم على النيل بطريقة مخالفة تستوجب الإزالة الفورية أسوة بمن تم هدم عششهم وبيوتهم الصغيرة!

أشاح نائب المأمور وجهه الذي يحمل قسمات الشدة والعنف.. اقترح المأمور خروج حملة من القسم لإخراج الباعة وإخلاء السوق بالقوة الجبرية أيَّدها نائبه الذي خرج بحملة كبيرة وسط رفضي المشاركة واعتراضي على أسلوب القوة.. تعرضت الحملة كما توقعت للرشق بالحجارة وتكسير زجاج السيارات مما حدا بنائب المأمور أن يفر على قدميه مذعورًا وسط حصار من التجار ونجاته بصعوبة من الوقوع بين

أيديهم، ودخل القسم ممزق الثياب يلهث خوفًا وذُعرًا وسط صياحات الاستهجان من الأهالي، بينما نجحنا بصعوبة في إخفاء سخريتنا والتندر على هيئته.

مدير الأمن يُوبِّخنا، يرسل لنا برسائل غضب فالمحافظ يتعجل إخلاء السوق، لا يعترف باعتراض أهل السوق ومقاومتهم.

ذهبتُ إلى السوق بصحبة النقيب إيهاب ومجموعة صغيرة من العساكر، والمخبرين على رأسهم حجاج ومصلحي كنوع من استعراض القوة وسيرًا على الأقدام.. أمدُّ يدي للجميع بالترحيب وتوزيع الابتسامات.. لم يعترضني أحدٌ بل التفوا حولي عندما لمسوا تعاطفي معهم.. وقفت موضع صَابْحَة والمكان الذي شاهد أيامًا جميلة في حياتي.. يتحول بصري ناحية خيمة جمالات.. سُررتُ جدًّا لوجود زوجها قد عاد وحوله أبناؤه وأبناء جمالات من زوجها الأول، يمارسون البيع والتجارة بهمةٍ ونشاط.. انتعش قلبي واطمأنَّ أن الحياة فيها شيء جميل يستحق أن نتمسك بها مهما تبلغ من ظُلمة.

التفَّ حولي جمع غفير يزداد أعدادهم.. طلبت من رجالي الابتعاد، أودُّ التواصل مباشرة مع الناس دون خوف.

تتداخل الأصوات وسط صخب البعض وثورتهم وغضبهم، صحتُ بأعلى صوتي:

"اطمئنوا جئت لأستمع إليكم وأنا أقف هنا مكان صَابْحَة التي أعلم أنكم كنت تحبونها، فأرجو النظام، وأنا مستعد لسماع كل واحد منكم، لكن أرجو الانضباط حتى أكون صوتكم للسادة المسئولين".

صارح رجل عجوز يبدو الشقاء على وجهه ويرفع هامته رغم تقوُّس ظهره:

يا سعادة الباشا نحن لا نطلب رفاهية ولا شيء سوى أن نبقى هنا كما تعودنا، فقد وُلدنا هنا وتربينا وعاش أجدادنا على هذه الأرض خاصة هذه السوق تضرب في جذور التاريخ منذ مئات السنين، الآن يريدون بيع أرضها، هل يعقل أن أقطع رزق مئات الأسر من أجل عيون شخص آخر؟

هاج شخص آخر يضرب الأرض بقدمه:

- التهامي طمع في أرض السوق وسوف يبيعها بالقطعة بأسعار خيالية ويربح الملايين.

ثم التفتُّ إلى الجموع الغفيرة:

- التهامي لا يطمع في أرض السوق فقط، بل هو طامع في المدينة كلها، غدًا سوف يشتري كل شبرٍ فيها ولا مكان لنا نحن الغلابة والفقراء وبفضل نفوذه والإكراميات التي يغدقها على السادة المسئولين يحمونه ويساعدونه على جشعه، لكننا نحن الغلابة يد واحدة لن نستسلم حتى لو كان موتنا الثمن.. أرضنا ولن نتركها مهما يكن الثمن.

تعالت الأصوات وزادت حدة الغضب وسط صياحات الاستنكار، رفعتُ يدي أحاول السيطرة وامتصاص غضبهم، أصيح بأعلى صوتي:

- لكن الدولة لن تتخلى عنكم، هناك أرض بديلة أُعدت لكي تكون سوقًا لكم.. كل ما نريده تطوير المدينة خاصة أن السوق تسبب ازدحامًا شديدًا وصعوبة في الانتقال، ومع زيادة حركة البيع والشراء لم يعد قلب المدينة يتحمل عبء وجود السوق.

صاح رجل يغالب دموعه معترضًا:

- والله أبدًا هم يقولون ذلك كحجة من أجل الاستيلاء على أرض السوق لموقعها المتميز وسط المدينة ونحن لا نمثل أي عبء.. هناك شباب منا ينظم المرور في مداخل السوق ومجموعة أخرى كل صباح ومساء تنظف الشوارع ومنطقة السوق، وأتحدى لو وجدت أي قمامة في السوق.. هذا أكل عيشنا لا بد أن نحافظ عليه ونحميه.

برزت سيدة أخرى أعرفها كانت تذهب معنا الوكالة:

- يا سعادة الباشا أنت عشت معنا نحو أسبوع هنا وتعرفنا جيدًا ونحن لسنا بلطجية كما يدعي رئيس المدينة، ولا نحمل سلاحًا نحن ناس رزقنا على الله لا نبغي إلا لقمة حلال تسدُّ جوع أولادنا هم يريدون نقلنا إلى منطقة بعيدة في أرض صحراء ليس بها أي خدمات ويقولون سوف ندخل إليها الكهرباء والمياه بعد أن تنتقلوا إليها وكلها وعود كاذبة وأهل المدينة صعب جدًّا يقطعون مسافة طويلة للذهاب إلينا، وسمعت أن التهامي سوف يبني مركزًا تجاريًّا به سوق ومحلات على تلك الأرض.

عدتُ إلى القسم لديَّ يقين بمشروعية مطالب أهل السوق لكن ضد تجمهرهم، حاولت إقناع المأمور بالتريُّث في اتخاذ القرار، وإرسال تقرير إلى مدير الأمن يرفعه إلى المحافظ عن وجود صعوبات أمنية ومخاطر شديدة من نقل السوق في الوضع الحالي وسوف يتم وضع خطة طويلة الأمد لنقل السوق على مراحل مع اتِّباع سياسة النفس الطويل مع التجار والباعة من أجل إقناعهم، وبعد قيام المحافظة بإنشاء سوق تليق بهم في الأرض المزعم النقل إليها أو البحث عن أرض بديلة تكون قريبة من قلب المدينة.. بل إنني أعددتُ دراسة بناء على مساحة الأرض اقترحت فيها تقسيم الأرض وتنظيمها بشكل علمي وهندسي بحيث يتم الاستفادة القصوى منها.. جزء كبير يستغل للسوق بعد إعادة تخطيطها بشكل حضاري وتحويل الخيم والأكشاك إلى محلات حديثة تعكس روح التطوير، وجزء يتم فيه بناء مجمع مدارس وجزء يتم إنشاء فيه حديقة عامة تمثل رئة المدينة، والجزء الرابع والأخير إنشاء جراج كبير وبأسلوب حديث من أجل التخفيف من وطأة الزحام وتزايُد أعداد المركبات، أما الأرض الواقعة بالناحية الغربية والمزمع نقل السوق إليها فيتم استغلالها في بناء وحدات سكنية للشباب؛ لأن بناء مساكن على أرض السوق الحالية لن يحل مشكلة الزحام.. رُفعت الدراسة إلى المحافظ للبت فيها بعد دراسة وافية على أمل وانتظرت الرد ويبدو أنني سأنتظر طويلًا......

لكن نائب المأمور استشاط غضبًا واعترض بشدة على كلامي يسرع بالاتصال بمدير الأمن يشي ضدي وسط غضبي وتلك الأثقال

التي ترهق كاهلي.. هرولت إلى الاستراحة وسط غفوة من ذكرياتي مع أماني وقد تحجرت الدموع في عيني.. ذهبت إلى عالمي الآخر يوم أن استيقظت ذات صباح على صراخ النساء وعويلهم.. قمت مذعورًا أبحث عن أمي، وجدتها تقف تترقب الأمر من شرفة بيتنا على النيل.. تشبثت بردائها أصيح خائفًا، وأصوات الصراخ تتعالى أمسكت بي.. ترفعني إلى أعلى لأرى تجمهرًا يقف على الجسر سألتها بقلب ملتاع، قالت: هناك غريق في النيل، وأهله يصرخون حزنًا عليه.. شعرت بالخوف من النهر وكنت دومًا أخشى الاقتراب منه.. بعد عام انتقلنا إلى روض الفرج شعرت بسعادة فالموت ابتعد بعد أن تركنا النهر، لكن أيامًا واستيقظت على صراخ وعويل، وحركة غير عادية في الشارع.. هرولت لأجد أمي تتطلع من النافذة سألتها، قالت: طفل صدمته سيارة، ومات.. بعد أن عاد أبي من عمله سألته عن الموت لماذا هنا وهناك؟ ضحك حتى ظهرت نواجذه يقول بحنان بالغ:

"الموت في كل مكان لا تخاف منه.. هو قدر لا مفر منه، لكن عش حياتك تدافع عن مبادئك مهما يكلفك الأمر".

خيوط الفجر ترسم في السماء نهاية الفجر، دلفتُ إلى مكتبي والسكون يغلف القسم اجتمعت مع اثنين من رجال الشرطة السريين قمت بتكليفهم بمراقبة مالطا وتتبع أخباره مع توخي الحذر.

تُشير المعلومات الواردة إلى عودة نشاطه دون خشية، وبثقة مفرطة يعلنها للجميع أنه أقوى من الجميع.. يتحصن بإحدى المزارع مستقدمًا

بودي جارد ورجالًا جدًا أشداء، وقد ازدهرت تجارته في المخدرات وعاد ندماؤه يعربدون حوله.

عدتُ إلى التنكر في زي بائع، ركبتُ سيارة نصف نقل يقودها رجل شرطة سري من خاصة رجالي نُعاين موقع المزرعة بدقة وحذر، قال الرجل ونحن في الطريق:

- هذه الفرصة الأخيرة إن فلت مالطا منها فلن نقوى عليه فيما بعد.. المال والنفوذ سلاحه والناس تخاف من مالطا وأتباعه ولا يخافون من الحكومة.. أسطورة مالطا ستصبح موالًا يتغنى به الناس يومًا مثل أبو زيد الهلالي.

قطبت وجهي ألقي لفافتي المشتعلة من نافذة السيارة متأملًا الأشجار الخضرة وطول الطريق.

- الحرام لا بد له من نهاية وسيكون سقوط مالطا وأمثاله مدويًا.. المجرم لا يهدأ ويزداد فجوره وبهذا يساعدنا في الإيقاع به.

توقفت العربة أمام بوابة المزرعة الحديدية، والسكون يغرق المكان.. يبدو الوضع عاديًا لا يُوحي بشيء.. ربما حتى لا يشك عابر فلا أحد يعلم بوجود مالطا هنا.. نحاول إصلاح السيارة بافتعال، وعيوننا تراقب المكان لكن لم يظهر أحد لكن يقيني أن مئات العيون وفوهات النار ترصدنا.. داخل المزرعة أرى أشجارًا كثيفة الأغصان.. سيقانها قصيرة، سألت المرافق عنها ردَّ بحماسة:

- هذه أشجار ليمون.

انطلقنا بعد عشر دقائق إلى المزرعة المجاورة ندخلها بحجة شراء عنب وتين ونحن نرصد السور العالي الذي يفصل بين المزرعتين بينما يصيح أحد خفراء المزرعة في وجه السائق:

"موسم العنب انتهى يا غشيم وتم بيع المحصول بالكامل".

في طريق عودتي اتصلت على مدير الأمن أطلعه على نتيجة التحريات والمعلومات التي توصلنا إليها.. يُبدي توجسًا وتوترًا.. كأنه يقول: "وما الفائدة؟". خيبة الأمل ما زالت تترسب في ذهنه تصيبه بالإحباط.

أهتفتُ كي أحمسه "لقد نجحنا المرة السابقة وقبضنا عليها وعلى أعوانه لكن النيابة أخلت سبيله.. نحن لم نقصر ولن نقصر مهما يحدث ولن يهدأ لي بال إلا باعتقاله أو قتله".

يُبدي مدير الأمن مرونة رغم وجهة نظره التي تقتضي التريُّث؛ لذا فقد رفض إمدادي بالعون.. ترك الأمر للمأمور لكني لا أمان لرجال القسم أعلم أن بعضهم خائن، ولاءه لمالطا أكثر ولديهم استعداد للتضحية بنا في سبيل حصوله على رشاوى وهدايا من المجرم.

استبدلت ثيابي في السيارة قبل مدخل المدينة بعد تيقني أنه لا يوجد أحد يُراقبنا.. عدتُ أفرضُ السرية التامة على خطواتي واجتماعاتي مستغلًّا أن نائب المأمور حصل على إجازة لاصطحاب أسرته إلى الساحل الشمالي.

من خلال متابعتي لبعض أفراد القسم من أمناء شرطة ومخبرين وعساكر والتقارير التي ترد إليَّ عن أدائهم، وجدتُ تقاعسًا، وتساهُلًا، وشائبة فساد، ورشاوى في بعض الأمور بشكل مُقزِّز، ويدعو للحسرة والمراقبة الجيدة.. احتقن وجهي وانفجرت غاضبًا، أقفُ في رواق القسم تنطلق الكلمات من فيَّ كمدفع رشاش.

"لا تظنوا أني غافل عما يفعله كل واحد هنا في القسم.. أنا هنا لكن أعلم خطواتكم جميعًا وعيوني تترصد كل فاسد وخائن منكم.. لهذا أحذر الخونة والفاسدين، وعليهم مراجعة أنفسهم لأن سقوطهم أصبح وشيكًا، ومن يقع بجرمه لن أرحمه وسيكون عبرة لمن يُعتبر".

أرى عين النقيب إيهاب تومض بالإعجاب يُداعبني ممتنًّا.

"اضرب بيد من حديد.. الفساد أصبح خارج السيطرة .. التطهير مطلوب ولا بد من وقفة".

جهزت حملة ضخمة دون أن يعرف أحد من أفرادها إلى أين نتجه.. جمعتُ منهم هواتفهم المحمولة وكل متعلقاتهم وتم تفتيشهم جيدًا مع فرض الجدية والصرامة الشديدة.

انطلقنا لا يعرف وجهتنا سوى النقيب إيهاب ورجلا الشرطة السريان، تجمعنا سيارة واحدة بينما المأمور جلس في مكتبه يترقَّب.

الساعة تشير إلى الوحدة بعد منتصف الليل، والسماء مقفرة شديدة السواد فقد غاب القمر، اختفت النجوم تحت ركام سحب عابرة، والطريق وما حوله غارق في السكون.

ترجلنا على بعد خطوات من مدخل المزرعة، قُسمت الحملة سريعًا إلى ثلاث مجموعات.. مجموعة أقودها ومعي النقيب إيهاب لاقتحام المزرعة التي يتحصن بها مالطا وأفراد عصابته بينما المجموعتان لمحاصرة المزارع التي تحيط بالمزرعة المستهدفة لمنع هروب أحد من المجرمين.

انطلقنا بعد أن علم الجميع بمهمة القبض على مالطا حيًّا أو ميتًا.. اقتحمت بوابة المزرعة وألقيتُ القبض على ثلاثة من خفراء الحراسة وجردتهم من أسلحتهم وسألتهم عن مالطا.. حاولوا التنصل وتقمُّص دور الدهشة ونفي معرفتهم بشيء، لكن رجالي أحكموا الوثاق ننطلق بصحبتهم إلى داخل المزرعة.. تحيط بنا أشجار الليمون تبدو في الظلمة أشباح عائدة من زمن سحيق.. اختراقها يُمثِّل وعورة شديدة نظرًا لقصر ساق الشجرة وكثيفة الأغصان تمتلئ بأشواك فتاكة تتطلب الحذر الشديد مما اضطرنا إلى الانحناء والزحف أحيانًا .. على مقربة شاهدنا مجموعة من الغرف بالطوب الحجري أمامها عمود إنارة ومصباح إنارته صفراء شاحبة لكن بمجرد اقترابنا، انهال علينا رصاص من كل جانب.. لم ترهبنا أو نتراجع بل تبادلنا إطلاق النار مع تقدُّمنا، واقتحامنا لأول الغرف نُلقي القبض على مجموعة من المجرمين يتحصنون بها استسلموا وألقوا أسلحتهم على الأرض.. اندفع النقيب إيهاب، يحمل مسدسه بكل جسارة وجرأة لا يهاب شيئًا يقتحم الغرفة الثانية لكنه بمجرد دفع الباب بقدمه وفتحه انطلقت رصاصة صوب صدره.. صرخت وأنا خلفه كي يبتعد لكنه تلقى الرصاصة بكل بأسٍ

وشدة، أطلق طلقات النار في اتجاه مطلق الرصاص فأراده قتيلًا في الحال ثم ترنَّح النقيب إيهاب مُحاولًا كتم وجعه وشدة ألمه.. اندفعتُ محاولًا احتضانه لكن هوى بين يدي، يشير أن أستكمل مهمتي.. صرخت أناديه لكن جسده استرخى تمامًا.. لمحت شبحًا يجري مُسرعًا من الغرفة المقابلة، يحمل مسدسًا يهرول هاربًا بين أشجار الليمون.. اندفعت أتعقَّبه أُطلق عليه النار لكن توارى خلف الشجر وابتلعته الظلمة.. وقفت أسترقُ السمع لخطواته متحفزًا وسلاحي على أهبة الاستعداد، بينما رجالي يواصلون المهمة في القبض على رجال مالطا وقنصهم.

تناهى إلى سمعي وقع أقدام، اتجه بصري ناحيتها رأيت ظلًّا يهرول متخفيًا.. أطلقتُ عليه وابلًا من الرصاص، لكنه على مهارة كبيرة للقفز وتجنب الاصطدام بالأشجار وأشواكها بينما تتعثر خطواتي والأشواك تصطدم برأسي وكتفي، أندفعُ خلفه للحاق به، لكنه استدار بغتة تجاهي يبادلني إطلاق النار.. ارتميتُ على الأرض زاحفًا لأختبئ خلف شجرة.. نهضتُ بحذر شديد بصري يحاول كشف الظلمة وتبيُّن وجود المجرم الذي يترصدني، أخرجتُ رأسي قليلًا ثم تراجعتُ مع عودة الرصاص ناحيتي وبغتة أطلقت وابلًا من الرصاص تجاهه.. أبدله بلا هوادة حتى هوى غصن شجرة بما يحمله من أشواك فوق رأسي.. شعرتُ بألم رهيب لكنني أزحته غير مكترث بدماء تسيل من يدي مع اقتراب الرصاص ناحيتي.. خشيتُ من نفاد طلقاتي.. تمهلتُ وتجمدتُ

في مكاني بترقب، واستنفار محاولًا التنبؤ بردود أفعال هذا المجرم ومباغتته لكني لمحته يهرول محاولًا مواصلة الهرب.. واصلت إطلاق النار تجاهه لكنه بارعٌ في التخفي بين الأشجار.. فجأة غشيَ المكان نور هتك ستار الظلام.. نار تشتعل بإحدى الأشجار.. رأيت غريمي بوضوح يواصل عدوه.. صرخت بقوة أُطالبه بالتوقف والاستسلام فورًا وإلقاء سلاحه.. التفتَ ناحيتي مُبتسمًا، يكتم غيظه الشديد، يصوب سلاحه تجاهي.. وقفنا في مواجهة بعضنا البعض وأصبعنا على الزناد تبينت ملامحه على ضوء النار تذكرته بينما يصيح مستنكرًا ملوِّحًا بمسدسه:

- ماذا تريد يا باشا. يبدو أنك لم تتعلم الدرس أن مالطا رجل لا غبار عليه ومستحيل يقع لأنه لن يقع بمفرده.

تراجعتُ خطوتين مستندًا على شجرة كي أحمي ظهري ربما يأتي غادرٌ من خلفي، أصرخُ بقوة وثبات كي يستسلم ولا داعي للمقاومة.

يواصل ابتسامته السمجة، يستفزني:

- الناس تُشبِّهني بالأخطبوط، ويبدو أنك يا باشا لم تقرأ جيدًا عن قدرات الأخطبوط وذكائه، وأنه من أذكى الحيوانات وقادر على إعادة بناء جسمه بالكامل.. استرح وانسَ أنا من صناعة الناس من حولي والناس من مصلحتها بقائي.. صدقني حاولت أتوب وأرجع عن طريقي لكن إلحاح الناس جعلني أتراجع.

صرختُ بحدة ومقت شديد:

- لن أتركك تبثُّ السموم وتؤذي الناس بشرورك وإجرامك يا حقير.. لو فلت هذه المرة أَعِدُك أن ألبس طرحة وأجلس في البيت بجوار أمي.

انتابته نوبة ضحك لأرفع فوهة مسدسي تجاه غصن الشجرة التي يقف أسفلها أطلق رصاصة لتهوي أغصان الشجرة، تنغرس أشواكها في رأسه وكتفه وقبل أن يبدي مقاومة أطلقت تجاهه رصاصتين استقرت إحداهما بجبهته والأخرى بصدره ليصرخ، يصدر أنينًا من الألم، وقبل أن يستوعب ما يحدث ويضغط على زناده أطلقت الرصاصة الثالثة صوب يده ومسدسه ليسقط على الأرض وقد برقت عيناه يُشير ناحيتي بصوت مبحوح:

"برافو يا باشا.. لكن فتحت عليك أبواب الجحيم لن يتركك محبو مالطا وأصدقاؤه.. جسد مالطا يموت لكنه روحه باقية".

في تلك اللحظة تجمع عدد من العساكر بعد سماعهم لدوي الرصاص يلتفون حولي لحمايتي وآخرون يحاصرون المجرم وقد علا صوت يخترق الظلمة والنار يهتف فرحًا:

"الرائد باسل نجح في قتل مالطا".

أسرعتُ إلى إيهاب وقد تجمَّع رجالي بعد سيطرتهم على المزرعة، والقبض على الموجودين بها مع قتل عدد من رجال مالطا، ممن أبدوا مقاومة شرسة ورفضوا الاستسلام واشتبكوا معنا.

رأيته راقدًا في هدوء غارقًا في دمائه جثوت على ركبتي يعلو نحيبي، ودموعي سيل جارف من الوجع.. أدنو منه.. وجهه قد ازداد بياضًا يحمل ملامح السكينة والطمأنينة.. أرتمي على صدره، وصفارات سيارات الإسعاف تقترب.. بعض رجالي يحاولون انتشالي من فوق إيهاب لكن قوة امتلكتني.. أهزُّه ربما تعود الروح، ينير وجهه بابتسامة صافية تحمل رونقًا.. لمسته برفق.. أداعبُ شعره الناعم الأسود الفاحم أتذكر منذ أيام داعبني مبتسمًا:

"حلمي أن أنجب ولدًا أطلق عليها باسل كي يكون باسلًا مثلك".

لكن يا إيهاب الموت غادر يسلب حياتنا، ويدع أحلامنا تهيم مجرد ذكرى.. كانت ولن تكون.

لحظات كأنها الدهر وسط أصوات مختلطة، يحمل المسعفون جثة إيهاب مع جثة مالطا وثلاثة من رجاله واثنين من رجالي العساكر حصيلة القتلى.

قابلني المأمور متجهمًا يسألني عن الخطب وماذا حدث. أبكي فَقْدَ إيهاب لكنه يذكرني بنجاحي في القضاء على المجرم الأرعن مالطا.. يصدر قرارًا بوضع حراسة مشددة عليَّ بعد تواتر أنباء عن وجود تهديدات تمسُّ حياتي بعد نجاحي في قتل المجرم مالطا.. لا أهابُ الموت.. أسأله باكيًا وأذكره.. إيهاب يرد بأسًى يغالب دموعه.

"قدرنا أن يضحى بعض منا بروحه فداء للحق والفضيلة".

في الصباح بكيت أمام وكيل النيابة، يستجوبني عما حدث وملابسات مقتل إيهاب والمجرم مالطا.. أسرد بالتفاصيل في غمار دموعي الأليمة وقائع ما حدث .. أود الصراخ.. تلعثم صوتي وأنا أرى وجه أماني على ستائر النافذة تنظر نحوي مشفقة.. يسألني وكيل النيابة لا أعي قوله، أحدِّق إليها.. يهتف قلبي راجيًا.. أماني .. أتمنى لو جمعنا عناق يُذيب ألمي ويصهر همي ويروي ظمأ سعادتي.. ليتها تأتي الهوينى نحوي لكنها تبتعد والنافذة تتزحزح بعيدًا.. نهضتُ مذعورًا وسط دهشة المحقق.. أناجيها:

لا تبتعدي يا شفائي ودوائي لكني رأيتُ جدتي يوم موتها عندما دوى صراخ ذات مساء امتلأت فيه السماء بقطع من السحاب الأسود، جدي يخرج خلف الطبيب باكيًا، يصرخ في النسوة اللاتي تجمعن:

"لا فائدة.. لقد ماتت".

حاولت التسلل إليها كي أودعها لكن الباب موصد والحنين ينهش كياني في وحشية.

يأمر المحقق بانصرافي من سراي النيابة وسط شرودي وأحزاني.

أسرعتُ بصحبة المأمور وعدد كبير من أفراد القسم إلى السفر لقرية كفر الجمال بالقليوبية لحضور مراسم تشييع جثمان النقيب إيهاب.

المشهد مهيب، تتلاحق فيه أمواج الأحزان، والدموع الأليمة، وسط حشود غفيرة من الأهالي رجالًا ونساء وأطفالًا، خرجوا يعلو

نواحهم، يحملون صورة الشهيد إيهاب بوجهه الفياض بالابتسام والتفاؤل.. حصار حول زوجة الفقيد وابنه الذي لم يتجاوز السادسة من عمره، يرتدي زي ضابط يُغالب دموعه وآهاته التي تنسكب بغزارة على صورة والده الكبيرة بينما الكاميرات في الصفوف الأولى تصبُّ جُل اهتمامها على السيد المحافظ، ومدير الأمن وسط جلبة - وزفة من الإعلاميين، والجميع خلف جثمان الشهيد الطاهر على عربة مُغطاة بعلم مصر في جنازة عسكرية تليق بفدائيته..

على أعتاب المقابر بوجهٍ مذهول وشفتاي مزمومتان لا تقولان شيئًا.. دموعي تُودِّع رفيقي مَن كان يُمني قلبي بالتفاؤل.

ترتفع عيني تفيض دموعًا، تتوقف على قمة شجرة في الفضاء المحيط - أتأمل غرابًا يراقبنا والشمس كعادتها تنسحب مدحورة خلف سحابة عابرة.

***

لا وقت للأحزان والبكاء على فَقْد أعز زميل.. تطورت الأمور بعد وصول بعض الأنباء إلى أهل السوق عن نية الشرطة القيام بحملة لإخراجهم بالقوة، واعتقال من يرفض تنفيذ قرار الإخلاء وقتله ومن يظل في السوق.

إشاعة سرت كالنار في الهشيم، وكأن هناك مَن يلعب على وتر المشاعر لإذكاء روح العداوة، وشحذ الهِمم لخلق مزيد من الفوضى.

قاموا بإغلاق مداخل السوق مع وضع حواجز خرسانية، وحديد - ومتاريس وتعيين حراسة مشددة من رجالهم وشبابهم الأشداء.. والتيقن من شخصية من يدخل السوق لمنع تسلل أحد من رجال الشرطة أو موظفي مجلس المدينة، لكن نائب المأمور اقترب من السوق وسط حشد من رجال الشرطة، يضحك باستهزاء يهتف بصوت عالٍ بأنه قادر على إخلاء السوق في أقل من عشر دقائق وسيفرُّ كل مَن في السوق كالجرذان.

أعلنت غضبي ورفضي لهذا الأسلوب المستفز الذي لن نجني من ورائه سوى مزيد من التصعيد، وشحن الأهالي ضدنا، وزيادة عدد المتعاطفين ضد قرار نقل السوق.. لا داعي لهذا الاحتقان وتهييج الناس.. القوة تنجب عُنفًا وكراهية والناس بسطاء من اليسير كسب ودِّهم، وتغيير قناعاتهم لو دخلنا من باب العاطفة وكسب ودهم لكي نحقق مبتغانا.

تطورت الأمور بشكل خطير وتصاعُد ينذر بعواقب وخيمة.

قرَّر أهل السوق من تجار وباعة، وبعض المتعاطفين من أهل المدينة الاعتصام داخل السوق وأعلنوا سلسلة من المطالب على رأسها رفضهم الحاسم والحازم لقرار النقل وعدم الإذعان لتنفيذه مهما يكلفهم الأمر واتخذوا منصة قرب خيمة صَابْحَة يشعلون حماسة الناس بالخطب الرنانة والحماسية وكأنها بطولة أو حرب، وأعلنوا استعدادهم للدخول مع الشرطة في حرب، والتضحية بأرواحهم في سبيل الانتصار لإرادتهم وبقاء السوق.

انتشر خبر الاعتصام كالنار في الهشيم، واتخذته وسائل الإعلام مادة أساسية وخصبة بما يعني مزيدًا من التهويل والتضخيم مع وجود موجة عاتية من الشائعات حول المعتصمين، وأعدادهم وما يحملون من سلاح وعتاد وقدرتهم على منازلة الشرطة وهزيمتها إن فكرت في اقتحام أرض السوق أو محالة فض الاعتصام بالقوة.. والبعض يُروِّج أن المعتصمين لا علاقة لهم بتجار السوق وأنهم مجموعة من معتادي الإجرام والخارجين عن القانون لتضيع الحقيقة وسط صخب المزايدين والساعين لإحداث مزيد من الفتن والقلائل.

ضربتُ كفًّا على كفٍّ أقولها علانية: "خربتها يا نائب المأمور هذه نتيجة تهورك".

الداخلية وقياداتها تضغط على مدير الأمن لإيجاد انفراجة وسبيل للخروج من الأزمة للرد على تحدي المعتصمين وجرأتهم على الشرطة والدولة..

توقَّفت الحياة في المدينة.. أصابها الشلل التام مع إغلاق المعتصمين الشوارع الرئيسية المؤدية للسوق، والاستيلاء على المسجد الأثري كمقرٍّ وغرفة عمليات لاعتصامهم، فقررتُ دون الرجوع لأحد غلق مداخل المدينة، وغلق الطرق المؤدية إليها ومنع دخول أحد حتى لا ينضم عناصر خارجة مع المعتصمين، وتحفيزهم على مزيد من الخراب وتأليبهم ضد الشرطة، وعدم الإذعان لأي هدنة أو حل يُرضي جميع الأطراف.. تمنيت لو احتكم التجار ممن يأججون نار الاعتصام أن

يحتكموا إلى العقل ولو قليلًا ربما تتغير الأمور كثيرًا.. تمنيت لو كنت مسئولًا صاحب قرار لتغيرت أشياء كثيرة تصبُّ في مصلحة الجميع بعيدًا عن توحش الصراع ودخوله في نفق التحدي.

أثنى مدير الأمن على هذا الإجراء في اجتماعه العاجل معنا بمقر المديرية وبحضور قيادات من الوزير يصيح متوترًا.

– نحن أمام مصيبة والأمر كما هو واضح للعيان خطير وينذر بعواقب وخيمة إن لم نتدخل بعقلانيةٍ وفض هذا الاعتصام مع اهتزاز صورة الشرطة وهيبة الدولة مع جرأة هؤلاء المعتصمين وتطاولهم علينا بصورة سخيفة.. لقد اجتمعنا لنستمع لكل الآراء لوضع خطة عاجلة لإنهاء هذه الفوضى وإخلاء ساحة السوق من هؤلاء الأوباش.

رفع نائب المأمور يده بحماسة:

– خوفنا من هؤلاء الشرذمة جعل الغرور يصيبهم ويزداد تطاولهم علينا؛ لذا علينا أن نلقنهم درسًا لا ينساه الناس جميعًا ونُعيد إليهم الخوف والرهبة منا، والحل هو الكرباج الذي يُعيد الأمور إلى نِصابها الصحيح، وينهي فكرة أن يتمرد أي أحد على قرارات الحكومة، أو يفكر في مجرد الاعتراض.. بالأمس القريب قامت ثورة ضد القسم وتم حصاره، وللأسف كنتُ في إجازة ولم يتم أخذ رأيي فقام رئيس المباحث بالتفاوض مع المجرمين والمرتزقة الذين يحاصرون القسم فعظم شأنهم، ونمت في قلوبهم الجرأة علينا ولو كانت القوة هي الحل لمواجهتهم ما وصلنا إلى هذه المرحلة.

قاطعته معترضًا بغضب وعصبية:

- أرفض اتهام سيادة نائب المأمور الذي مع كامل احترامي له كرئيسي وأعلى رتبة لكن الموقف يحتم على الدفاع عن نفسي.. هل سألتم عن سبب حصار القسم الذي تم منذ فترة؟ في هذا اليوم يا سيادة قمنا بإزالة مبانٍ مخالفة وهو حق ونحن ننفذ القانون، لكن للأسف شعور الناس بالظلم جاء من أن القانون لا يُطبق إلا على الضعيف أما أصحاب المال والنفوذ فهم كالعادة فوق القانون، وتظل قصورهم الفخمة تناطح السماء والقانون معًا وكنت أنا ومجموعة من زملائي يُعدون على أصابع اليد موجودين داخل القسم لنفاجأ بصورة غير متوقعة ولم ندبر أمورنا أو نستبق الحدث كي نتعامل معه بحصار المئات من الأهالي للقسم يحالون اقتحامه وإخراج أبنائهم بالقوة ولو تعاملت بالقوة كما يطالب سيادة نائب المأمور لحدثت كارثة ولم تم التعامل بقوة مع أمواج الغضب لتم نهب القسم وحرقه مع موت أرواح كثيرة، وهو ما كان سوف يسبب إحراجًا شديدًا للداخلية وتعاملهم بالقسوة والعنف الشديد مع مواطنين يطالبون بحقوق لهم بغض النظر عن طريقة المطالبة بها، لم نفكر وقتها في أنفسنا بل كان تركيزنا ينصبُّ حول الخروج بأقل الخسائر، ولم يكن لدينا سوى خيار وحيد هو التفاوض ومحاولة التواصل مع المحتجين بشخصية تحظى بحبِّ الجميع واحترامهم تمثَّلت في شخصية العمدة رضوان وبالمناسبة أوجه التحية والتقدير لمدير الأمن الذي شعر بخطورة الموقف ففضل الانتظار وعدم

إرسال أي قوات أو أفراد من الشرطة للقسم حتى لا يتـصاعد الموقـف ويحدث ما لا يُحمد عقباه.

انتفخت أوداج مدير الأمن يشعر بالزهو محاولًا إظهار الجدية:

- دعونا لا نتحدث في ماضٍ انتهـى، نحـن الآن شـأن المعتـصمين داخل السوق ما الطريقة المثلى للتعامل معهم وتنفيـذ مـا نريـده خاصـة وأن سيادة الوزير يُولي الأمر اهتمامًا كبيرًا مـع هـذا الـضغط الإعلامـي الذي يسبب إحراجًا شديدًا لنا جميعًا مع تعليمات السيد المحافظ بتنفيـذ قراراته.

صاح نائب المأمور بصوته الأجش وحماسته المفتعلة:

- خطتي المعروضة على سيادتكم تتمثل في اقتحـام الـسوق فجـرًا بقوات كبيرة والتعامل بحزم مع مَن يرفض الخروج من الـسوق حيـث سيتم فتح ممرات آمنة لخروج المعتصمين ومن يرفض يتم القـبض عليـه فـورًا مـع هـدم خيـامهم وإخـراج عتـادهم ومتعلقـاتهم مـن الـسوق لإخلائهـا فـورًا في ذات الوقـت سـتكون هنـاك حراسـة مـشددة عـلى قطاعات المدينة ومرافقهـا والمبـاني الحكوميـة والمـدارس كافـةً ووضـع المدينة تحت حصار شديد لمنع تسلل أي عناصر خارجـة عـلى القـانون، وهذا الأمر يحتاج لقوات إضافية من الأمن المركـزي وأسـلحة وقنابـل مسيلة للدموع لاستخدامها إذا لزم الأمر.

نظر نحوي مدير الأمن بتشكك الخـائف وقـدرة المغـرور لأهتـف بصوتٍ عالٍ:

- أنا ضد الاعتصام وأرفضه شكلًا وموضوعًا، فنحن جميعًا نرفض أي شكل للخروج على النظام العام وقانون الدولة وهيبتها، وضد أي تصعيد من أي جانب من عامة الناس لكن علينا أن نفكر كثيرًا في حقائق غائبة عنا وأمور عفا عليها الزمان فمثلًا موضوع الكرباج الذي أُثير في بداية الحديث اعتقد مع انتشار التكنولوجيا وزيادة وعي الناس لم يعد يرهبهم هذا الأسلوب، بل يزيد من عنادهم ورغبتهم في المقاومة.. يا سادة اعلموا أن الناس أبسط مما تصورون، ليس ضعفًا منهم بل حبًّا ورغبة منهم في الأمن والاستقرار.. الشعب المصري ليس من طبعه العنف أو الخروج عن القانون، لكنه يحتاج إلى كلمة طيبة صادقة يشعر بجديتها وأنها كلمة مخلصة ممزوجة بالحب ورغبة صادقة في مساعدته والعمل على رفع مستوى معيشته.. لماذا لا نستمع جيدًا لمطالب الناس ومحاولة استيعاب مشكلاتهم ومساعدتهم بنوع من الفهم أو توضيح الحقائق بعيدًا عن موجات الشائعات والتشكيك التي يستغلها الحاقدون من أجل الإيقاع، وزيدة حقنهم وغضبهم على الدولة التي يتصورون أنها تطمع في أرضٍ أصبحت حقًّا لهم ويظنون أن الدولة تحاربهم في أرزاقهم.

صاح لواء متغطرس ذو وجه مُتحجرٍ وأنف طويل يزيده قُبحًا:

- نحن لا نريد كلامًا إنشائيًّا نريد حلًّا واقعيًّا، ما تقوله ليس بجديد والوزارة تتفهمه جيدًا وتتعامل به مع المواطنين لكننا أمام حالة خروج على الدولة، ورفض تنفيذ القانون فلو لديك خطة واقعية اعرضها دون استسهال ومطٍّ لا فائدة منه.

لمحت ابتسامة سخرية من نائب المدير تجرعتُها بمرارة، وقلتُ محاولًا كتم غيظي:

- حاضر يا أفندم.. وجهة نظري تتخلص أولًا في إظهار الاحترام لأهل السوق وعدم اتهامهم بالخيانة أو أنهم قُطاع طُرق وخارجون عن القانون، وثانيًا التفاوض، وفتح حوار مع تجار السوق وبحث مطالبهم مع محاولة إقناعهم بمطالب الحكومة حتى يتم الوصول إلى صيغة تفاهم مشتركة، وأعتقد أن مجرد فتح باب التفاوض وشعورهم بجدية الحكومة ورغبتها في حَلٍّ يحافظ على لقمة عيشهم سوف ينهون اعتصامهم خاصة وأنه يأتي عليهم بالخسارة الشديدة، فقد توقفت حركة التجارة تمامًا داخل السوق، وهناك أشخاص يثق بهم الجميع مثل العمدة رضوان وغيرهم.. ما المانع مثلًا من تأجيل قرار النقل فترةً زمنية معينة يتم فيها تجهيز مكان السوق الجديد بصورة ومظهر حضاري، يجعل التجار يقبلون عليه أو إمكانية البحث عن مكان قريب من قلب المدينة، وهناك أكثر من قطعة فضاء تصلح لإقامة السوق عليها، أما العنف فهو يعني وقوع كارثة إنسانية فلن يقبل المعتصمون الخروج بسهولة، وسوف تصطدم رغبتهم بقوة الشرطة وصلابتها؛ مما يعني وقوع اشتباكات، ودخول عناصر مخربة قد تنتهز الفرصة وتُخرج حقدها الدفين، وتُطلق النار عشوائيًّا ليقع قتلى من الطرفين، ويستغله البعض لتصوير المشهد وتصديره على أن الداخلية تقتل المعتصمين العُزل، وربما ينتقل العنف خارج ساحة السوق ويشتعل أكثر وأكثر

وبدلًا من محاولة الشرطة تحسين صورتها ينقلب الأمر إلى ما لا يُحمد عقباه.

خرجت من الاجتماع منقبض الصدر.. مهمومًا.. أشعر بفتور شديد وتوتر يزيد دقات قلبي أخشى من كارثة قد تقع مع ضيق الأفق وفقدان المنطق والعقلانية.. كلا الجانبين فَقَدَ المنطق ويرى في اللِّين والمرونة ضعفًا وتخاذُلًا.

أتساءل في طريق عودتي إلى القسم: لماذا لا تحاول الشرطة الاحتكام لصوت العقل وعدم التهور والوقوع في فخ ينصبه البعض كي يشوه صورتها وأنها تقتل الأبرياء.. ولماذا هؤلاء الجالسون في السوق يعتصمون داخله يحاولون رفع مطالبهم للسادة المسئولين بعيدًا عن لغة الاحتجاج والاعتصام. ألا يعرف كبار تجار السوق أن الشرطة لن تتهاون وسوف ترد عليهم بقوة وشراسة، وربما تسيل الدماء أنهارًا.. لو حدث سوف يتحملون نصيبًا من الجزاء على سفك دماء ذكية فهم مَن غرروا بهؤلاء المعتصمين ودفعوا بالشباب أمل الغد في المقدمة وأمام فوهة المدفع، كأنها حرب ولن تستقيم الحياة إلا بفرض كلماته، فهل تصمد قوتهم الزائفة مع شراسة الشرطة وفتكها بمن يقف في طريقها؟

أرسلتُ نظري إلى الحقول الخضراء رأيت وجه صَابْحَة يتراءى إزائي بقعة حمراء تزداد وتتسع تلتهم اللون الأخضر.

فزعت، أحثُّ العسكري الذي يقود العربة أن يسرع.. أغمض عيني ربما أعثر على وجه أماني لكن صوت جدتي، وهي تحكي

أقصوصة المساء يتردد صداه في أذني كأنه صوت أرغولي وقد اختلج جفناها.

"لا فائدة.. الأشرار في المدينة".

أغرقني الكرى، لم تشفع نسائم الليل لمزيد من الارتواء الوجداني وما تجوده من لحظات صمت وسكون كي أظل يقظًا أسمع بقية الحكاية، أعرف من هم الأشرار؟ كيف أعرفهم؟ حتى في اليوم التالي بدا الوهن يغزو وجه جدتي الشاحب يزيد من قسمات وجهها المستدير السمح وتجاعيدها.. أبعدني جدي وأنا قابع عند قدميها، لم أجنِ منها إلا نظرات وصمتًا مميتًا.. مرت أيام عثروا عليها عند الفجر ممددة على الأرض جسدها يرتجف غير قادرة على النطق، قيل إن جلطة أصابتها، هرولوا بها إلى المشفى لكنها عادت بعد يوم جسدًا لا حراك بها، وتركتني وحيدًا أتخبط في الحياة.. لم تقل لي مَن هم الأشرار.

سألت بقية الأهل لكنهم لا يدركون شيئًا من حكايات جدتي، وشتات فكرى يحاصرني، وذبول النفس يطاردني.

حتى عندما درست بكلية الشرطة حشدوا عقولنا بكثير من المعلومات عن المجرمين والأشرار لكن بلا حقيقة واضحة تحدد من هم، وتظل غريزتي الفطنة قلقة مضطربة، تلهث وراء ضوء نهار لا يعي فهمًا للعقل أو القلب.

بعثت للعمدة رضوان الذي جاء على عجل بآذان مصغية يتفهم مطلبي.. يسرع إلى المعتصمين حاملًا خيطًا من النور لفتح حوار

وتفاوض معهم ربما تتحقق الأماني، ونصل إلى نقطة التقاء واتفاق حول مطالبهم ومطالبنا، لكن علمت أنهم استقبلوه باستهجان بفتور بل استهزاء وصفوه بأنه عميل.. لديهم تصميم عجيب على الاستمرار في الاعتصام مهما يكلفهم الأمر، ولا تنازل إلا بإلغاء قرار المحافظ.. شعرت بالحسرة لضيق عقليتهم وتطرفهم في الرأي وهذا التعصب الذي يتشدقون بها أخشى من غرورهم وتعاليهم أن يكون نكبة عليهم .. ليتهم يعلمون أن الحق رحمة وتسامح قبل أن يكون قوة.. نعم الحق يحتاج إلى قوة.. لكن القوة لا تأتي بالقوة في كل الأحوال وإلا ما خلق الرحمن الرحمة وأعطانا العقل والذكاء.

عاد الحج رضوان بخُف حُنَين يعتذر عن فشله وخيبة أمله.. أثنيت على مسعاه وشكرته لنُبل خلقه وسعيه المحمود للتفاهم معهم.

ربما أكون قد أخطأت الوسيلة فرغم سيرة الرجل المحمودة إلا أنه على صلة برجل الأعمال التهامي، ويسير في رَكْبِه وضيف دائم على مائدته.

إذًا لا مفر من التفاهم معهم بطريقة مباشرة بعيدًا عن وسطاء، لا بد أن نتنازل ونجلس معهم من أجل المصلحة العامة.. نحن هدفنا حمايتهم والعمل على راحتهم لا مانع من الاستمرار في التفاوض، وعدم التصعيد من جانبنا، ومزيد من تصريحات بعض رجال الشرطة المستفزة لا يصح لنا أن نقارعهم بنفس أسلوبهم، علينا الترفُّع عن هذا الهراء.

الأيام تترى سراعًا والشلل يصيب المدينة مع ثبات المعتصمين على موقفهم بل بدا السوق وفق المعلومات الواردة حياة متكاملة فقد أحضر التجار أهاليهم وذويهم وبات الأمر خارج نطاق السيطرة مما زاد من شدة انزعاجي وهلعي الشديد من حدوث مصادمات عنيفة بيننا وبين هؤلاء وما مصير النساء والأطفال؟

أرسلتُ تقارير عاجلة إلى مدير الأمن لرفعها إلى الوزارة لبيان خطورة الموقف، وتفاقم الوضع إن أقدمت الشرطة على استخدام العنف مع تقديم طلب عاجل كي أتَّجه بذاتي إلى السوق حيث المعتصمون والتفاوض معهم بشكل مباشر لكن لم يصلني ردٌّ.

حاولت مع المأمور أن يدعني أفعل ذلك بشكل ودي لكنه نهرني بشدة لحد التوبيخ:

- ألا تخشى على نفسك من هؤلاء!

قلت محتدًّا:

- أعتقد أن مطالبهم تدور في إطار سلمي وهم لا يقصدون عنفًا ولا خرابًا.

- لكن يا باسل لديَّ تحريات ومعلومات تشير إلى أن بعضهم يحمل سلاحًا وهناك أسلحة بالفعل بحوزتهم، ولا تنسي أن مقتل مالطا على يديك ليس ببعيد وحياتك في خطر وهناك مَن يتربص بك للانتقام.

حاولت التحدث لكنه أشار إليَّ بالصمت ليواصل حديثه:

- وإذا كانت سلامتك لا تهمك فنحن بحاجة إلى الحفاظ على حياة كل رجل شرطي لو حدث لك مكروه قبل فض الاعتصام سيكون إعلانًا صريح لهزيمتنا.. أرجوك لا تخرج من القسم تحت أي ظرف وتفضَّل على مكتبك في انتظار التعليمات.

في اليوم التالي دعا المأمور إلى اجتماع عاجل، بدا على وجهه التجهم والتوتر والعرق يتفصد منه بغزارة، يُبادرنا وصوته يحمل نبرة التوجُّس والخوف.

- صدرت التعليمات بضرورة فض الاعتصام واستخدام القوة إن لزم الأمر، سوف نهاجمهم فجرًا واجتماعنا اليوم لوضع خطة عاجلة وسوف تمدنا الوزارة بقوات من الأمن المركزي قطاعات الوزارة كافة سوف تكون رهنًا لإشاراتنا ومدير الأمن سيكون معنا الآن على الهاتف لنتباحث ونتشاور في الأمر.

رفعت يدي معترضًا:

- يا أفندم سبق أن شرحت خطورة فض الاعتصام بالقوة واستخدام العنف لأن المعتصمين لن يستسلموا بسهولة وسوف تضطر قواتنا للتعامل معهمَ وربما لا قدر الله يسقط قتلى ومصابون من الطرفين خاصة أن من بينهم أطفال ونساء.

قام نائب المأمور محتدًّا يصيح ساخرًا:

- والله مَن يقف في طريق القطار لا يلومن إلا نفسه.

- صاح المأمور يضرب يشير بيده.

- كفى كلامًا لقد صدرت التعليمات وما علينا سوى التنفيذ.

نهضت مُنتصب القامة بهمةٍ وعزة نفس:

- وأنا بريء من هذه التعليمات واسمح لي لن أنفذها.

فتح المأمور فاه غارقًا في دهشة وحيرة .. جحظت عيناه، والأعناق اشرأبت نحوي لا تصدق ما تسمعه.. لحظات من الصمت كان على رؤوسهم الطير حتى استجمع المأمور قواه يشير ناحيتي كي أجلس.

- هل تدرك خطورة ما تقوله يا باسل... أرجوك أنت من أكفأ الضباط الذين عملتُ معهم رغم مرور شهر ونصف على وجودك بيننا لكنك أحدثت فارقًا يشهد له الجميع، وينتظرك مستقبل مشرق، فلا تغرنك عواطفك وتنسَ واجبك.. هم أناس خارجون على القانون وعطلوا مصالح الناس وتوقفت الحياة في المدينة بسببهم فلا بد من اتخاذ إجراء ضدهم.

رفعت هامتي إباء وثقة بالنفس:

- هذه الناس لها مطالب علينا أن نستمع إليها، لم أتعلم في كلية الشرطة التهور والهجوم على أبرياء، كما أن ضميري لا يسمح أن أروِّع طفلًا أو أهجم على نساء عُزل.. يا سادة، الضمير يسبق القانون.

قهقه نائب المأمور يواصل سخريته المقيتة:

- يبدو أن باسل قرر أن ينضم إلى تنظيم المعتصمين ويعلن الحرب علينا.

انفجر المأمور يشير إليه بغضب شديد:

- اسكت.. اسكت الموضوع لا يحتمل أي كلام.

ثم نظر نحوي راجيًا.. عيناه تشعُّ خوفًا.

- باسل أرجوك نفِّذ التعليمات ثم اعترض بعد أن ننتهي من هذه المصيبة، نحن مأمورون، وهو أمر كنا نخشاه، لكن لا مفر.

نظرت نحوه بجمود:

- افعلوا ما شئتم ولتوافق لي على إجازة حتى تنتهوا.

صرخ المأمور في الموجودين يُلوِّح بيده:

- نحن في حالة طوارئ ممنوع منعًا باتًّا أي إجازات، ومَن يرفض تنفيذ التعليمات سوف تتم مساءلته وتقديمه للمحاكمة.. الوضع خطير جدًّا لا يحتمل تخاذلًا أو تهاونًا أو تفكيرًا حتى، لا شيء سوى أن ننفذ إراديًّا شئنا أم أبينا، وكل يحتفظ بوجهة نظره لا وجود لها ما دامت قد صدرت التعليمات، وأي خروج عن مقتضى العمل سيكون الحساب عسيرًا.

ازدادت قامتي انتصابًا.

- آسف يا سيادة المأمور، أنا سأكتب استقالتي حالًا.

ثم خرجت مهرولًا وصوت المأمور يُلاحقني بـرفض الاسـتقالة.. على باب مكتبي يهمس المخبر حجاج في أذني يحذرني من نائـب المـأمور بأنه سمعه يتحدث عني، يضمر لي شرًّا.

***

هاتف رجاء خـارج نطـاق الخدمـة، أضرب عجلـة القيـادة بتـوتر شديد، بدا الطريق إزائي في هذا القـيظ الـشديد لا نهايـة لـه.. لا أدري وجهتي بعد أن تركت استقالتي على مكتـب المـأمور، جمعـتُ متعلقـاتي وقررتُ الرحيل، ترك العمل بالشرطة للأبد، وليفعلوا ما يشاؤون قلتُ لأمي قبل ترك القسم:

- سأعود إلى أحـضانك يـا أمـي أعـوِّض مـا فـاتني مـن حنانـك واستعدي سوف نذهب معًا إلى رجاء فقد اشتقتُ إليها حقًّـا كـي أبـدأ حياة جديدة.

ألمح في المرآة الأمامية سيارة جيب سوداء تسير خلفي لا تحيـد عـن مساري.. بطَّأتُ مـن سُرعتـي فظلـت خلفـي.. أسرعـتُ بعـد أن بـدأ الخوف يتسلَّل إلى قلبي أسأل نفسي: ما الخطب؟

هل حانت لحظة الانتقام لمقتل مالطـا أم نائـب المـأمور بعـث مـن يعاقبني فقد كانت نظراته الأخيرة لي توحي بذلك؟

فجأة اقتربت نـاحيتي، زجاجهـا الفاميـه يحجـب عنـي رؤيـة مـن بداخلها.. السيارة تسير بمحاذاتي مع خلو الطريق في هذا الوقت الباكر

من الصباح.. ضغطت على دواسة البنزين بعنف كي تسرع سيارتي، لكن فجأة ينفتح زجاج السيارة الجيب ببطء، تخرج فوهة مسدس، تُصوِّب ناحيتي، ينتابني ذعر شديد، وأسمع دوي رصاص ينطلق ونار تحرق كتفي، أفقد القدرة على السيطرة على عجلة القيادة، وآلام رهيبة تجتاحني وقميصي الأبيض تحوَّل إلى بقعة دم كبيرة وباب سيارتي ينفتح أفرُّ من شدة الوجع، ألقي بجسدي على الطريق حيث الموت.. رأيت أماني بجناحين من النور قادمة ناحيتي أخيرًا سنمضي معًا.

رجاء

ارتفعت الزغاريد في بيتنا.. فؤاد أمي يرقص منتشيًا.. أخيرًا وافقت على عريس.. أجلس أمام المرآة.. أستعدُّ لخطبتيْ.. أصلح زينتي في انتظار قدوم هذا المزعوم الذي جاء حاملًا البُشرى ووعود من الأحلام البراقة.. وبريق أمواله تتلألأ من نبع بلاد النفط، رغم كونه أرمل، ولديه طفل إلا أنني وافقت التزامًا بقسمي على الموافقة على أي عريس يتقدم لي كما أخبرتُ باسل في آخر مكالمة تحديًا لبروده .. رغم تردد أمي إلا أنها وجدت ضالّتها في التخلُّص من باسل.. استقبلت العريس كفارس عاد ظافرًا من موقعة حربية.. وافقت على مضض كي أجلس معه رجل أربعيني لم أرَ إلا جسدًا مترهلًا وبطنًا منتفخًا وصلعة بارزة، ذو شخصية فارغة لا ترى من الحياة سوى المادة.. كلماته لا تخلو من الزهو بذكائه وماله.. سألت عن المشاعر.. لم يعي فقه تطلعاتي.. لا يؤمن بالهوى .. الصمت شعاري.. الظلام يسكن نهاري.. سألوني عن رأيي فيه.. لم أرد، لا يرى أحد الدمعة الكبيرة التي تجري على خدي الشاحب، باركوا صمتي اعتبروه صك الموافقة، الفرحة الزائفة أعمت عيونهم عن رؤية الهزيمة في عيني، الحزن يملأ أجفاني .. أبحث عن باسل لكن قلبي لا يطاوعني على طلب الاستغاثة منه.. جُرحُ كرامتي لا يندمل، وروحي المنهزمة لا تقوى على البوح.. ذبل الشوق،

وهجرتني طيور الأمل ومشاعره المبتورة الجافة سوط يلهب حنيني.. لا أطيق النظر إلى وجهي في المرآة.. طلبت من رفيقاتي أن يدعنني، أريد الخلوة.. كم تمنيتُ كلمة من باسل طوال الأيام الماضية كي أكسر كل قيد يطوقني، وأعلن تمردي، أهزم خيبة الأمل، وانطفاء الروح، أصمد إزاء إعصار أمي، لكن شعورًا بالإحباط يتعاظم بداخلي مع الأنباء التي لا يكف التلفاز عن إذاعتها عن تمرُّد التجار في المدينة التي يعمل فيها باسل وعصيانهم.. أسوأ ما في الوجود أن تعشق إنسانًا يضنُّ بشيء من الاهتمام مهما يعانِ ظروفًا وتحاصره المشكلات، لعل الحب يكون له شفيعًا في تلك الظروف العصيبة كي يمثل له دافعًا نحو الصمود، ومقاومة المعوقات كي ينجح ويتغلب على كل هذا، أليس الحب سبيل الفرسان، وما من حرب قامت إلا من أجل الحب.. أليس كل مقاتل يشارك في الحرب عزيمته الصبر وقوة احتماله من الحب كي يعود منتصرًا ويفوز بحبيبته التي تنتظره بشغفٍ شوق جارف؟

جريمة حمقاء أن نقتل الحب بحجة الظروف! رغم جفائه ونضب اهتمامه وهجرانه لي ما زلتُ أنتظره بشغف.. أبكي، دموعي تغرق هاتفي أتأمل رقمه، أودُّ الاتصال لكن روحي يئست.. أغلقت الهاتف ربما أجد دواء للنسيان.. بل جئتُ بخطٍّ ورقمٍ جديد.. أمه تتصل على الخط الأرضي قلقة لغياب صوتي عنها.. تخبرها أمي بالحقيقة.. انتهى الأمر.. أبكي نفسي، أتحسر على فقدي الحب وغياب الحبيب، وهذا القادم الذي جاء يريدني زوجة خادمة له ولطفله.. لا يهمه سعادتي، ولا

يبحث عن إزاحة همومي وتطييب أوجاعي، لا يفقه الحبَّ، ولا فن الاحتواء.. شحيح المشاعر رغم تطابق بعض من ذلك لدى باسل، لكن يبقى هذا الباسل فارسًا نبيلًا ينبض قلبه بالحياة فالنهر وإن شحَّت مياهه يومًا ما سيأتيه الفيضان ليغمر ويفيض حبًّا وحياة.

نَبْشُ الماضي سبيلٌ لا مناص منه.. يطالعني وجه هشام.. الحبيب المفقود.. ألمًا لا يبارح القلب، وحُزنًا لا ينساه العقل.. تأملت صورته التي نشرها على صفحته على الفيس بوك.. عبث المشيب ببعض شعراته حتى ابتسامته الواهنة تؤكد قناعًا مزيفًا يُخفي خلفه تعاسة.. الفضول يدفعني نحوه أرسل إليه رسالة مقتضبة أسأل عن أحواله.. يردُّ على الفور.. تنهمر كلماته وتتداخل مشاعره.. يُبدي ندمه ويؤكد أنه على غير وفاق مع زوجته.. يُمطرني بكلمات غزل.. ضحكت بسخرية على عبث الإنسان، وتفريطه في النعم ثم يحاول الحصول عليها مرة أخرى بطرق لا تستقيم معها الحياة، كما كنا نتمنى.. لم أُرِد سوى بكلمة واحدة.: الوادع يا هشام.. قمتُ بحظره.. أخشى أن يُلاحقني من صفحات أخرى.. تذكرت مقولة باسل: إن الفيس بوك مضيعة للوقت، استنزاف للمشاعر.. ألغيتُ صفحتي للأبد.. لا حاجة لي بها، فالعريس بليد في التكنولوجيا لا يعترف بوسائل الاتصال الحديثة.. وهب وقته لجمع المال.

تدخل أمي منزعجة تغمغم بكلام كثير.. أفقت من شرودي لأجد نفسي ما زلتُ جالسة أمام المرآة ..تضرب على صدرها عندما تجدني

أبكي ودموعي سيل لا ينقطع.. رأيت حنانًا في نظراتها لم أشعر به من قبل تمسك بيدي تساعدني على النهوض، تضمني إليها برقة وحنان أفتقده كثيرًا، أرتمي على صدرها، تربت على كتفي وظهري، تلاطفني، تحاول أن تزيل مسحة الحزن عني، تسألني عما بي، لا تجني سوى بكائي، تقول بانكسار وأسًى:

- اهدئي يا حبيبتي أنا لم أفعل إلا ما يسعدك وصعب جدًّا أن أتركك تتعلقين بوهم وشخص لا يقدرك ويرفض اتخاذ أي خطوة تؤكد جديته.. هيا العريس على وصول ولا يصحُّ أن يأتي وأنت على هذه الحالة.. ربنا يهدي الحال وهو إنسان طيب وعلى خلق وجاد في كلامه وسوف ينجح في أن يجعلك تبادلينه الحب.

امتثلت لرغبة أمي لا مفر.. ضاع الأمل وانطفأت بهجتي ليظل الحزن رابضًا في فؤادي.. راسخًا في وجداني، ولا سبيل لهذا الذي نتوهمه حبًّا وهو لا شيء على الإطلاق.

قلبي يتساءل وقد هزمته الآمال:

ما عساك أن تفعل! تحولت الزهور التي عهدتها بالرعاية على أمل الشفاء والعطاء إلى أشواك تجلب العناء والشقاء.. يحاصرك السراب.. لا بأس أن تمسك بالفأس تقتلعها، لا عُذر لك إن تركتها تعربد، تعزف ألحان شجنك، تدعك وحيدًا في سجنك.. تجلس على مسرح الحياة، تبكي العمر، تتحسر على ماضٍ لن يعود أبدًا.

يأتي العريس حاملًا هداياه وذهب يلمع، يعلن على غير اتفـاق أنـه سوف يسافر خلال شهر وقبله سوف يتم الزواج وأسافر معـه لأهـرب من مصر، وما تحمله من ذكريات ربما أجد ملاذًا للنسيان عـلى شـاطئ الخليج العربي.

باسل

تتعالى صرخاتي، والرصاص ينهمر، وجسدي مُلقًى على الطريق مضرَّجًا في دمائي، أرفع يدي طالبًا الاستغاثة لتصطدم بالوسادة أنهض فزعًا، وكياني ينتفض هلعًا لأجد ظلام الغرفة قابعًا، أتحسس جسدي لا شيء به، أتوسد فراشي الوثير.. نهضتُ أفتح نافذتي ربما ينسكب ضوء القمر، يزيل همَّ هذا الكابوس، ويطرد هلعي.

أيقنت خطورة الأمر، لا بقاء لي هنا في تلك المدينة عليَّ الرحيل فورًا، لقد تركت الاستقالة على مكتب المأمور لكي يصعدها للجهات الأعلى للبتِّ فيها، لكن قراري - ولا تراجع فيه - ترك العمل بالشرطة مهما يكلفني ذلك.

يحتم عليَّ الموقف التعجل لكن إلى أين المفر؟ سؤال راودني في الكابوس الذي داهمني منذ قليل ولم أجد إجابة.. أُفتِّش في ذاكرتي فأنا بحاجة للاختفاء لفترة من الزمن.. أعوان مالطا لن يدعوني حُرًّا طليقًا وربما الداخلية لن تدعني، وسوف أعيش في مضايقات.. ليتني أهاجر خارج مصر لسنوات، وليكن في إحدى دول الخليج، وأرسل إلى رجاء وأمي لكن هذه مسألة سابقة لأوانها.. البحث عن مكان مؤقت.. وجوه وأحداث تدور في الذاكرة حتى تذكرته هو السبيل، ولن يُمانع أبدًا في إيوائي، إنه معلمي وصديقي الوفي العقيد محمد الغنيمي عملت معه

وتتلمذت على يديه معنى الشرف والمروءة، وكيف أكون شرطيًّا يراعي ضميره وبسبب حرصه على النزاهة لم يستطع الاستمرار وتمت إحالته للتقاعد رغم كفاءته وإشادة مرؤوسيه، يعمل حاليًّا مدير أمن بإحدى قرى الساحل الشمالي وكم دعاني مرارًا وتكرارًا لزيارته، لكن انشغالي حال دون ذلك، لكن كيف السبيل للهروب دون تعقُّب، وترصُّد من أحد.. ربما لا يدعني المأمور للرحيل خاصة وأنه حدَّد الساعة الثالثة بعد منتصف الليل موعدًا لكي نجتمع في مكتبه، يبدو أن النية الليلة التحرُّك لاقتحام السوق.

الساعة تُشير إلى الواحدة، يؤرقني كيفية الخروج، والشرطة تحاصر المدينة، ونائب المأمور كما عرفت موجود في الكمين الكائن بمدخل المدينة.. أفكر في شخص أمين، ويحفظ العهد كي يساعدني.. لا أحد بعد رحيل إيهاب.. تذكرت الحج رضوان العمدة لا مفر من الاستغاثة به وطلب العون لمساعدتي، لن أنتظر، سأتصل عليه حالًا حتى لو كان نائمًا.

***

لجأت للخديعة كي أخرج من القسم، على بوابته وقفت أتفقد الحراسة، ويقظة رجال القسم، أتابع التحركات التي تنم عن وجود شيء غير عادي سوف يحدث.

تسللتُ، سرتُ بعيدًا أحمل حقيبة صغيرة، في أحد الشوارع الجانبية وجدت سيارة نصف نقل تنتظرني بداخلها بدَّلتُ ثيابي لأتنكر مرة أخرى في زي بائع، وعبر طريق ترابي وسط الحقول تسللت بصحبة

السائق الذي أرسله مع هذه العربة الحج رضوان، خرجنا من المدينة بعيدًا عن أعين القوات والأكمنة التي تحاصر المدينة حتى وصلنا إلى الطريق الرئيسي لنجد سربًا من سيارات الشرطة وعربات الترحيلات تحمل عددًا كبيرًا من العساكر والمجندين تخترق ظلمة الليل قادمة في الاتجاه المعاكس في طريقها إلى المدينة، أيقنت أن ساعة الصفر، ولحظة اقتحام السوق ستكون بعد ساعات.. مع بشائر الفجر.

مع مطلع الظهيرة، وبعد نحو خمس ساعات ورحلة شاقة وصلتُ إلى القرية السياحية لأشكر السائق، أرسل سلامي وفيضًا محبتي إلى الحج رضوان على صنيعه، وهذا المعروف الذي فعله معي وسأظل مدين له مدى حياتي.

أحاول الاتصال على رجاء لكن هاتفها مغلق.. على باب القرية تذكرت أمي، وكيف أنني لم أرد على اتصالاتها طوال الطريق.. جاءني صوتها تصرخ منزعجة بشدة، تسألني عن حالي وهل أنا بخير؟ تقول إنها ترى المدينة تحترق في التلفاز.. سألتها عن رجاء، جاء ردها صادمًا زاد من أوجاعي وآلامي ولم أكن أتوقع سماع خبر خطوبة رجاء، شعرت بألم شديد وصداع يكاد يفجر رأسي.. أناجي نفسي.

"حتى أنت يا رجاء! الكل يبتعد ويتخاذل.. في الوقت الذي أحتاجك فيه، وأزفُّ إليك بشرى قراري بالارتباط بك لا أجدك.. تبًّا لهذا الحب الذي كنت تدعين وجوده!".

سألت عن العقيد محمد الغنيمي.. استقبلني بدهشة عارمة.. ذابت كلماته لا يصدق رؤيتي.. سألته ما به؟ قادني إلى مكتبه، يشير إلى التلفاز هالني ما رأيت.. جحظت عيناي في جنون، جثوت على ركبتي أصرخ مذهولًا من فظاعة ما تنقله الشاشة صدامات واشتباكات عنيفة كأنها حرب سجال بين الشرطة والمعتصمين داخل السوق، حالات من الكر والفر مع تبادُل كثيف لإطلاق النار، وسقوط قتلى بأعداد كبيرة مع إصرار الباعة على الصمود والشرطة لا تتراجع عن ملاحقتهم وإخلاء السوق، الخيام الأكشاك والمحلات تحترق، والمسجد الأثري تحيط به النيران تلتهم زخارفه ونقوشه .... الأدخنة تتصاعد من مبنى قسم الشرطة.. الحرائق تتوالى.. بل المدينة كلها تحترق، بات الأمر مأساة من دم ونار.. يهزني العقيد محمد الغنيمي من كتفي، يسألني، غاضبًا، صارمًا، لماذا جئت إلى هنا؟ يتهمني بالهروب والتخاذل.... تخلصت من قبضته، رفعت هامتي تجاهه، أبكي بانهيار شديد.

"لم أهرب من أداء واجبي، لم أتخاذل عن تأدية عملي بل جئت إلى هنا كيلا أشارك، وأتحمل ذنبًا عظيمًا.. ألم تُعلِّمني أن الضمير يسبق القانون!"

يطالبني بحدة وقوة أن أعود.......

تأوُّهت باكيًا، ويداي تعتصران رأسي:

"لا فائدة.. المدينة تحترق .. كل شيء يحترق...... "

صورة جديدة

يجلس في كوخه المنعزل منتشيًا، يشاهد التلفاز، يتنقل بين القنوات المختلفة، يتابع المصادمات العنيفة بين الشرطة ومعتصمي السوق.. تتراقص السعادة بداخله، يتمنى الهلاك للطرفين.. يحملق في الشاشة، يفتش عن غريمه الرائد باسل، يتمنى مقتله وهلاكه كي يتخلص منه للأبد انتقامًا لما فعله آخرها قتله لتوأمه، رغم أن هناك إشاعة قوية تؤكد هروبه.. مساعده يجلس عند قدميه يرصُّ الفحم على النارجيلة.. يسحب نفسًا عميقًا ثم يزفر الدخان في غبطة، يصيح في مساعده يشير إلى الشاشة:

- هذه نهاية كل من يتحداني.. أغبياء تصوروا أنني قُتلت وأنا مالطا لا يستسلم.

يهز مساعده رأسه في محاولة للفهم لكن مالطا يزجره ويأمره بالخروج.

وحيدًا يضطجع، يتطلع بنظره من خلال فُرجة النافذة المفتوحة يناجي نفسه:

"سأظل مالطا مهما يحاولوا.. ذكائي قادر على صدّ أي محاولةٍ للنيل مني وإجهاضها.. يومًا ما رفعت صَابْحَة راية التحدي، رفضت دخول بضاعتي إلى السوق، بل هددتني بأنها ستبلغ الشرطة عن رجالي ممن يبيعون السموم متخذين زحام السوق ستارًا لهم.. وجدت ضالتي في

العاشقين جمال وجمالات.. خططنا ونجحنا.. لكن الحقير جمال بخوفه الشديد فضح نفسه فكان مصيره الهلاك قبل أن يتفوه بحرف واحد، أما جمالات عندما لجأت لي أمرت رجالي بإلقائها في النيل بطريقة تبدو أنها انتحرت وقبلها أرغمتها على محادثة الضابط المغرور باسل هاتفيًّا كي أضلله أكثر.. أما الشرطة التي حاربتني ولم تتركني أهنأ بحياتي وتجارتي ها هو نتيجة التحدي، هوت في مستنقع السوق".

انفجرَ ضاحكًا، ينهض محاولًا السيطرة على انفعالات الزهو لم يُفِقْ إلا ومساعده يدفع باب الكوخ وسط جلبة من الأصوات العالية بالخارج، يبصق في وجه المساعد مستفسرًا عن سِرِّ اقتحامه المفاجئ، يصرخ المساعد، وجهه يحمل الفزع والخوف الشديد:

"مصيبة يا مِعلم مالطا.. المِعلم قُبرص هرب من السجن ومعه رجالنا بالخارج".

يفتح مالطا فاه مندهشًا.. قَفَزَ يرفع فراشه يستخرج بندقية ويُسرع نحو الخارج يقابل رجلًا فارعًا، أسود الوجه، مُدبَّب الأنف، ذا شارب كثيف يُغطي فمه، يمسك بندقية وخلفه مجموعة من الرجال الأشداء مدججين بالسلاح، يصيح مالطا مُحاولًا التماسُك رغم شحوب وجهه:

- ما الذي جاء بك إلى هنا يا قبرص؟ وكيف عرفت مكاني؟ وكيف خرجت من السجن؟

تعلو ضحكات قبرص ورجاله ينظرون إلى مالطا بسخرية وازدراء.. ينسحب مساعد مالطا ليقف بجوار رجال قبرص، الدهشة تعقد لسان قبرص ليواصل قبرص ضحكاته.

- كل رجالك خانوك يا مالطا وجاء موعد تصفية الحساب بيننا، وقد نجحتُ في الهروب من الحجز بقسم الشرطة استغلالًا لاحتراق قسم الشرطة منذ قليل في أثناء فض اعتصام السوق وقلت أول شيء أفعله هو المجيء إليك الآن لأن بيننا حسابًا طويلًا.

يرفع مالطا بندقيته يهتف غاضبًا:

- كل مَن يتحداني مصيره الهلاك، ولا تنسَ أنني الذي صنعتك يومًا وعملت منك رجلًا ذا قيمة، لكنك كلب حقير تنسى فضل سيدك عليك، وأنت تعلم أن مالطا الذي تظن الحكومة أنه قد مات سيعود قريبًا ويُعيد مجده.. عُد إلى رشدك يا قبرص ولتظل واحدًا من رجالي المخلصين بدلًا من هذا الغباء الذي تتصوره، ولن أرحمك، وستكون عِبرةً لكل من يتجرأ على مالطا، ويظن نفسه سيدًا.

يواصل قبرص ضحكاته ثم ينظر مليًّا إلى مالطة يهزُّ رأسه بسخرية:

- انسَ، لقد انتهى كل شيء، وسنكتب نهاية مالطا الحقيقي، الآن فالحكومة مشغولة بمطاردة تجار السوق والجميع لا يعلم حقيقة أخيك التوأم الذي مات، وتصوروا أن ضابط المباحث باسل قتلك.. إذًا التخلص منك الآن ليس جريمة لأنك في نظر الحكومة ميت.

تراجَعَ مالطا خطوتين للخلف يحاول التقاط أنفاسه:

- ما الفائدة من قتلي يا قبرص الآن. تعالَ ضع يدك في يدي ونعمل معًا كما كنا قبل ذلك.. أنتَ في حاجة إلى ذكائي وأنا في حاجة لخبراتك وحماستك وحب رجالنا لك.

يصيح قبرص، يزداد غضبه اشتعالًا:

- قلت انتهى.. أنت ثعلب ماكر لا أمان لك، وشخص خائن، حاولت قتلي أكثر من مرة لأني أردتُ العمل بعيدًا عنك والساحة لا تستوعب وجود قائدين، أما أنا أو أنت وكما ترى الشرطة قتلت معظم رجالك، ومن بقيَ انضم إليَّ الآن، وهروبي من الشرطة هو بداية لعصري واستعادة هيبتنا وإعادة الرواج لتجارتنا ونهاية لك وثأر لكل من راحوا ضحية إجرامك وشرورك.

يصرخ مالطا، يرفع فوهة بندقيته نحو قبرص، وقبل أن يضغط على الزناد انهمرت عليه الطلقات تخترق جسده بلا رحمة ليهوي صريعًا بعد غربلته بطريقة وحشية، وقد انقلبت السماء رمادية، بينما طلقات قبرص تتجه إلى أعلى احتفالًا بنصره، يصيح ظافرًا وسط رجاله.

"انتهى عصر مالطا.. هنيئًا لكم بعصر قُبرص".

تمت بعون الله

البريجات – كوم حمادة

شكر خاص

إلى أسرتي الحبيبة..

إلى أستاذي الذي فُجعت برحيله منذ أيام الكاتب العظيم فخري فايد (رحمه الله).

إلى الأستاذ حسن غراب

إلى أستاذنا الكريم محمد محمد السنباطي

وإلى زملائي الكرام الدكتور أحمد يوسف شاهين، محمد الناغي، محمد عبد الرازق، أحمد سعيد، هاني دعبس، فاطمة ماضي، محمد الشاذلي.

وإلى الكاتبة والصديقة العزيزة نادية حسين التي تعبت معي في المراجعة واستفدت من آرائها في التعديلات على الرواية.

مالطا

كنا نلهو ونمرحُ في دار جدي الواسعة على ضفاف النيل، نعدو خلفَ الفراشاتِ، ونقذِفُ الحصى في قلب الماء النابض بالحياة والجمال ..
في يومٍ لا يُمحى من ذاكرتي ونحن نلعبُ شعرتْ بوخز في رأسها، سألتُها .. فاضت بعبير ابتسامتها صمتًا، وجهُها المُنير المُشَّرق بدأ يخفُت .. انطلقوا بها في سيارة جارنا الأسطى عباس ذات ليلةَ ليلاء غاب فيها القمر واندثرت فيها النجوم . . صرختُ وارتميتُ على الأرض أتمرَّغ في التراب لكنهم لم يعيروا اهتمامًا لتوسلاتي كي أذهب معها إلى المستشفى، انتظرتُها تعود حتى غلبني النعاس بين أحضان جدتي .. استيقظتُ صباحًا لأرى نسوة يتشحن بالسواد والحزن يُعشش في أركان البيت .. جدتي ظلت تبكي في خفوت، ضمتني برفق، لكني تملصتُ منها، هرولتُ لأحد الرجال يجلسون بأسًى أمام الدار، أسألهم عن ابنة عمي حتى ضاق بي جدي يصيح منزعجًا ونظراته تشعُّ ألمًا: اسكت يا ولد .. أماني ماتت .. ولم أكن أعرف ماذا يعني الموتُ .. لكن عندما كبرتُ تعلمتُ أن الأموات لا يعودون .. ليتني ما كبرتُ!

تصميم: عبد الرحمن حافظ

محمد صلاح زكريا قاص و روائى - عضو اتحاد كتاب مصر - يعمل أخصائيا نفسيا
صدر له من قبل ثلاث مجموعات قصصية " انسان فى زمن النسيان " ، " سبحة و كاس " ، " بسمة على شفاه الموت "
كما صدرت له روايات " الضائع بين يدىّ " ، " سلوى " سيد مُسافر " ، " نصف إله "
فازت روايته سيد مُسافر فى المسابقة المركزية للهيئة العامة لقصور الثقافة عام ٢٠١٣
و فازت مجموعته القصصية " بسمة على شفاه الموت " على جائزة المجلس الأعلى للثقافة عام ٢٠١٤


978-977-786-138-0

